

الشيخ أحمد الطفيلي

شبهات وردود عقائدية

دار القلم
بيروت - لبنان



لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش - سنتر فضل الله
تلفاكس: 0096114545133 - 689496 - 009613 ص.ب: 327/25
www.daralwala.com - info@daralwala.com
E-mail: daralwala@yahoo.com

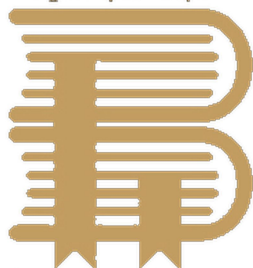
هوية الكتاب

- الكتاب : شبهاة وردود عقائدية
- المؤلف : الشيخ أحمد الطفيلي
- الناشر : دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
- الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

شبهات وردود عقائدية

الشيخ أحمد الطفيلي

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

دار الولااء

بيروت - لبنان



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

ويعد:

طلبت مني إدارة التعليم في حوزة الإمام الخميني رحمه الله كتابه شبهاة وردود حول عقائد الإمامية، فليبت الطلب ويادرت إلى الكتابة، حيث ابتلي العالم الإسلامي بهجمات عنيفة وشرسة من بعض المحسوبين على الإسلام والمسلمين أمثال ابن تيمية الذي كان قد نشر الأفكار الباطلة والمنحرفة فتصدى له علماء المذاهب والفقهاء إلى أن طُرد وخُبس وضُيق عليه حتى مات في الحبس، وتبعه محمد بن عبد الوهاب شيخ الوهابية في هجماته على المسلمين وخاصة الشيعة الإمامية. وكان من الواجب على كل المسلمين القيام بدورهم في مواجهة هذه التيارات وتقنيد مبانيها وإظهار خطأ معتقداتها وفضح شذوذها وبعدها عن الإسلام، أنا بدوري كواحد من طلبة العلوم الدينية في الحوزة العلمية ومن آحاد المسلمين - أعلى الله كلمتهم - رأيت من واجبي القيام بتكليف الشرعي في صد هذا التيار التيمي والوهابي من خلال إلقاء الدروس والمحاضرات على طلبة حوزة الإمام الخميني رحمه الله في دمشق، وتوعية الجيل الجديد على حقيقة هذه الدعوة

الباطلة وتحذيره مما يجري باسم الدين الحنيف وتوجيهه للقيام بمسؤوليته في الرد على مثل هذه الأفكار والدفاع عن الإسلام والحق حتى يظهر جلياً فيتمسك به المسلمون جميعاً وهذه أمانتنا المقدسة في عصرنا عصر الحوار والتفاهم وعصر التعارف والتقارب، فلنسع لتحقيق الوحدة الإسلامية لأن عدونا الذي يريد أن يسيطر على بلادنا فينهب خيراتها ومعادنها وينشر الكفر والإلحاد ويشيع الفحشاء والفساد فيها، يسعى ليفرقنا ويباعد بيننا وذلك بنسب الأباطيل وإشاعة الأكاذيب بين المذاهب الإسلامية، فيلقي بين المسلمين العداوة والبغضاء، ولكي نعزل الأعداء ونخلع سلاحهم الفتاك (فرق تسد) يلزمنا أن نتفاهم ونتقارب ونتحد ولا يتحقق التقارب والإتحاد إلا بالتفاهم والتعارف وذلك بالحوار الإيجابي البناء ومناظرة العلماء بعيداً عن التعصب والعدا، ملتفين نحو حكم القرآن الكريم والسنة القطعية والعقل السليم لاختيار أحسن القول كما أمر سبحانه في كتابه العزيز ﴿... فَبَيِّنْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾^(١). إذ يلزم على المسلم الكامل والإنسان العاقل أن يكون بصيراً في دينه عالماً بأمر مذهبه، لا يقبل قولاً ولا يتمسك بشيء إلا عن دليل وبرهان حتى يصبح فيه على يقين وإذعان، فمن لم يتحقق ويُدقق في القضايا المذهبية، وارتبط بمذهب آبائه ولزم طريقة إسلامه فرأى نفسه تائهاً قد ضلّ السبيل، ولقد عبر الله الحكيم عن هذا الإنسان بالأعمى فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هُدًى أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢).

وهذا الكتاب مجموعة محاضرات ألقيتها على طلبة المرحلة السابعة

(١) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٢.

والسادسة والخامسة من طلبة حوزة الإمام الخميني قدس سره في صدد جمع شمل الأمة وتوحيدها وللبرهنة على معتقدات الإمامية بالأدلة العقلية والنقلية المتواترة أو المستفيضة والمقبولة عند المسلمين جميعاً، وسيلاحظ القارئ الكريم فيه أننا:

١- ناقشنا الأحاديث التي تعتبرها الوهابية دليلاً تعتمدة وترتكز عليه فيما ترى من الرأي الباطل، وأثبتنا خطأ ما ذهبت إليه، كما أوردنا آراء علماء الرجال بصدد روايتها وأثبتنا ضعف تلك الأحاديث سنداً ودلالة حتى لا يبقى للوهابية ما ترتكز عليه من رواية وحديث.

٢- يمتاز هذا الكتاب عن غيره فيما أُلّف في هذا المضممار بكثرة الشواهد والنصوص التاريخية لرد دعوى ابن تيمية وابن عبد الوهاب.

٣- اكتفينا في هذا الحقل بالمواضيع التي كثيراً ما تثيرها الوهابية كمسألة الاستغاثة بالميت وبالنبي ﷺ وشد الرحال إليه لزيارة قبره ﷺ والتبرك به وبآثاره والدعاء عند القبور وبناء القبور ومسألة الشفاعة والحلف بغير الله وإقامة الاحتفالات وغيرها من المسائل التي تثيرها الوهابية.

٤- ثم خصّصنا في الكتاب فصولاً لدراسة نظرية البداء عند الإمامية والاستدلال عليها بالأدلة العقلية والنقلية الصحيحة كما ذكرنا بحث الإمامية وفصولها وهل هي بالنص أو بالشورى ثم أوردنا الأدلة على ذلك، ثم بحثاً خاصاً في المهدي المنتظر وذكرنا النبوة وبحثها، ومنها عصمة الأنبياء مطلقاً بالأدلة العقلية والنقلية وكما ذكرنا شبهة اتهام الشيعة بتحريف القرآن والإجابة عليها بالأدلة العقلية والنقلية، وخصّصنا فصلاً خاصاً بإيمان أبي طالب وأثبتناه بالأدلة العقلية والنقلية المتواترة أو المستفيضة أو الصحيحة،

وبحثنا نظرية عدالة الصحابة وأثبتنا أنها تتعارض مع النصوص القرآنية القطعية الدلالة والسنة النبوية الشريفة المعتمدة.

٥- اقتبسنا واعتمدنا في بحثنا هذا على مصادر كثيرة أهمها:

١- البيان في تفسير القرآن: لآية الله العظمى المحقق الخوئي رحمته الله.

٢- بحث حول المهدي: للشهيد السعيد آية الله العظمى المحقق السيد

محمد باقر الصدر رحمته الله.

٣- الإلهيات: لآية الله الشيخ جعفر سبحاني (دام ظله).

٤- روافد الإيمان: للعلامة الشيخ الطبسي (دام ظله).

٥- كشف الارتباب: للعلامة السيد محسن الأمين رحمته الله.

وفي الختام نشكر إدارة الحوزة وإدارة شؤون التعليم واللجنة العلمية لما أتحنفونا بملاحظاتهم القيمة، فلهم منا جزيل الشكر والاحترام، هذا ونحمد الله تعالى على هذا التوفيق إنه ولي النعم.

تم الفراغ منه في اليوم الخامس من جمادى الأولى في سنة أربع وعشرين وأربعمائة بعد الألف للهجرة النبوية الشريفة والموافق يوم ولادة عقيلة الهاشميين بطنلة كربلاء زينب الكبرى سلام الله عليها.

الشيخ أحمد الطفيلي

٥/جمادى الأولى ١٤٢٧هـ

الفصل الأول

بحث في التجسيم

الفصل الأول

في التجسيم

• ابن تيمية يتبنى عقيدة التجسيم:

أخذ ابن تيمية يتبنى عقيدة التجسيم من خلال صحيح البخاري^(١) وصحيح مسلم^(٢) وحاول فرضها على المسلمين باسم التوحيد. حيث يزعم أتباع ابن تيمية أنهم وحدهم الموحدون وأنهم وحدهم أصحاب العقيدة الصحيحة... وأهل السنة والجماعة وبقية المسلمين الذين يخالفون رأيهم هم أهل البدع والضلالة وأكثرهم كفار مشركون^(٣) لكنك عندما تنظر إلى عقيدة ابن تيمية وأتباعه يأخذك العجب، لأنها تقوم على أسس بعيدة كل البعد عن التوحيد الذي عليه المسلمون، فالتيميون يشبهون الله تعالى بخلقه ويجسمون ذاته المقدسة ويقولون: إن صفات التجسيم لله الموجودة في التوراة المحرفة كلها صحيحة. والله عندهم على صورة البشر وهو موجود

(١) صحيح البخاري ج ٤ باب الصراط.

(٢) صحيح مسلم ج ١ باب إثبات رؤية المؤمنين ربه في الآخرة، ومسنده أحمد ج ٢ ص ٢٧٥ تجد فيها أخباراً كثيرة في رؤية الله تعالى فمنها ما رواه مسلم في صحيحه ج ١ في باب إثبات رؤية المؤمنين ربه في الآخرة عن أبي هريرة قال: إن النار تزفر وتتقيظ شديداً فلا تسكن حتى يضع الرب قدمه فيها.

(٣) منهاج السنة صفحة ١٢١ مكتبة المعارف - الرياض.

في مكان خاص من الكون وينزل إلى الأرض ويصعد ويفرح ويضحك ويغضب... إلى آخره وأنا أنقل لكم نموذجاً منها: عن أبي هريرة قال: إن جماعة سألوا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال ﷺ: نعم^(١) فمعبودهم جسم من نوع الطبيعة المخلوقة، وهو خاضع لقوانين الزمان والمكان اللذين خلقهما وإذا قلت لهم: إن الله تعالى منزّه عن أن يحويه مكان أو زمان لأنه قبلهما، وهو في نفس الوقت في كل مكان وزمان، مهيمّن عليهما وعلى كل الموجودات، لا يقبلون ذلك ويتهمون قائله بأنه ينفي صفات الله تعالى ووجوده^(٢).

- ابن تيمية يدعو المسلمين إلى الإيمان بمعبود اليهود حسب التوراة:

وجدت لابن تيمية تصريحاً خطيراً يكشف عن حقيقة عقده^(٣) فقد صرح بأن الذين كفروا من اليهود هم الذين قالوا: عزير ابن الله وأن هؤلاء قلة قليلة، أما عامة اليهود فعقيدتهم صحيحة وتوراتهم صحيحة! وتجسيم الله الذي فيها، وأن الله يجلس على كرسي ويحمل عرشه حيوانات... وأنه... وأنه... كل ذلك صحيح!

وزعم ابن تيمية أن الحاخامات جاؤوا إلى النبي ﷺ وعرضوا عليه ذلك فأقره كله وصدقه! فتطابقت العقيدة الإسلامية بالعقيدة اليهودية في تجسيم الله تعالى! ولذلك فإن التوراة عند ابن تيمية صحيحة وحجة على المسلمين، وعليهم أن يأخذوا عقيدتهم بالله تعالى منها.

(١) صحيح مسلم ج ١ باب إثبات رؤية المؤمنين ربه في الآخرة - نشر دار إحياء التراث - بيروت.

(٢) منهاج السنة لابن تيمية. صفحة ٩٥ مكتبة المعارف - الرياض.

(٣) راجع كتابه العقل في فهم القرآن، صفحة: ٨٨

* رؤية الله تعالى بالعين محال

تعتقد الإمامية بأن الله تعالى لا يمكن أن يرى بالعين لا في الدنيا ولا في الآخرة لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١) ولا يحيطون به علماً إلى آخر الآيات الصريحة أن الله تعالى لا يمكن أن يرى بالعين بل يرى بالعقل والقلب فتكون أظهر دليل وأقوى برهان على زيف تلك الروايات فمن اعتقد برؤيته تعالى يلزم أن يعتقد بجسميته عز وجل وبأنه محاط ويلزم أن يكون مادة حتى يرى بالعين. وقد استدلل أئمتنا عليهم السلام وعلمائنا رضوان الله عليهم على نفي التجسيم والرؤية بالأدلة العقلية والنقلية (هي الكتاب والسنة) واعتبر وأن ذلك من ضرورات مذهبنا، بل هو كالبديهييات حتى عند عوامنا وأول ما ظهر القول برؤية الله تعالى بعد النبي ﷺ من كعب الأبحار وأمثاله فوقف أهل البيت عليهم السلام وجمهور الصحابة في وجه ذلك، وكافحوا ضد نسبة الرؤية بالعين إلى الإسلام والكتاب والسنة والعقل وإليك أدلة النافيين للتجسيم:

١- في أنه تعالى مخالف لغيره من الماهيات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فلو كان تعالى في ذاته مساوياً لجميع ذوات الأشياء جاز انقلاب القديم محدثاً وبالعكس وهذا باطل بالضرورة

٢- في أنه تعالى غير مركب لأن المركب مفتقر إلى أجزائه لتأخره وتعليه بها وكل جزء من المركب فإنه مغاير له وكل مفتقر إلى الغير ممكن وهذا خلف، فواجب الوجود يقتضي نفي التركيب واعلم أن التركيب قد

(١) سورة الانعام: الآية ١٠٣.

يكون عقلياً وهو التركيب من الجنس والفصل وقد يكون خارجياً كتركيب الجسم من المادة والصورة والجميع منتف عن الواجب تعالى لاشتراك المركبات في افتقارها إلى الأجزاء فلا جنس له ولا فصل له ولا غيرهما من الأجزاء الحسية والعقلية.

٣- في أنه تعالى غني، فواجب الوجود يستدعي الاستغناء عن الغير في كل شيء فهو ينافي الحاجة ولأنه لو افتقر إلى غيره لزم الدور لأن ذلك الغير محتاج إليه لإمكانه وهذا هو الدور وهو محال.

٤- في أن صفاته تعالى عين ذاته وليست زائدة على الذات فلو كانت صفاته زائدة على ذاته لكان مركباً، والمركب مفتقر لأجزائه فيستلزم إمكانه وهذا محال.

٥- ومن الكتاب الكريم قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ﴿١﴾، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿عِلْمًا﴾^(١).

٦- ومن السنة المتواترة عن الإمام الصادق عليه السلام ينقله عن الإمام علي عليه السلام عندما سأله حبر من أحبار اليهود فقال يا أمير المؤمنين: هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال عليه السلام: «ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره». قال: وكيف رأيت؟ قال عليه السلام: «ويلك لا تدركه العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان»^(٢). هذا الكلام صريح في نفي رؤيته تعالى بالبصر بل يُدرك بالبصيرة.

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٣.

(٢) الكافي للكافي - كتاب التوحيد باب إبطال الرؤية - دار الولاية للطباعة والنشر - بيروت، كتاب التوحيد للشيخ الصدوق / باب إبطال رؤية الله تعالى - دار الولاية - بيروت.

٧- هو الدليل البسيط على نفي إمكان رؤية الله عز وجل بالعين. أن ما تراه العين لا بد أن يكون موجوداً داخل المكان والزمان والله تعالى وجوده متعال عن المكان والزمان لأنه خلقهما فلهما بداية ونهاية فهما محدودان فيصبح تعالى محدوداً بهما وخاضعاً لقوانينهما. فكيف نرضه محدوداً فيكون محتاجاً لهما فلا يكون تعالى واجباً للوجود بل يكون ممكناً للوجود. ولكن عقل الإنسان يدرك أن الوجود الإلهي لا يجب أن يكون محصوراً بالمكان والزمان وأن الإنسان بإمكانه أن يرتقي في إدراكه الذهني فيدرك ما هو أعلى من الزمان والمكان ويؤمن به وهذا الارتقاء الذهني هو المطلوب منا نحن المسلمين في نظرنا إلى وجود الله تعالى لا أن نحاول جره إلى محيط وجودنا ومألوف إلى أذهاننا كما فعل اليهود عندما شبهوه بخلقه وأذعوا تجسده في عزيز، أو كما فعل النصارى على أثرهم فشبهوه بخلقه وأذعوا تجسده بالمسيح.

فالسؤال عن الله تعالى بأين وكيف ومتى سؤال غلط لأنه قبل الأين والكيف موجود فهو أين الأين وكيف الكيف فالمكان والزمان لم يكونا ثم كانا به تعالى بدليل أن لهما آخر والذي له آخر لا بد أن يكون له أول. فالمكان هو ظرف المخلوقات والزمان حركتهما وقد بدأ الله تعالى وجودهما من العدم عندما أوجد ظرفاً (المكان) وأوجد داخله موجوداً متحركاً وهو (الزمان)،

أما هو سبحانه وتعالى فوجوده من نوع آخر (ليس كمثله شيء) فهو خالق لقوانينهما ولو كان خاضعاً لقوانينهما لكان مخلوقاً مثلهما وهذا الدليل يكفي للحكم بأنه تعالى ليس جسماً وليس محتاجاً للمكان والزمان ولو احتاج لهما لكان ممكناً لا واجب الوجود.

* ابن تيمية وصفات الله تعالى

يرى ابن تيمية أن جميع ما ورد من الصفات لله تعالى من الآيات والأحاديث أن تفهم على ظاهرها ما يؤديه اللفظ من معنى لا تأويل وعلى هذا قال إن الله تعالى في جهة واحدة هي جهة الفوق وهو في السماء مستو على العرش

وقد امتلأ به العرش فما يفضل منه أربعة أصابع، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يعود وأن له أعضاء وجوارح من أعين وأيدي وأرجل وغاية ما في الأمر أنها لا تشبه جوارح البشر وسائر المخلوقات (راجع الحموية الكبرى الصفحة ١٥ والتفسير الكبير ج ٢ الصفحة ٢٤٩-٢٥٠ ومنهاج السنة الجزء ١ صفحة ٢٥٠-٢٦١) ويقول: والذين يؤولون المعنى أولئك ما قدروا الله حق قدره وما عرفوه حق معرفته.

(راجع التفسير الكبير ج ١ صفحة ٢٧٠) ويقول ابن تيمية راجعت أكثر من مئة تفسير فلم أجد إلى ساعتى هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف الظاهر. (راجع تفسير سورة النور لابن تيمية صفحة ١٧٨) وهذا كلامه يكذب به ويفتري على الصحابة والتابعين فلو رجعت إلى التفاسير كتفسير الطبري والبغوي وابن عطية وغيرهم لوجدتها مشحونة بما جاء عن الصحابة والتابعين في تأويل آيات الصفات بعيداً عن التجسيم الذي يقول به ابن تيمية، أنظر مثلاً تفسير آية الكرسي فقد نقل الطبري عن ابن عباس أن كرسيه يعني علمه وهو الذي نقله البغوي والشوكاني عن ابن عطية ونقله القرطبي وغيرهم أيضاً. ثم انظر تفسير الآيات التي فيها ذكر الوجه.

فإن تجد في هذه التفسير كلمة واحدة تدل على عقيدة ابن تيمية ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١) قالوا: أي إلا هو بمعنى ذاته وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾^(٢) فسروا الوجه بالثواب وهكذا نسب إلى الصحابة والسلف ما لم يقولوا به بل قالوا بعكسه تماماً، فخلاصة ما قاله ابن تيمية في صفات الله: جعل الذات الإلهية غير صفاته فوقع في الثنائية بين ذات الله تعالى وصفاته وهذا يعني وجود شيئين هما ذات الله وصفاته وهذا يوجب السؤال التالي: من كان قبل الآخر؟ بمعنى هل الذات أقدم من الصفات أم الصفات أقدم من الذات؟ فالحق والصحيح أن ذاته هي عين صفاته وصفاته عين ذاته فهما شيء واحد، لا كالأشياء. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣).

* وجه الله

قال ابن تيمية: لله وجه بدليل ظواهر الآيات التي منها ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فإذا سلمنا بأن وجه الله محسوساً (والعياذ بالله) كما يقول ابن تيمية فهنا تقع مشكلة عويصة وهي إذا بقي وجهه فمعناه جسمه والعياذ بالله هو من الهالكين ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فالنتيجة لا بد أن نأول الظاهر لثلاث أن تقع في خطأ فيكون معنى الآية السابقة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ - أي إلا ذاته - بما في الذات من الصفات وهذا معنى صفاته عين ذاته وذاته عين صفاته.

(١) سورة القصص الآية ٨٨

(٢) سورة الليل الآية ٢٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

الفصل الثاني

التوسل والاستغاثة وطلب الحوائج

- ١- رأي ابن تيمية والوهابية
- ٢- مناقشة الفكرة
- ٣- كلام السمهودي في الاستغاثة
- ٤- الاستغاثة بالميت
- ٥- الاستغاثة بالنبي محمد ﷺ
- ٦- الاستغاثة بالأنبياء استغاثة بالأحياء
- ٧- عثمان يأمر بالاستغاثة بقبر النبي ﷺ
- ٨- الاستغاثة بالقبور
- ٩- نماذج ممن استغاث بالقبور
- ١٠- الأحاديث في زيارة القبور
- ١١- سيرة الصحابة والتابعين

الفصل الثاني

الاستغاثة وطلب الحوائج

* رأي ابن تيمية والوهابية:

قال ابن تيمية: إن قول أدركني أو أغثني أو أسفع لي أو أنصرنني على عدوي ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله كان من أقسام الشرك.

(راجع الهدية السنوية صفحة ٤٠)^(١) (وكتاب قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة)^(٢) وقال في رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور^(٣): من يأتي إلى قبر نبي أو صالح ويسأله حاجته ويستنجده مثل مسألة أن يزيل مرضه أو يقضي دينه، أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل.

وقال أيضاً: هذا أقرب إلى الله مني وأنا بعيد من الله لا يمكنني أن أدعوه إلا بهذه الوساطة ونحو ذلك من أقوال المشركين (أنظر كشف الارتباب)^(٤) وقال محمد بن عبد الوهاب: إن دعاء غير الله والاستغاثة بغير

(١) نشر مكتبة المعارف - الرياض.

(٢) صفحة ٢٨ طبعه دار التحرير - بيروت.

(٣) صفحة ٥٩ نشر مكتبة المعارف - الرياض.

(٤) صفحة ٢١٤ ورسالة كشف الشبهات صفحة ٦٢ - ٦٤.

الله موجب للارتداد عن الدين والدخول في عداد المشركين وعبدة الأصنام واستحلال المال والدم إلا مع التوبة^(١).

والجواب:

إن الدعاء والاستغاثة بغير الله يكونان على وجوه ثلاثة:

١- أن يهتف باسمه مجرداً بمعنى مجرد نداء مثل أن يقول: يا محمد، يا علي، يا عبد القادر، يا أهل البيت...، فيكون الدعاء والاستغاثة مجرد نداء ودعاء.

٢- أن يقول: يا فلان كن شفيعي، أو أدع الله أن يقضي حاجتي فيكون الدعاء والاستغاثة بمعنى طلب الحوائج وقضاؤها.

٣- أن يقول: أفضي ديني، اشف مريض، يا محمد أعني من فضلك فيكون الدعاء والاستغاثة من باب إسناد الفعل إلى السبب بنحو غير مستقل عنه تعالى ولا مانع في هذه الوجوه الثلاثة، فضلاً عن أنها ليست شركاً بالله، لأن المسلم الموحد يعتقد بأن سوى الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً بالاستقلالية، وإذا رجا من أحد نفعاً أو كشفاً لضرر فيما منحه الله تعالى من ذلك، وبلا انفكاك عن مشيئة الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن... فهو لا يقصد من التوجه إلى من ارتضاه الله واجتباه وفضله على خلقه إلا الشفاعة في قضاء الحاجة والدعاء لتيسير وتعجيل وتحقيق قضائها.

فلا بد من حمل فعله على الصحيح، وعدم التهجم على الدماء والأموال والأعراض بغير يقين. وعليه فلو قال: يا محمد، أدع الله أن يقضي حاجتي،

(١) تقرأ عن كتاب كشف الارتباب صفحة ٢١٤ دار الولاء - بيروت، روافد الإيمان للشيخ الطبسي - دار الولاء للطباعة والنشر - الطبعة الأولى - بيروت.

يكون المقصود هو الله تعالى وأما لو قال: يا محمد اقض حاجتي: فمن باب إسناد الفعل إلى السبب مثل: أنبت الربيع البقل فلا مانع له إلا إذا كان على نحو الاستقلالية عنه تعالى فيكون شركاً ولا يوجد مسلم يطلب من النبي ﷺ أو الولي قضاء حاجته على نحو الاستقلال. وفيما يلي تذكرة ببعض الآيات التي ظاهرها صدور الفعل من العبد:

١- ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْتَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(١).

٢- ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾^(٢).

٣- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾^(٣).

فالإغناء لا يكون إلا من الله فكيف جعل الرسول ﷺ شريكاً في الرزق؟ وعن الصادق عليه السلام أن أبا حنيفة أكل معه، فلما رفع الصادق يده من أكله قال: الحمد لله رب العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله، أجعلت مع الله شريكاً؟ فقال له: ويلك، إن الله يقول في كتابه، ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْتَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة ٥٩].

ويقول في موضع آخر ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة ٥٩]، (فقال أبو حنيفة: والله لكأنني ما قرأتها قط، كنز الفوائد ١٩٦ - الرسائل، ٣٥١ / ٢٤، والبحار، ٢٤٠ / ٤٧).

(١) سورة التوبة الآية ٧٤

(٢) سورة النساء الآية ٥

(٣) سورة التوبة الآية ٥٩

٤- أضف إلى ذلك أن الله تعالى نسب إلى عيسى الخلق وإبراء الأكمه والأبرص ﴿أَبَىٰ أَحْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيِّبِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَعُ فِيهِ فَيَكُونُ طَمْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، [آل عمران، ٤٩] فكيف لا يكون هذا شركاً وكفراً، وتكون نسبة شفاء المريض وقضاء الدين والرزق إلى النبي، أو الولي بأذن الله شركاً؟

• كلام السهمودي الشافعي

قد يكون التوسل به ﷺ بطلب ذلك الأمر منه بمعنى أنه قادر على التسيب فيه بسؤاله وشفاعته إلى ربه فيعود إلى طلب دعائه وإن اختلفت العبارة. ومنه قول القائل له: أسألك مرافقتك في الجنة، ولا يقصد به إلا كونه ﷺ سبباً وشفاعاً^(١) أقول: إن المرافقة في الجنة لا يقدر عليها غير الله، مثل غفران الذنب وشفاء المريض. نعم لو قصد بهذا الدعاء الاستقلال في التأثير، فهذا ما لم يقصده أحد من المسلمين. إذن فالاستغاثة والاستعانة ترجع إلى طلب الشفاعة والدعاء، ولا مانع منه عقلاً ونقلًا.

والوهابية قد اعترفت بجواز الدعاء من الحي. قال ابن تيمية: ثبت عنه ما من رجل يدعو له أخوه يظهر الغيب دعوةً إلا وكل الله بها ملكاً كلما دعا لأخيه دعوة، قال الملك ولك مثل ذلك (رسالة زيارة القبور / ١٥٥) ومن المشروع في الدعاء إجابة غائب لغائب، ولهذا أمر ﷺ بالصلاة عليه، وطلب الوسيلة له. ففي الحديث: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليّ فإن من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً ثم أسألوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد

(١) وفاء الوفاء للسهمودي ٤٢١/٢- نشر مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

الله وأرجوا أن أكون ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة» (كشف الارتباب ٢٢٣).

كما يشرع طلب الدعاء ممن هو فوقه ودونه، فقد ثبت في الصحيح: أنه ذكر أويس القرني فقال لعمر: «إن استطعت أن يستغفر لك فافعل» (كشف الارتباب ٢ / ٤٢١) وفي الحديث: إن الناس لما أجدبوا سألوا النبي أن يستسقي لهم فدعا الله لهم فسقوا^(١) [ذن: عرفنا أن الاستغاثة هي طلب الدعاء من المستغاث به ولا مانع منعه سواء أكان دونه أو مساوياً له.

• الاستغاثة بالميت

أما طلب الدعاء من الميت، فلم يجوزه الوهابيون واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن ١٨] والجواب عن ذلك: إن للدعاء معنى لغوياً ومعنى اصطلاحياً.

أما اللغوي:

١- الدعاء في اللغة: هو النداء مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، انظر [النور ٦٣].

٢- ويطلق الدعاء على سؤال الله تعالى وطلب حوائج الدنيا والآخرة منه وهذا الإطلاق إما لأنه أحد أفراد المعنى اللغوي أو لصيورته حقيقة عرفية في ذلك أو مجازاً مشهوراً. والدعاء بهذا المعنى يسمى عبادة وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، انظر [غافر ٦٠].

(١) مسند أحمد ٣ / ٢٤٥ - ٢٦١ نشر مؤسسة قرطبة - مصر.

ثم أن مطلق الدعاء ونداء الغير وطلب الحاجة من غير الله لا يكون عبادة ولا ممنوعاً، فمن دعا رجلاً ليأتي إليه أو ليعينه وينصره أو ليتاوله شيئاً أو يقضي له حاجة لم يكن عابداً له ولا آتماً.

المعنى الاصطلاحي:

١- قد يراد به الدعاء الخاص وهو الدعاء المساوي لدعاء الله باعتقاد أن المدعو قادر مختار مستقل عن الله في ذلك كما كانت اليهود والنصارى تفعل ذلك في بيعها وكنائسها، ويسمى الدعاء الاستقلالي، فهذا المنهي عنه.

٢- وقد يراد به دعاء من نهى الله عن دعائه من الأصنام والأوثان التي هي أحجار وأشجار كما في دعاء المشركين.

٣- وقد يراد به دعاء الملائكة والجن الذين كانوا يعبدونهم ويعتقدون أن لهم تأثيراً في الكون مع الله بأنفسهم وعلى هذا المعنى يدل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ انظر [الأعراف ١٩٤] ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٢) والحاصل: إن دعا نبياً واستغاث به فذلك لا يدخل في دعاء المنهي عنه وذلك لأن هذا الدعاء ليس معناه هذه الصور الثلاث الأخيرة بل معناه الطلب من النبي أن يدعوا الله أو يشفع له عنده مع اعتقاد أن الأمر لله إن شاء قبله وإن شاء رده. ولا يكون هذا الدعاء المنهي عنه بعدما عرفت بأنه ليس كل دعاء منهياً عنه، بل دعاء الغير باعتقاد استقلالية المخلوق في التأثير هو المنهي عنه.

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٧.

(٢) سورة الجن الآية ١٨.

• الاستغاثة بالأنبياء استغاثة بالأحياء

قد يقال إن التوسل بالأنبياء والصالحين لا معنى له، لأنهم أموات. والميت لا يسمع فلا معنى لقول المتوسل يا رسول الله أغثنى أو أتوجه بك إلى الله ليقضي حاجتي.

والجواب:

لا مانع شرعاً ولا عقلاً من أن يسمع النبي أو الولي كلام من يتوسل به بعد موته كما ثبت من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(١). ولأنه ثبت في حديث آخر، أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل مسلم يمر على أخيه المؤمن وكان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه»^(٢) فالنتيجة ثبت أن الأنبياء أحياء ويسمعون من يسلم عليهم. قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ عند قبوري سمعته» ومعرضة عليه صلاة من يصلي عليهم لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثرُوا من الصلاة عليّ في يوم الجمعة فإن صلواتكم معرضة عليّ» راجع (مسند أحمد ابن حنبل (الجزء ٥ ص ٣١٧) نشر مؤسسة قرطبة - مصر. ولا مانع من الاستغاثة بالحي وطلب الاستغفار منه الآية (٩٧) من سورة يوسف ﴿يَتَأْتَانَا اسْتِغْفِيرُ لَنَا دُنُوبِنَا﴾ والآية (٩٣) من سورة يوسف ﴿أَدَّهَبُوا بِعِيسَى هَذَا فَأَلْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

(١) صحيح البيهقي في جزء حياة الأنبياء للبيهقي ص ١٥١، نشر دار الفكر - بيروت، المقالات السنينة ص ١١٤ لتكشف ضلالات ابن تيمية، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) شرح الجامع الصغير المتناوي - نشر دار الشعب - الطبعة الثانية - بيروت، المقالات السنينة ص ١١٤.

وكذا لا مانع من الاستغانة بالميت وبرسول الله ﷺ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء ٦٤]، الذي نعتقده أن مبدأ التوسل والاستشفاع إلى الله تعالى بالأعمال والأشخاص موجود في الدين الإلهي وقوله تعالى يدل عليه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(١)

ويؤيد الاستغانة بالأنبياء أقوال العلماء في هذا المجال ومنهم:

١- القسطلاني قال: ينبغي للزائر أن يكثّر من الدعاء والتضرع والاستغانة والتشفع والتوسل بالنبي ﷺ وسلم. فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه^(٢).

٢- قال المراغي: إن التوسل والاستغانة والتشفع والاستغانة بالنبي ﷺ واقع في كل حال قبل خلقه ﷺ وفي مدة حياته في الدنيا وبعد موته وفي البرزخ وبعد البعث ويوم القيامة. راجع (تحقيق النضرة بتلخيص معالم دار الهجرة ص ١١٣ نشر مؤسسة قرطبة - مصر).

• عثمان ابن حنيف يأمر بالاستغانة بقبر للنبي ﷺ

ومما يدل بوضوح على أن مسألة الاستغانة بقبر النبي ﷺ كان أمراً دارجاً بين المسلمين بمن فيهم الصحابة قصة عثمان بن حنيف التي أوردها الطبراني في معجمه الكبير الجزء (٩) الصفحة ٣٠ نشر مكتبة العلوم

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٢) المواهب اللدنية الجزء ٣ الصفحة ٤١٧/ نشر مؤسسة قرطبة - مصر، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت،

والحكم - الموصل. والمعجم الصغير الجزء (١) الصفحة ١٣٨ نشر المكتب الإسلامي - بيروت.

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقي ابن حنيف فشكى ذلك إليه فقال له عثمان ابن حنيف تَوْضاً ثم أت المسجد فصلي فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي، ثم تذكر حاجتك وروح حتى أروح معك، فذهب الرجل إلى قبر النبي ﷺ ثم استغاث به.

وفي نفس المصدر شاهد هو مصدر حديث الأعمى الذي رُد بصره بالدعاء بشفاعة النبي ﷺ، قال: عثمان بن حنيف جاء ضرير إلى قبر النبي ﷺ فشكى إليه ذهاب بصره فقال له النبي تصبر فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق عليّ وأنا أعمى فقال النبي ﷺ: تَوْضاً ثم صلي ركعتين ثم ادعوا بالدعاء المذكور أعلاه قال ابن حنيف فوالله ما تفرقنا حتى دخل علينا الرجل الأعمى كأنه لم يكن به ضر قط^(١).

ويؤيده قوله تعالى بالتوسل بالرسول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء ٦٤].

(١) معجم الطبراني الكبير ٣٠/٩، المعجم الصغير ١٨٣/١ نشر مكتبة العلوم والحكم / موصل. وأخرجه الترمذي في سننه ٥٩٦/٥ ح ٣٥٧٨ - دار إحياء التراث العربي - بيروت، مستد أحمد ١٣٨٤.

* الاستغاثة بالقبور

ابن تيمية والوهابيون حرموا الاستغاثة بالقبور واعتبروها شرك وكفر ولكن جرت العادة قديماً وحديثاً أنّ سيرة المسلمين قامت على الاستغاثة بقبور الأنبياء والصالحين ويؤيد ذلك فتاوى العلماء وفيما يلي نستعرض نماذج منها ما يدل على جواز الاستغاثة بالقبور.

١- الاستغاثة بقبر النبي ﷺ

روى الدارمي أنه قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كواً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل راجع (سنن الدارمي الجزء ١ الصفحة ٥٦ ووفاء الوفاء الجزء ٤ الصفحة ٣٧٤)، سبل الهدى والرشاد (٣٤٧/١٢).

٢- الاستغاثة بقبر الإمام الحسين ﷺ بالقاهرة:

قال الحمزاوي العدوي بعد كلام طويل، وأعلم أنه ينبغي كثرة الزيارة لهذا المشهد العظيم متوسلاً به إلى الله.

* زيارة القبور والمشاهد عند الوهابية

صرح ابن تيمية بما يلي: إن شد الرحال إلى المشاهد من الشرك الذي تهدر معه الدماء والأموال راجع (مجموعة فتاوى ابن تيمية الجزء ٣ صفحة ٣٤٦).

ولكن ثبت بالنقل استحباب زيارة النبي ﷺ وأما زيارة سائر القبور وشد الرحال إليها مما لا كلام في مشروعيتها أيضاً وقد حث النبي ﷺ على زيارتها ورغب المسلمين في ذلك كما قام ﷺ هو بزيارة قبر أمه آمنه

وزيارة قبر عمه أبو طالب عليه السلام، وهذا ثابت بالنقل المتواتر^(١)، وثبت ذلك أيضا من سيرة المسلمين على زيارة قبورهم^(٢).

• الأحاديث في زيارة القبور والاستغاثة بها

١- سليمان بن بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «نهيتكم عن زيارة القبور. الآن فزوروها» راجع صحيح مسلم الجزء (٣ الصفحة ٦٥) وسنن النسائي الجزء (٤ الصفحة ٨٩).

٢- عن النبي ﷺ أنه قال: «اتنوا موتاكم فسلموا عليهم فإن بهم عبرة» راجع أخبار مكة، الجزء (٢ الصفحة ٥٢).

٣- كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

٤- عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر بالآخرة» راجع سنن ابن ماجه الجزء (١ الصفحة ٥٠١) ومستدرک الحاكم الجزء (١ الصفحة ٥٣١) وهناك أحاديث كثيرة نكتفي بما ذكرناه.

• فعل الصحابة والتابعين

فقد ثبت من قبل الصحابة والتابعين زيارة قبور ومشاهد الأنبياء والشهداء والصالحين واليك نماذج من ذلك.

(١) سيرة الإعلام النبلاء (٤٦٩/١٢)، درا الولاء بيروت- الطبعة الثانية.

(٢) زيارة قبر أحمد بن حنبل راجعة في مناقب أحمد (٢٩٧) لابن الجوزي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

١- عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله تزور قبر حمزة رضي الله عنه» راجع السنن الكبرى الجزء الرابع الصفحة (١٢٧) ومستدرک الحاكم الجزء الأول الصفحة ٥٣٣ ووفاء الوفاء الجزء الثاني الصفحة ٩٣٢.

٢- روى رزين عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة» راجع السنن الكبرى الجزء الرابع الصفحة (١٢٧) ومستدرک الحاكم الجزء الأول الصفحة (٥٣٣).

٣- عن ابن أبي مليكة قال: «رأيت عائشة تزور أخيها عبد الرحمن الذي مات بالحجبة وقبر بمكة» السنن الكبرى الجزء الرابع الصفحة (١٣١).

٤- عن ابن أبي مليكة: «إن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها أليس كان رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن زيارة القبور قالت: نعم كان نهى ثم أمر بزيارتها» السنن الكبرى الجزء الرابع الصفحة (١٣١).

٥- قال الخطيب البغدادي: «زرت قبر الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه أكثر من مرة وقبره الآن ظاهر ومعروف بقرب إيوان كسرى» راجع تاريخ بغداد الجزء الثاني عشر الصفحة (٢٤١).

٦- قبر أبي أيوب الأنصاري المتوفى عام (٥٢) بالروم: قال الحاكم: «كانوا يتعاهدون قبره ويزورونه ويستسقون به إذا فحطوا» راجع مستدرک الحاكم الجزء الثالث الصفحة (٥١٨) وصفوة الصفوة الجزء الأول الصفحة (٤٧٠).

٧- قال الخطيب البغدادي: سمعت الحسن بن إبراهيم شيخ الحنابلة في عصره يقول: «ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر عليه السلام

فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب» راجع تاريخ بغداد الجزء الأول الصفحة (١٢٠).

٨- قبر أبي حنيفة:

إن الإمام الشافعي أيام كان هو ببغداد كان يتوسل بالإمام أبي حنيفة ويجيء إلى ضريحه يزور فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته^(١).

٩- قبر الشافعي:

قد ثبت أن الإمام أحمد شيخ الحنابلة توسل بالإمام الشافعي في العافية وقضاء حاجاته^(٢).

١٠- قبر النبي ﷺ:

قال القسطلاني: وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل بالنبي ﷺ فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه^(٣).

والسهمودي قال أيضاً ينبغي التوسل بالنبي وذكر قصصاً عن توسل المحذنين والفقهاء بقبر النبي^(٤).

والحاصل أن هذه النصوص والشواهد التاريخية تدل على أن الاستغاثة بالميت والدعاء عند قبره والتوسل به كان أمراً شائعاً بين المسلمين على

(١) تاريخ بغداد ١٢٣/١، مناقب أبي حنيفة للخوارزمي ١٩٩/٢، نشر دار الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة.

(٢) تاريخ بغداد ١٢٣/١، خلاصة الكلام ص ٢٥٢ للسيد زيني دحلان.

(٣) فتح الباري ٥٧٧/٢، سنن الدارقطني ٥٧١.

(٤) وفاء الوفاء ١٣٨٥/٤.

صعيد الخواص والعوام، فهذا الإمام الشافعي في قضاء حوائجه وهذه عائشة تأمر المسلمين بأن يستغيثوا بقبر النبي ﷺ للاستسقاء^(١) وهذا القسطلاني وغيره من أكابر فقهاء المسلمين يستغيثون بقبور الأنبياء والصحابة والأولياء والصالحين ويأمرون بالتوسل بقبر النبي ﷺ. فهل يتجرأ ابن تيمية القول عليهم بأنهم مشركون، كفار؟

(١) سنن الدارقطني ٥٦١.

الفصل الثالث

الصلاة والدعاء عند القبور

- ١- رأي الوهابية
- ٢- مناقشة الفكرة
- ٣- سيرة فاطمة الزهراء عليها السلام
- ٤- سيرة المسلمين
- ٥- استقبال القبلة أم القبر الشريف حين الدعاء
- ٦- معنى حديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد
- ٧- فتوى الفقهاء حول الصلاة في المقبرة

الفصل الثالث

الصلاة والدعاء عند القبور

• رأي الوهابية:

منعت الوهابية الصلاة والدعاء عند القبور وجعلتها شركا وكفراً^(١)، اعتماداً على قول ابن تيمية.

قال ابن تيمية: إن الصحابة كانوا إذا جاؤوا عند قبر النبي ﷺ يسلمون عليه فإذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر الشريف بل ينحرفون ويستقبلون القبلة ويدعون الله ولهذا لم يذكر أحد من أئمة السلف أن الصلاة عند القبور وفي المشاهد مستحبة ولا أن الصلاة والدعاء هناك أفضل منهما في غيرهما بل اتفقوا كلهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأنبياء والصالحين^(٢). والجواب:

أولاً: يدل على جواز الصلاة والدعاء عند قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء والصالحين عموم ما دل على جواز الصلاة والدعاء في كل مكان، فالعمومات والاطلاقات تدل على الجواز منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

(١) الهدية السنية ص ٤٠، رسالة زيارة القبور ص ١٥٩، ونقل عنه كشف الارتباب ص ٢١٤.

(٢) رسالة زيارة القبور لابن تيمية ص ١٥٩.

ثانياً: ويدل على رجحان الصلاة والدعاء عند القبور، ما فهم من الشرع من رجحان الصلاة والدعاء ومطلق العبادة في كل مكان ثبت شرفة في الشرع ولا شك في تشريف المكان بالمكين (شرف المكان بالمكين) والموجب لتشرف القبر هو حلول جسده الطاهر فيه

ثالثاً: ويدل على رجحان الدعاء عند قبر النبي ﷺ قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١).

فإن كلمة جاؤوك شامل لحالتي الحياة والموت وإن حرمة حياً كحرمة ميتاً كما صرح بذلك الإمام مالك للمنصور العباسي يقول شمس الدين الجزري (إن لم يستجاب الدعاء عند قبر النبي ﷺ ففي أي موضع يستجاب)^(٢)!!

رابعاً: سيرة فاطمة الزهراء عليها السلام:

إن فاطمة عليها السلام كانت تزور قبر عمها حمزة في كل يوم جمعة فتصلي وتبكي عنده.

(راجع السنن الكبرى الجزء ٤ الصفحة ١٣١ / ومستدرک الحاكم ج ١/ص ٣٧٧/ تمهيد شرح موطأ مالك لابن عبد البر ٢٣٤/٣) وسيرة أعلام النبلاء ١٢٧/٢، وقال الحاكم إن هذا الحديث رواه ثقات ثم أنها عاشت بعد أبيها على بعض الروايات ستة أشهر فكذلك كانت تزور قبر عمها الحمزة عليه السلام بمراى ومنظر من كل الصحابة وزوجها علي بن أبي طالب عليه السلام

(١) سورة النساء الآية ٦٤.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٣ / ٥٨٤، روافد الإيمان للمحقق الشيخ نجم الدين الطبرسي.

ولم يرد منهم نهي بشأنها والملاحظ: أن حمزة استشهد في العام الثالث للهجرة وتوفي النبي ﷺ في العام العاشر، ففاطمة كانت في هذه الفترة يعني مدة سبع سنوات كل يوم جمعة تغادر المدينة متوجهة إلى قبر الحمزة تزوره بمرأى ومنظر من رسول الله ﷺ ولم يرد منه نهي لها في شأنها.

وفي رواية كانت تزور قبور الشهداء بأحد بين اليمين والثلاثة فتصلي هناك وتدعوا وتبكي (راجع وفاء الوفاء /ج ٣/ ص ٩٣٢/ وكشف الارتباب /ص ٤٨١/) وترى هل خفيت السنة على فاطمة الزهراء ﷺ التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها (راجع فتح الباري /ج ٧/ ص ١٣١/) فجاءت بزيارتها القبور لما يخالف هذه السنة كما يدعي ابن تيميه. ولم يخف الأمر على ابن تيميه ليتجرأ فيدعي أنه: لم يذكر أحد من أئمة السلف أن الصلاة عند القبور وفي مشاهدتها مستحبة (راجع زيارة القبور /ص ١٥٩/)

خامساً: أصحاب الكهف في قوله تعالى ﴿فَقَالُوا أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمْ بُنِينًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف ٢١].

سادساً: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ رَبِّهِمْ مُصَلًّى﴾ إذا كان مقام إبراهيم الذي أمر الله أن يتخذوا منه مصلى وهو حجر تشریفاً لنبي الله إبراهيم ﷺ فما بالك بقبر حبيب الله محمد ﷺ فمن الواضح إن المسجد للدعاء والصلاة

سابعاً: سيرة المسلمين: من زمن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا جارية على الدعاء والصلاة عند قبور الصالحين والمؤمنين^(١).

(١) سيرة أعلام النبلاء ١٠٧/١٠.

ملاحظة: يرى الإعلام ومنهم الشوكاني وابن الجزري أن استجابة الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين ثبت بالتجربة (راجع تحفة الذاكرين للشوكاني /ص ٤٦/)

• سيرة الصحابة والمسلمين:

إليك بعض النماذج من سيرة الصحابة والمسلمين:

١- عمر بن الخطاب: قال الطبري وقف عمر على قبر شيخ فصلى عليه، ثم اعتنقه وبكى ودعا عنده (راجع الرياض النضرة ٣٣٠/٢، وفاء الوفاء ٩٢٢/٣)

٢- الإمام الشافعي: إنني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم فإذا عرضت لي حاجة صليت عنده ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد حتى تقضى (راجع تاريخ بغداد /ج ١/ ص ١٢٣/١)، صلح الإخوان للخالدي، ص: ٨٣، الغدير: (١٩٢/٥).

٣- قبر معروف الكرخي: عن الزهري قال: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج، ويقال إنه من قرأ عنده مائة مرة قل هو الله أحد وسأل الله ما يريد قضى الله حاجته (راجع معجم الطبراني ج ١/ ص ١٢٢/١، تاريخ بغداد ١٢٢/١).

٤- وقبر الشافعي: قال الجزري: والدعاء عند قبره مستجاب (راجع طبقات القراء ج ٢/ ٩٧).

٥- قبر السيدة نفيسة: هي ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وعن ابن خلكان: دفنت بدرب السباع

وقبرها معروف بدرّب السباع - القاهرة بإجابة الدعاء وهو مجرب رضي الله عنها (راجع وفيات الأعيان ج/٥، ص ٤٢٤).

٦- قبر الجوزي: قال الذهبي: ويأتوا عند قبره طول شهر رمضان، ويختمون القرآن، وقبره يعرف بإجابة الدعاء عنده، وغيرها من القبور التي هي محط أنظار المسلمين في الزيارة والدعاء والصلاة التي لا داعي لذكرها^(١).

• استقبال القبلة أم القبر النبوي الشريف حين الدعاء

نسب ابن تيمية إلى الصحابة أنهم لم يدعوا الله مستقبلي القبر الشريف بل ينحرفون ويستقبلون القبلة (رسالة زيارة القبور ص ١٥٩).

والجواب:

أولاً: إن ابن تيمية لم يذكر اسم صحابي واحد كان قد انحرف عن القبر الشريف إلى القبلة في الدعاء ولو مرة واحدة بل برغم أنه قد نسب ذلك إلى كل الصحابة! مع أنه قد ورد عن ابن عمر وهو من الصحابة خلاف ذلك وإن من السنة أن يستقبل القبر المكرّم ويجعل ظهره للقبلة (راجع كشف الارتباب ص ٢٤٧-٣٤٠، والغدير ج/٥، ص ١٣٤).

ثانياً: لا مانع من استقبال القبر الشريف عند الدعاء وذلك للآية الكريمة ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْنَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة ١١٥].

ثالثاً: فتوى الفقهاء على خلاف ذلك واليك نماذج منها:

(١) من أراد التفصيل عليه مراجعة المصادر التاريخية ومنها سيرة أعلام النبلاء ٣٨٠/٢، وشنرات الذهب

١- فتوى مالك: حينما سأله المنصور استقبال القبلة وادعوا أم استقبال قبر رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى يوم القيامة بل استقباله واستشفع به فيشفعك الله تعالى (وفاء الوفاء للسهودي ج ٤، ص ١٣٧٦، المواهب اللدنية ٤٠٩/٣).

٢- عن ابن همام محقق الحنفية قال: قال ابن حنيفة: استقبال وجه الرسول محمد ﷺ واستدبار القبلة مذهبي (شرح الشفا ج ٣، ص ٥١٧).

٣- وقال السهودي عن أصحاب الشافعي وغيره: يقف ظهره إلى القبلة ووجهه إلى القبر وهو قول ابن حنبل أيضاً (وفاء الوفاء ١٣٧٨/٤).

رابعاً: ما المانع من الصلاة بقرب القبر تبركاً بالمكان المدفون فيه النبي ﷺ كما يصلون عند مقام إبراهيم الذي هو حجر ولكن تشرف بملامسة رجل إبراهيم خليل الرحمن لقوله تعالى: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾، [البقرة ١٢٥].

خامساً: إن حجر إسماعيل ومقام إسماعيل ﷺ هما أفضل من البيت في المسجد الحرام وأما كلام ابن تيمية أن الصلاة في البيت أفضل منها عند قبور الأنبياء والصالحين هذه دعوى مجردة عن الدليل، وهل صرح بذلك أحد من أئمة السلف فضلاً عن نسبة ذلك إلى جميعهم^(١) بالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ وأمر بالصلاة بالقرب منه للدليل على أفضليته من البيت.

(١) وفاء الوفاء للسهودي، (١٣٧٨/٤).

• معنى حديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد

أما حديث لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وحديث اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد^(١)، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

ففيه أولاً: من حيث السند: إذ على رواية النسائي: في طريقه عبد الوارث الذي رموه بالضعف ولا يؤخذ بحديثه وقد نهوا عن الصلاة خلفه وفيه أيضاً أبو صالح وهو مردد بين مجاهيل وضعاف وهو متروك الحديث أو ضعيف أو كذاب (راجع ميزان الاعتدال ٤/٥٣٨).

وأما رواية الموطأ أحمد: فهي مرسله كما صرح بذلك ابن عبد البر لأن عطاء بن يسار لم يدرك النبي ﷺ (ميزان الاعتدال ج ٤/٤، ص ٤٥٩ وسيره أعلام النبلاء ج ٤/٤١/ص ٤٤٨)

ثانياً: لا يدل الحديث على ما زعمه ابن تيمية والوهابيون من عدم جواز الصلاة عند القبور وفي مشاهدتها وبناء المساجد عليها: وذلك لأن الظاهر منه: انه إشارة إلى رواية كنيلاًسة الحبشة، إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور. وسبب الذم هو اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد بتلك الحالة وهي تصويرهم الصور وعبادتها والصلاة والسجود إليها وإلى القبر كما يصلى إلى الوثن ويسجد له على ما هو الظاهر من تلك الرواية فالنهي عن اتخاذها مساجد هو فيما لو كان من هذا السنخ وأما لو بني المسجد على قبر النبي ولكنه صلى إلى القبلة ومتوجهاً إلى الله تعالى فلا إشكال فيه كما يصلى اليوم في المسجد النبوي

(١) مسند أحمد: (٢٤٦٢)، الموطأ: (١٧٢/١).

الشريف أو الجامع الأموي بدمشق وفيه قبر النبي يحيى بن زكريا عليه السلام ويؤيد ما ذكرناه من الظهور لهذا الحديث ما قاله القرطبي: إن هؤلاء اليهود وسوس لهم الشيطان فكانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك (إرشاد الساري ج/٣، ص٤٩٧) وصحيح مسلم ج/١، ص١٩٧/الهامش.

ويؤيده ما قاله البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبله يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي ﷺ ومنع المسلمين من مثل ذلك ^(١) فأما من اتخذ مسجداً في جوار النبي أو الصالح وقصد التبرك بالقرب منه لا للعبادة والتوجه إليه في الصلاة فلا يدخل في الوعيد المذكور.

• فتاوى الفقهاء حول الصلاة في المقبرة

واليك نماذج منها:

١- فتوى مالك: لا بأس بالصلاة في المقابر (المدونة الكبرى ج/١، ص٩٠).

٢- فتوى البغوي قال: إن الصلاة في المقابر جائزة إذا صلى في موضع نظيف منها (شرح السنة للبغوي ج/٢، ص٣٩٨).

٣- فتوى الكوثري قال: من اتخذ مسجداً قرب رجل صالح أو صلى في مقبرة قصداً للتبرك وإجابة الدعاء فلا حرج في ذلك واحتج لذلك بأن قبر إسماعيل عليه السلام قرب الكعبة المشرفة وهو أفضل مكان للصلاة في

(١) إرشاد الساري ٣/٤٧٩.

المسجد الحرام (شرح صحيح مسلم ج ٢/، ص ٢٣٤/ والمقالات للكوثري ٢٤٦٧) وغيرها من الفتاوى التي تقول بجواز الصلاة والدعاء في المقابر. وهل يبقى مجال للوهابيين بعد هذه الفتاوى والآراء الصريحة أن يتهموا من يصلى في المشاهد والمقابر بالشرك والكفر؟! وقد صلى انس بن مالك والحسن البصري وغيرهما بين المقابر (راجع شرح السنة للبغوي ٣٩٨/٢).

خلاصة الفصل الثالث

* رأي الوهابية

منعت الوهابية الصلاة والدعاء عند القبور وجعلتها شركاً وكفراً وكذلك ابن نعيمه في كتابه (رسالة زيارة القبور ١٥٩/١) والجواب: بوجوه منها:-

١- لا شك في تشرف المكان بالمكين فتشرفت مكة بوجود المسجد الحرام فيها وكذلك تشرفت المدينة بحلول جسده ﷺ الطاهر فيه.

٢- يدل على جواز الصلاة والدعاء عند قبر النبي ﷺ وقبور الأولياء عموم ما دل على جواز الصلاة والدعاء في كل مكان فالعمومات والاطلاقات تدل على الجواز منها أقسم الصلاة، ﴿فَلِإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

٣- ويدل على جواز الدعاء عند قبر النبي ﷺ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء ٦٤]. كلمة جاؤوك تدل على الحالتين حالة الحياة وحاله الموت ومن عبارة استغفروا الله بمعنى

طلب المغفرة والدعاء عنده عليه السلام سواء حياً أم ميتاً، فثبت جواز الدعاء عند قبره عليه السلام.

٤- سيرة فاطمة الزهراء عليها السلام: كانت فاطمة تزور قبر عمها حمزة في كل جمعة وتصلي وتبكي عنده (السنن الكبرى ج/٤، ص ١٣١/ ومستدرک الحاكم ج/١، ص ٣٧٧).

٥- سيرة المسلمين من زمان الرسول عليه السلام إلى يومنا هذا جارية على الدعاء والصلاة عند قبور المؤمنين والصالحين ولم نشاهد رادع منهم.

٦- من أقوال العلماء والصحابة وسيرتهم:

١- الإمام الشافعي يقول أنى لأتبرك بأبي حنيفة وأجىء إلى قبره كل يوم وأصلي ركعتين (تاريخ بغداد ج ١، ص ١٢٣).

٢- قبر معروف الكرخي عن الزهري قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج، (تاريخ بغداد ج/١، ص ١٢٢/ ومعجم الطبري ج/١، ص ١٢٢).

٣- قبر الشافعي قال الجزري: والدعاء عند قبره مستجاب (طبقات القراء ٩٧/٢).

٤- قبر السيدة نفيسة وهي ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن علي السجاد بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وعن ابن خلكان دفنت بدرب السباع وقبرها معروف بإجابة الدعاء (وفيات الأعيان ج/٥، ص ٤٢٤).

٥- قبر ابن الجوزي قال الذهبي: وباتوا عند قبره طوال شهر رمضان يختمون الختمات (سيرة أعلام النبلاء ج/٢، ص ٣٨٠).

٦- سيره الرسول ﷺ كان يزور قبر عمه الحمزة وقبر أمه آمنة وعمه أبي طالب وقبور الشهداء ويدعوا لكل منهم، (سيرة أعلام النبلاء ٢/٣٨٠).

٧- من التصريحات المخالفة لرأي الوهابية:

١- السيوطي من قصة المعراج روي عن النبي ﷺ انه صلى بطور سيناء حيث كلم الله موسى وصلى بيت لحم حيث ولد عيسى فلو كان محل ولادة عيسى هذا شأنه وأن النبي ﷺ ينزل فيصلي فيه فمحل ولادة خاتم الأنبياء ومحل دفنه أعلى شأننا وأولى بأن يصلى فيه.

٢- قال ابن القيم الجوزية تلميذ ابن تيمية: إن عاقبة صير إبراهيم وهاجر وابنهما على البعد والوحدة والغربة وتسليم إسماعيل ﷺ للذبح آلت إلى جعل آثارهما وموطئ أقدامهم مناسك للعبادة إلى يوم الدين (كشف الارتباب ص ٤٢٨) فكيف بمكان جسده الشريف وهو سيد الأنبياء وخاتمهم؟

٣- قال ابن الجزري: إن من مواضع إجابة الدعاء قبور الصالحين والأولياء (المواهب اللدنية ج/٣، ص ٤٠٦).

الفصل الرابع

بناء القبور وعقد القباب فوقها

- ١— رأي الوهابية في بناء القبور
- ٢— مناقشة الفكرة
- ٣— مناقشة سند الحديث
- ٤— مناقشة دلالة الحديث
- ٥— سيرة الصحابة وعموم المسلمين
- ٦— نماذج من القبور المبنية والقباب
- ٧— الشواهد على تعليم القبور
- ٨— الفوائد المترتبة من بناء القبور والقباب

الفصل الرابع

بناء القبور وعقد القباب فوقها

* رأي الوهابية:

هذا ما حرمه الوهابيون واعتبروا ذلك شركاً وكفراً وأوجبوا هدم القبور والقباب التي عليها والبناء الذي حولها وفيما يلي أقوالهم:

١- قال ابن القيم تلميذ ابن تيمية: يجب هدم المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله ولا يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها يوماً واحداً فإنها بمنزلة اللات والعزى أو أعظم شركاً عندها، وبها^(١).

٢- قال الصنعاني: إن القبر أو المشهد بمنزلة الوثن والصنم^(٢).

٣- وصرح الوهابيون: إن ما حدث من تعظيم قبور الأنبياء وغيرهم ببناء القباب عليها هو ممنوع ولهذا أفتى كثير من علمائهم بهدم القبور فمنهم قاضي قضاهم عبد الله بن سليمان وعلماء المدينة إجماعاً ولهذا أفتى كثير من علمائهم بوجوب هدم القبور مستندين إلى حديث عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه عن وكيع وعن سفيان وعن أبي وائل وعن أبي الهيثاج

(١) زاد المعاد ص ٦٦١.

(٢) كشف الارتباب ٢٨٦ عن تطهير الاعتقاد.

أنه قال: قال لي علي عليه السلام: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله (أن لا تدع تمثلاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) ^(١)، وعن النبي بقوله: (لا تقوم الساعة حتى يلحق حيي من أمتي بالمشركين وحتى يعبد فئام من أمتي الأوثان) ^(٢).

• مناقشة الفكرة:

والجواب:

أولاً: سند الحديث ضعيف لأن فيه وكيع الكذاب وهو ابن الجراح الرواسي. (انظر ميزان الاعتدال ج/٤، ص ٣٣٦، وتهذيب الكمال ج / ٣٠، ص ٤٧١).

وعن الذهبي قال كان سفيان يقول عنه صاحبه كذاب يدلس عن الضعفاء (ميزان الاعتدال، ج: ٢، ص: ١٦٩) وأما أبو وائل وهو أحد رجال الحديث المذكور أعلاه كان مبغضاً لعلي بن أبي طالب عليه السلام فكيف يعتمد عليه، هذا ما قاله ابن خزيمة في (تهذيب التهذيب، ج: ٢، ص: ١٧٩)، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». (مجمع الزوائد ج/٩، ص ١٣٣).

ثانياً: المناقشة في المتن والدلالة من وجوه:

الوجه الأول: أنه شاذ انفرد به أبو الهيثاج، وقال السيوطي في شرح النسائي ليس لأبي الهيثاج في الكتب إلا هذا الحديث الواحد.

(١) كشف الارتباب ص ٢٨٧، صحيح مسلم ٦١٣، صحيح الترمذي ٢٥٧٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

الوجه الثاني: لا دلالة على المدعى بل هو وارد في الأمر بالتسطيح والنهي عن التسنيم والشرف يعني^(١) العلو ولكن قوله إلا سويته قرينة على إرادة التسنيم من الشرف والتسطيح من التسوية وبعبارة أخرى في الرواية احتمالات ثلاثة:

١- أن يكون المراد هدم البناء المشيد على القبر فيكون معنى الحديث إلا هدمته.

٢- أن يكون المراد تسوية القبر مع الأرض فيكون معنى الحديث إلا جعلته مساوياً مع الأرض.

٣- أن يكون المراد تسطیح القبر وتعديل ما فيه من اعوجاج والحيلولة دون تسنيمه كسنام البعير وظهر السمك.

أما الاحتمال الأول فمردود لوجود السيرة وعمل الأصحاب المسلمين على خلافه.

وأما الاحتمال الثاني: فمردود أيضاً وذلك لقيام السنة القطعية على ارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً^(٢).

فيبقى الاحتمال الثالث وهو تسطیح القبر وتعديل ما فيه من اعوجاج والحيلولة دون تسنيمه وهذا ما يراه جمع من علماء السنة كالنووي والقسطلاني وإليك أقوالهم.

١- قال النووي: إن من السنة أن القبر لا يرفع عن الأرض رفعا كثيرا ولا يُسنم بل يرفع نحو شبر ويُسطح (المجموع ج/٤، ص ٣١٢).

(١) القاموس ١٦٢/٣.

(٢) صحيح مسلم ٦٠/٣، المجموع للنووي ٣١٢/٤.

٢- وقال القسطلاني: بعد أن قال: السُّنَّة في القبر تسطيحه وإنه لا يجوز ترك هذه السُّنَّة ثم قال وحديث أبي هَيَّاج يقول لأنه لم يُرد النبي ﷺ تسويته بالأرض وإنما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار (إرشاد الساري ج / ٢، ص ٤٦٨).

ثالثاً: سيرة الصحابة وعموم المسلمين.

إن السيرة تمنع هدم القبور والقباب فقد أهتم الصحابة وعموم المسلمين ببناء قبور الأنبياء والأولياء كما أجمع الناس جيلاً بعد جيل على بناء قبور الأنبياء والصالحين وإليك أمثلة على ذلك:

١- إن قبور الأنبياء التي حول بيت المقدس كقبر داود عليه السلام في القدس وقبور إبراهيم وبنيه: إسحاق ويعقوب ويوسف الذي نقله موسى من مصر إلى بيت القدس في بلد الخليل كلها مبنية ومشيدة قد بني عليها بالحجارة العادية العظيمة قبل الإسلام وبقيت بعد فتح الإسلام فلو كان البناء عليها حراماً لأمر عمر بهدمها وطمسها حينما رأى ذلك البناء عند فتح بيت المقدس^(١). وقد صرح بذلك ابن تيمية، فقال: إنَّ البناء الذي على قبر إبراهيم الخليل عليه السلام كان موجوداً في زمن الفتح وزمن الصحابة^(٢).

٢- بناء المسجد على قبر حمزة (سيرة أعلام النبلاء ١٢/١٨٧).

٣- بناء قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ في دار محمد بن زيد بن علي السجاد بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام^(٣).

(١) درر الأخبار ١٨٥/٢، مسند أحمد، ٨٤.

(٢) هذا ما أشار إليه السيد الأمين في كشف الارتباب، ص: ٤٨٤.

(٣) سيرة أعلام النبلاء ١٨٦١٢.

٤- بناء قبة على قبر الذهبي في البصرة (سيره أعلام النبلاء ج / ١٣ ، ص ٢٨٥).

٥- بناء قبة على قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من قبل الإمام الصادق عليه السلام ثم أعاد تجديدها هارون العباسي في القرن الثاني الهجري (راجع سيرة أعلام النبلاء ٢٥١/١٦).

٦- بناء قبر النبي صلى الله عليه وآله فإنه دفن في حجرة مبنية ولو كان البناء على القبور محرمة لهدمها الصحابة قبل دفنه والبناء والقبة على القبر الشريف لازال موجودا إلى يومنا هذا^(١).

٧- بناء قبر الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام قال الذهبي: له مشهد عظيم مشهور ببغداد ولولده علي ابن موسى مشهد عظيم بطوس (سيرة أعلام النبلاء ج / ٦ ، ص ٢٧٤).

٨- بناء قبة على قبر أبي حنيفة (المنتظم لابن الجوزي ج / ١٦ ، ص ١٠).

٩- بناء قبة على قبر محمد بن إدريس الشافعي (دول الإسلام ٣٤٤ للذهبي).

١٠- بناء قبة بيضاء بالجص والأجر على قبر معروف الكرخي ببغداد (المنتظم لابن الجوزي ج / ١٦ ، ص ١٠٥)، وهناك شواهد أخرى كثيرة (راجع سيرة أعلام النبلاء ٢٨٤/١٣ - ٢٨٧).

رابعاً: الإجماع: أجمع العلماء من جميع المذاهب الإسلامية في كل

(١) وفاء الوفاء ٥٤١/٢.

العصور وزمان على جواز بناء القبور وهذا الإجماع المحصل كاشف قطعي أنه مأخوذ من صاحب الشرع.

خامساً: من القرآن الكريم بقوله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿فَقَالُوا أَبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾.

• الشواهد على تعليم القبور

١- ذكر ابن ماجة في سننه ج/ ١، ص ٤٩٨، أن رسول الله ﷺ قد علم قبر عثمان بن مظعون بصخرة وضعها عليه.

٢- روى الأصبغ ابن نباته صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تأتي قبر حمزة وقد وضعت عليه علما تعرفه به وذكر أن قبر النبي وأبي بكر وعمر كان عليه الثقل يعني حجراً صغيرة (مصنّف عبد الرزاق ج / ٣، ص ٥٧٤) وخلاصة الكلام إن أدلة بناء القبور والقباب هي ما يلي:

١- من القرآن الكريم (بناء قبور أصحاب الكهف) فقال تعالى: ﴿أَبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾، [الكهف ٢١].

٢- قبور الأنبياء حول بيت المقدس كقبر داود وإبراهيم وإسحاق ويوسف عليهم السلام.

٣- من السيرة النبوية الشريفة حيث أمر بتعليم قبر عثمان بن مظعون^(١).

(١) تاريخ بغداد ١/١٦٠.

- ٤- من سيره فاطمة الزهراء عليها السلام بتعليم قبر حمزة^(١).
- ٥- من السيرة والشواهد كبناء قبر أمير المؤمنين عليه السلام بالنجف وقبر سلمان الفارسي ببغداد وقبر أبي أيوب الأنصاري بالروم وغيرها^(٢).
- ٦- من فتاوى علماء المسلمين: منها فتوى الذهبي عندما سُئل عن بناء ضريح الشافعي، قال: لا بأس^(٣).
- ٧- من إجماع العلماء من جميع المذاهب.

• الفوائد المترتبة على بناء القبور ما يلي:

- ١- تعظيم الشعائر وإرغام الأعداء والمنكرين فالمولى أمر بتعظيم مقام إبراهيم بجعله مصلى لتلك الآيات البيّنات فيه ومنها ملامسة رجل إبراهيم للحجر فكيف سيد الكائنات وخاتم المرسلين، ألا يحق لنا تعظيمه لإرغام الأعداء.
- ٢- استغلال الزائرين بها من الحر والبرد عند الزيارة والصلاة بجانبها التي تثبت رجحانها بشرف المكان والدعاء عندها.
- ٣- قراءة القرآن والدعاء، وإقامة الصلاة.
- ٤- التدريس، والبحث والمناقشة.
- ٥- إلقاء المواعظ والنصائح وغير ذلك.
- ٦- إقامة الندوات الشعرية وغيرها.

(١) تاريخ بغداد ١/١٦٠.

(٢) تاريخ بغداد ١/١٦٣.

(٣) دول الإسلام ص ٣٤٤.

٧- التذكير بالموت وأخذ المواعظ.

٨- احترام الناس أحياءً وأمواتاً لقوله ﷺ: «حرمة المؤمن ميتاً كحرمة حياً».

• خلاصة: بناء القبور وعقد القباب فوقها.

الوهابيون وابن تيمية قالوا بحرمة بناء القبور، واعتبروا ذلك شركاً وكفراً، وأوجبوا هدم القبور والقباب التي عليها، والبناء الذي حولها^(١).

ودليلهم على ذلك: الإجماع، والحديث التالي:

حدثنا يحيى بن يحيى، وأبو بكر بن أبي شيبة عن وكيع، عن سفيان، عن حبيب ابن أبي ثابت، عن أبي وائل، عن أبي الهيثج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»^(٢).

• مناقشة الحديث، والجواب عنه، وإدعاء الوهابية:

أولاً: من السند: ضعيف للراوي وكيع وهو ابن الجراح الرواسي فضغفه عبد الله بن أحمد بن حنبل بقوله: وكيع أكثر خطأ من ابن مهدي، ويقول أيضاً أخطأ وكيع في خمسمائة حديث^(٣)، وأما سفيان الموجود في الحديث فقد ضغفه الذهبي، وغيره بقوله: كان سفيان يدلس عن الضعفاء^(٤)، وأما حبيب ابن أبي ثابت، قال عنه ابن حبان كان مدلساً^(٥)، وأما أبو وائل

(١) راجع رسالة زيارة القبور: ١٦٠، وراجع زاد المعاد لابن القيم: ٦٦١.

(٢) صحيح مسلم: ٦١/٣، سنن الترمذي: ٢٥٧٢.

(٣) تهذيب الكمال: ٤٧١/٣٠.

(٤) ميزان الاعتدال: ١٦٩/٢.

(٥) تهذيب التهذيب: ١٧٩/٣.

فهو ناصبي ومبغض لأمر المؤمنين علي عليه السلام، فكيف يعتمد عليه ^(١).

ثانياً: المناقشة في المتن والدلالة للحديث:

١- الحديث شاذ، أنفرد به أبو الهيثاج، وقال السيوطي في شرح النسائي ج/٢، ٢٦٤: ليس لأبي الهيثاج في الكتب إلا هذا الحديث الواحد.

٢- الكلمة (سويته) لها احتمالات ثلاث:

الاحتمال الأول: بمعنى إلا هدمته.

الاحتمال الثاني: بمعنى إلا سويته مع الأرض.

الاحتمال الثالث: بمعنى إلا عدلت اعوجاجه، والحيلولة دون تسنيمه

كظهر السمك وسانم البعير.

أما الاحتمال الأول، فمردود لوجود السيرة وعمل الصحابة وغيرهم على خلافه بمعنى عملوا وبنوا القبور والقباب، وأما الاحتمال الثاني، فمردود أيضاً وذلك لقيام السنة القطعية على ارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً، فيبقى الاحتمال الثالث وهو تسطیح القبر وتعديل ما فيه من اعوجاج وهذا ما يراه جمع من علماء السنة كالنوي والقسطلاني:

قال النووي: إن السنة أن القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا

يسنم بل يرفع نحو شبر ويسطح ^(٢).

وقال القسطلاني: بعد أن قال: السنة في القبر تسطيحه وإنه لا يجوز

(١) تهذيب التهذيب: ١٧٩/٢، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩٩/٤ قال كان أبو وائل عثمانياً يقع في علي.

(٢) راجع المجموع: ٣١٢/٤.

ترك هذه السنّة لمجرد أنها صارت شعاراً للروافض، وإنه لا منافاة بين التسطیح وتعديل الاعوجاج^(١).

ثالثاً: أما الإجماع: فممنوع بل هذا العمل جائز إجماعاً لاستمرار عمل المسلمين عليه من جميع المذاهب في كل عصر وزمان والسيرة إجماع عملي لأنها كاشف قطعي عن أنه مأخوذ من صاحب الشرع.

رابعاً: من سيرة الصحابة وعموم المسلمين القائمة على بناء القبور وعقد القباب عليها، وإليك بعض النماذج:

١- بناء مسجد على قبر سيدنا حمزة عم النبي ﷺ، وبناء قبر سعد بن معاذ، وبناء قبر الزبير^(٢).

٢- بناء قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام^(٣).

٣- بناء قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ في دار محمد بن زيد بن علي عليه السلام^(٤).

٤- إن قبور إبراهيم وبنيه إسحاق ويعقوب ويوسف وقبر داود عليه السلام في بيت المقدس جميعها مشيدة ومبنية وبقيت بعد فتح الإسلام، فلو كانت حرام وشرك لهدمت، ولكن بالعكس تم تجديد بنائها^(٥).

خامساً: من الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿... وَأَخَذُوا مِنْ مَّقَامِرِ آبَائِهِمْ مُصَلًّى...﴾ [البقرة ١٢٥].

(١) إرشاد الساري: ٤٦٧٢.

(٢) راجع سيرة أعلام النبلاء: ٢٨٥/١٣، وكذلك في وفاء الوفا: ٥٤٥/٢.

(٣) راجع سيرة أعلام النبلاء: ٢٥١/١٦.

(٤) راجع سيرة أعلام النبلاء: ٢٨٦/١٣.

(٥) أنظر دور الأخبار: ١٨٥/٢، ومعالم الزلفى: ١٠٨.

وملخص الاستدلال لو لم يكن المقام معروفاً فكيف يأمرنا باتخاذها مصلى؟ فإذا كان معروفاً، فكيف يعرف؟ فلا بد بالتعليم والعلامة وهي البناء عليه.

سأداساً: قصة أصحاب الكهف قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف ٢١]،

فالآية الأولى والثانية دليل واضح على جواز البناء على القبور.

• فولد القبور:

- ١- تعظيم الشعائر وإرغام الأعداء والمنكرين.
- ٢- التذكير بالموت وأخذ المواعظ.
- ٣- احترام الناس أحياءً وأمواتاً (حرمة المؤمن ميتاً كحرمة حياً).
- ٤- قراءة القرآن والدعاء وكذلك الصلاة وإهداء ثوابها للميت.
- ٥- استغلال الزائرين بها من الحر والبرد عند الزيارة والصلاة والدعاء بجانبها التي ثبت رجحانه بشرف المكان والمكين.
- ٦- التدريس.
- ٧- إلقاء المواعظ والحكم. و.....
- ٨- إقامة الندوات والخطابات الشعرية وغيرها.

الفصل الخامس

الإسراج على القبور

- ١— رأي الوهابية
- ٢— مناقشة الفكرة
- ٣— سيرة النبي الأكرم ﷺ في الإسراج
- ٤— سيرة المسلمين
- ٥— أقوال العلماء في الإسراج على القبور

الفصل الخامس

الإسراج على القبور

* رأي الوهابية

وقد منع ابن عبد الوهاب الإسراج على القبور استناداً إلى الحديث التالي «لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج»^(١).

والجواب: أولاً: هذا الحديث ضعيف السند لأن فيه ابن جريح وهو ضعيف وينقل المناكير هذا ما قاله أحمد ابن حنبل ومالك بن أنس والذهبي والدارقطني (تهذيب الكمال ج/ ١٨، ص ٣٤٨ وتهذيب التهذيب ج/ ٦، ص ٤٠٤).

ثانياً: محمول على غير قبور الأنبياء والأولياء الذي دل الشرع على رجحان تعظيمهم أحياءً وأمواتاً قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن رسول الله إمامكم حياً وميتاً»^(٢).

ثالثاً: محمول على صورة عدم المنفعة فيكون تضييعاً للمال، وأما الإسراج لقراءة القرآن والأدعية والصلاة وانتفاع الزائرين والباطنين فيها، فليس مكروهاً ولا محرماً وذلك للنتفع الظاهر في ذلك، فيكون من التعاون

(١) سنن النسائي ٩٥/٤، مستدرک الحاكم ١/ ٥٣٠.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١٨/١٧.

على البر والتقوى كما أشار إلى ذلك العزيزي والسندي والشيخ الحنفي والشيخ علي منصور وسيأتي تفصيل أقوالهم.

رابعاً: سيرة النبي ﷺ.

والشاهد على ذلك فعل النبي ﷺ فقد روى الترمذي عن ابن عباس أن النبي دخل قبراً ليلاً فأسرج له سراجاً^(١).

خامساً: سيرة المسلمين.

كما أن سيرة المسلمين من قبل وبعد أن يولد ابن تيميه ومحمد بن عبد الوهاب كانت العادة جارية على الإسراج والإضاءة على القبور والمشاهد وإليك شواهد من السيرة.

١- قنديل على قبر أبو أيوب الأنصاري: قال الخطيب البغدادي: أتيت قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب النبي ﷺ فرأيت قبره عليه بنيان وعليه قنديل معلق بسلسلة^(٢).

٢- قنديل على قبر الإمام الكاظم عليه السلام قال الخطيب البغدادي وقبره في بغداد مشهور بزار وعليه مشهد عظيم فيه قناديل الذهب والفضة وأنواع الفرش ما لا يحد (وفيات الأعيان ج / ٥ ، ص ٣١٠).

٣- قناديل على قبر الزبير بن العوام: قال ابن الجوزي في المنتظم (ج / ١٤ ، ص ٣٨٣) إن أهل البصرة نقلوا القناديل والآلات والحصر إلى قبر الزبير بن العوام وهناك شواهد قرى كثيرة^(٣).

(١) الجامع الصحيح ٣/٣٧٢.

(٢) تاريخ بغداد ١/١٥٤.

(٣) راجع وفيات الأعيان (٥/٣١٠).

سادساً: أقوال العلماء في سند ودلالة الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج، أما من حيث السند فقد رواه الحاكم في مستدرکه سندين يتهيان إلى ابن عباس، ولكن فيها أبو صالح وهو باذن وهذا مردود لأنه لم يوثق عند الشافعي وابن عدي وغيرهما^(١).

وأما أقوال بعضهم في دلالة الحديث:

١- قال العزيزي في شرح قوله ﷺ (والسُّرُج) محل ذلك حيث لا يتفع بها الأحياء فإن كان هناك من يتفع به صح ذلك (راجع شرح الجامع الصغير ٣ / ١٩٨).

٢- وقال السندي في حاشية سنن النسائي: والنهي عنه لأنه تضييع مال بلا نفع، ومفاده: أنه لا نهى حيث يكون هناك نفع (راجع سنن النسائي ٤ / ٩٥).

٣- وقال الشيخ علي الناصيف الحنفي: فلا يجوز السُّرُج على القبور لأنها إضاعة مال، إلا إذا كان هناك أحد من الأحياء فيجوز له الإسراج (التاج الجامع للأصول ١ / ٣٨١) إذن النهي إرشادي لا مولوي، فهو إرشاد إلى عدم تضييع المال، فلو كان للإضاعة والإسراج نفع عقلائي فلا يشملها هذا الحديث.

أضف إلى عدم إفادة اللعن الحرمة، بل قد يكون محمولاً على الفعل المكروه.

الفصل السادس

الشفاعة

- ١- رأي الوهابية في الشفاعة
- ٢ - معنى الشفاعة وحقيقتها
- ٣- أقسام الشفاعة
- ٤- مورد الشفاعة
- ٥- دور الشفيع
- ٦- الشفعاء
- ٧- الشفاعة في الروايات
- ٨- طلب الشفاعة في سيرة الصحابة
- ٩- شفاعة الأموات
- ١٠- إشكالات على الشفاعة

الفصل السادس

الشفاعة

• رأي الوهابية:

لقد منعت الوهابية طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين والملائكة الذين أخبر الله تعالى بأن لهم الشفاعة وجعلوه شركاً وكفراً تحل به دماء المستشفعين وأموالهم!

قال محمد بن عبد الوهاب: إن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم، وقال: إن طلب الشفاعة من النبي عبادة له وكل عبادة لغير الله شرك^(١)، وقال: التوسل بغير الله شرك يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم.

وهذا المضمون أخذه من ابن تيمية حيث قال: إن الذين قاتلهم النبي ﷺ مقرّون بما ذكرت، وبأن أوثانهم لا تدبر شيئاً وإنما أرادوا الجاه والشفاعة وإنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة وأن طلب الشفاعة من الصالحين هو بعينه قول الكفار والمشركين^(٢):

(١) الهدية السننية ص ٣٧.

(٢) رسالة زيارة القبور ص ١٥١، إرشاد الساري ٣٢٩/٢.

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ
 مَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر ٣]، وقال ابن
 تيمية: إن قول أدركني أو اشفع لي أو انصرتني على عدوي ونحو ذلك مما
 لا يقدر عليه إلا الله كان من أقسام الشرك^(١).

والجواب:

أن طلب الشفاعة من الأصنام شرك. لا يقاس بطلبها من الصالحين،
 المأذون به بصريح القرآن الكريم ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾^(٢)
 أما هذه الآية وردت في عبادة الأصنام بمعنى أنها من الشفعاء كما استدل
 بقوله تعالى: ﴿ أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا
 وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر ٤٣].

والجواب: أن هذه الآية أيضاً في التفسير في شفاعة الأصنام بقرينة لا
 يعقلون وهذا قياس باطل أيضاً.

* معنى الشفاعة وحقيقتها وأقسامها

حقيقة الشفاعة وأقسامها:

الشفاعة في اللغة: أصل واحد يدل على مقارنة الشئين أو ضمهما
 معاً^(٣)، وهي من الشفع مقابل الوتر.

الشفاعة في الاصطلاح: هي رفع المشفوع له من كونه مصداقاً للعقاب
 إلى كونه مصداقاً للرحمة.

(١) الهدية السنّة، ص: ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) راجع القاموس مادة شفع.

أقسام الشفاعة:

تنقسم إلى قسمين:

أولاً الشفاعة التكوينية: فالمراد هنا من الشفيع هو الأسباب والعلل المادية الواقعة في طريق وجود الأشياء وتحققها وإنما سميت العلة شفيعاً لأجل أن تأثيرها يتوقف على إذنه سبحانه، فهي مشفوعة إلى إذنه تعالى حتى تؤثر وتعطي، والشفعاء فيها جملة الأسباب الكونية بما هي وسائط بين الله تعالى وبين الأشياء.

ثانياً الشفاعة التشريعية وهي الواقعة في عالم التكليف وهذه تنقسم إلى قسمين:

١- الشفاعة القيادية: فالمراد من هذا القسم هو قيام الأنبياء والأولياء والأئمة والعلماء والكتب السماوية مقام الشفيع والشفاعة للبشر لتخليصهم من عواقب أعمالهم السيئة.

٢- الشفاعة المصطلحة وحقيقة هذه الشفاعة لا تعني إلا أن تصل رحمته سبحانه ومغفرته إلى عباده عن طريق أنبيائه وأوليائه وصفوة عباده، وليس هذا بأمر غريب فكما أن الهداية الإلهية تصل إلى عباده في هذه الدنيا عن طريق أنبيائه كذلك تصل مغفرته تعالى إلى المذنبين من عباده فتكون هنا الشفاعة هي الدعاء فيقع الدعاء في سلسلة العلل ولأجل جلب المغفرة، فيكون الفرق بين الشفاعة القيادية وبين المصطلحة هو أن المصطلحة توجب رفع العقاب عن العبد بعد استحقاقه له، وأما القيادية هي دفع العقاب والذنب عنه وعلى ذلك فقيادة الأنبياء والأئمة تقوم مقام الشفيع والشفاعة في تجنب العبد من الوقوع في المعصية والهلكة. فالشفاعة بهذا

المعنى مثلها مثل الوقاية في الطبابة كما أن الشفاعة المصطلحة مثلها مثل المداواة بعد إصابة المرض لأجل رفع المرض، وخلاصة القول: إن الشفاعة نوعان:

* الشفاعة نوعان:

شفاعة تكوينية والشفعاء فيها جملة الأسباب التكوينية بما هي وسائط بين الله وبين الأشياء، فالمراد هنا من الشفيع هو الأسباب والعلل المادية الواقعة في طريق وجود الأشياء وتحقيقها وإنما سميت العلة شفيعاً لأجل أن تأثيرها يتوقف على أذنه سبحانه فهي مشفوعة إلى إذنه تعالى حتى تؤثر وتعطي، وشفاعة تشريعية، وهي الواقعة في عالم التكليف ومنها ما يستدعي في الدنيا مغفرة من الله سبحانه أو قرباً أو زلفى، فالشفيع متوسط بين الله وبين عبده.

وهي من الشفع مقابل الوتر، كأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فتكتمل الوسيلة وترقى بالشفيع إلى حد القبول والتأثير فيتأهل المستشفع لنيل المراد والفوز بما لم يكن أهلاً للفوز به لنقص وسيلته وقصورها، فالشفاعة من الشفيع عبارة عن طلبه من المشفوع إليه أمراً للمشفوع له فشفاعة النبي ﷺ أو غيره عبارة عن دعاء النبي إلى الله تعالى لأجل الغير وطلبه منه غفران الذنب وقضاء الحوائج، فالشفاعة نوع من الدعاء والرجاء. فيقع الدعاء في طول سلسلة العلل لا في عرضها ولأجل جلب المغفرة.

وحكى النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيءٍ مُّقِيَّتًا ﴿ [النساء ٨٥]، عن مقاتل أنه قال الشفاعة إلى الله إنما هي الدعوة لمسلم لما روي عن النبي ﷺ من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك ولك مثل ذلك.

فظهر أن الشفاعة والدعاء من واد واحد فيرجع طلبها إلى التماس العبد من معبوده العفو والمغفرة.

* مورد الشفاعة:

إن الإنسان لا يكون مورداً للشفاعة إذا أراد نيل ثواب أو درجة من غير سعي ولا تهيئة أسباب بلوغ ذلك الثواب أو تلك الدرجة، ويكون مورداً للشفاعة إذا كانت له القابلية واللياقة للتلبس بالكمال وبلوغ الدرجة المقصودة ولكن البعض لم يتأهل لنيلها لنقص وسيلته بسبب تقصير منه فيأتي دور الشفيع لرفع النقص، لأن الشفاعة متممة للسبب لا مستقلة في التأثير.

* دور الشفيع:

إن دور الشفيع لا يعني إبطال مولوية المولى ولا إبطال عبودية العبد، ولا رفع اليد عن الحكم المجعول، بل الشفيع إما أن يتقدم إلى المولى بصفات في المولى سبحانه توجب العفو عن العبد والرافة به مثل السخاء والكرم والصفح و... أو أن الشفيع يتقدم إلى المولى بصفات في العبد توجب رحمة المولى ورافته به والتجاوز عنه، كالاعتقاد الحق، والصدق في الاعتقاد وطلب مرضاة المولى، وحبه لأوليائه المولى وأحبائه، وسوء حال العبد ومسكنته وذلته، و... أو بصفات في الشفيع نفسه مثل قربه من المولى، وعلو منزلته عنده، و... فكان الشفيع يقول: يا رب لا أسألك إبطال المولوية

ولا إبطال الحكم ولا إبطال الجزاء، بل العفو لأن لك الكرم وسجيتك الصفع أو لأن العبد جاهل أو لمنزلتي عندك.

فالشفاعة: حقيقتها التوسط في إيصال نفع أو دفع شر بنحو الحكومة لا بنحو المضادة.

يعني: إن الشفيع يذكر بعض العوامل المؤثرة في رفع العقاب بأن يخرج المورد (الشخص) عن كونه مصداق العقوبة إلى مورد آخر مصداق الرأفة.

ثم إن الشفاعة كما أنها تثبت لعدة من عباده من الملائكة والناس من بعد الإذن والارتضاء، كذلك يمكن للعبد أن يتقدم إلى الله برحمته، أو بذل نفسه وحقاتها في التوبة إلى الله والعمل الصالح فيخرج نفسه عن كونه مصداقاً للمذنب المسيء إلى كونه مصداقاً للمُحْسِن، وفي أمثال هذا العبد يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان ٧٠]، فله تعالى أن يبدل السيئة حسنة كما له أن يجعل رصيد الإنسان من الأعمال صفراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان ٢٣].

* الشفعاء: فالشفيع وسيط بين الله وعبده، فمن الشفعاء هم:

١ - الأنبياء وخاصة النبي محمد ﷺ: باستغفار الرسول لهم ودليله

قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رُّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾^(١).

(١) سورة النساء الآية ٦٤.

٢ - القرآن: بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ودليله قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة ١٦].

٣ - المؤمنون: باستغفارهم لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين لقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٨٦].

٤ - الملائكة: باستغفارهم لمن في الأرض بقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى ٥].

٥ - العمل الصالح: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة ٩].

٦ - الإيمان والتقوى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد ٢٨].

٧ - التوبة باب لغفران الذنوب: كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمْ الْعَذَابَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر ٥٣ - ٥٤].

ومن الشفعاء أيضاً الشفيع يوم القيامة بالمعنى الذي ذكرناه وهو إخراج المذنب عن كونه مصداقاً للعقوبة، إلى مورد كونه مصداقاً للرافة والرحمة وهم:

١- الأنبياء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ...﴾ إلى قوله تعالى وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَتْهُ ﴿[الأنبياء ٢٧ - ٢٨] فإن منهم عيسى وهو نبي.

٢- الملائكة: قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم ٢٦].

٣- الشهداء: قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف ٨٦]، وهي تدل على أن تملكهم للشفاعة لشهادتهم بالحق، فكل شهيد هو شفيع يملك الشهادة، لكن المراد بالشهادة هنا شهادة الأعمال دون الشهادة بمعنى القتل في المعركة.

٤- المؤمنون: ومن الآية السابقة يظهر أن المؤمنين أيضاً من الشفعاء، فإن الله عز وجل أخبر بلحوقهم بالشهداء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد ١٩].

تقرير آخر للجواب عن الإشكال السابق من قبل الوهابية:

ملخص الإشكال: أن الشفاعة حرام وممنوع من الأنبياء والصالحين، والملائكة وغيرهم، وجعلوها كفراً وشركاً.

فالجواب بتقرير آخر هو:

أولاً: إن معنى الشفاعة هو الطلب من المشفوع عنده، أمراً للمشفوع له، فشفاعة النبي أو غيره معناه دعاؤه إلى الله للغير وطلبه من الله غفران الذنب وقضاء الحوائج فالشفاعة نوع من الدعاء، وهل الدعاء إلى الله ممنوع عند

الوهابية؟ وقد ورد عن النبي ﷺ قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له» (أنظر التفسير الكبير).

إذن طلب الشفاعة من الغير عبارة أخرى عن طلب الدعاء منه^(١) وقد ثبت جواز الدعاء من أي مؤمن كان، كما اعترف محمد بن عبد الوهاب بجواز طلب الدعاء من الحي لأجل قضاء حاجة أخيه بل جوازه يعد من ضروريات الدين، وحيثئذ فيجوز طلب الشفاعة (أي الدعاء) من كل مؤمن فضلاً عن الأنبياء والصالحين فضلاً عن سيد المرسلين إن قلت: لا بد أن يكون للشفيع جاه عند المشفوع إليه.

قلت: إن الله جعل حرمة لكل مؤمن يُرجى بها قبول شفاعته واستجابة دعائه فقد ثبت عن النبي وهو يخاطب الكعبة: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك^(٢). كما ورد عن أبي الدرداء أن النبي قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب أستجيب له»^(٣).

ثانياً كما قد ثبت في القرآن الكريم شفاعته النبي بقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ كما ثبت شفاعته الأنبياء بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ آذَنُوا﴾ [الأنبياء ٢٨] ومنهم نوح ﷺ لوالديه وللمؤمنين والمؤمنات وحكى عنه تعالى أنه قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح ٢٨].

وكما حكى الله تعالى عن شفاعته الملائكة للمذنبين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا

(١) روافد الإيمان للشيخ الطيبي صفحة ٢٠.

(٢) سنن الترمذي: ٣٧٨/٤.

(٣) التفسير الكبير ٢٠٧/١٠.

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ ﴿غافر ٧-٩﴾.

كما وقعت الشفاعة من الأنبياء والنبي الأكرم حيث أمره الله بها فقال
تعالى ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِمَن يَنبَغِيكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد ١٩].
والنتيجة:

إن الشفاعة لا تزيد عن الدعاء وطلب المغفرة.

ثالثاً: شفاعة الحجر الأسود: كما ثبت عن علي عليه السلام شفاعة الحجر
الأسود فقال عليه السلام: اشهدوا هذا الحجر خيراً فإنه يوم القيامة شافع مشفع له
لسان وشفتان يشهد لمن استلمه^(١). قال العريزي: الحجر الأسود شافع
مشفع فأما شافع في من أشهده خيراً كتفيل واستلاماً أو دعاء وأما مشفع
أي مقبول الشفاعة.

رابعاً: من الروايات في الشفاعة:

١- عن أنس قال: سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل
قلت فأين أطلبك؟ قال: علي الصراط^(٢).

٢- أتى سواد بن قارب إلى رسول الله ﷺ وطلب منه الشفاعة في
أبيات^(٣):

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة سواك بمغنٍ عن سواد بن قارب

(١) كنز العمال: ٢١٧/١٢، جامع الصغير للسيوطي: ٢٢٥.

(٢) الجامع الصحيح: ٦٢١/٤.

(٣) أنظر الدرر السنية: ٢٩، الإصابة: ٩٦/٢، أسد الغابة: ٣.

فقال ﷺ: أنا فاعل يوم القيامة.

خامساً: طلب الشفاعة في سيرة الصحابة:

١- عن ابن عباس لما فرغ علي ﷺ من تفسير النبي قال: «بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً... أذكرنا عند ربك»^(١)، يعني أطلب لنا الشفاعة من الله لأنك عنده صاحب مقام محمود.

٢- كشف أبو بكر عن وجه النبي ﷺ وقبلة وقال مثله^(٢).

٣- إن الناس أصابهم القحط في خلافة عمر بن الخطاب، فجاء بلال بن الحارث - وكان من أصحاب النبي ﷺ - إلى قبر النبي ﷺ، وقال يا رسول الله ﷺ: استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتاه رسول الله ﷺ في المنام وأخبره أنهم سيسقون^(٣).

شفاعة الأموات: فعن ابن تيمية: إنها بدعة وعن ابن عبد الوهاب والصنعاني كفر وشرك. قال ابن تيمية أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول أدع لنا، اسأل لنا ربك، ولم يتقل هذا أحد من الصحابة والتابعين ولا أمر به أحد من الأئمة ولا ورد فيه حديث^(٤).

والجواب:

أولاً نقول: إن النبي ﷺ وسائر الأنبياء أحياء بعد الموت وإنه يسمع الكلام ويرد الجواب ويبلغه صلاة وتسليم من يصلي ويسلم عليه،

(١) أمالي المفيد: ١٠٥، البحار: ٥٢٧/٢٢.

(٢) خلاصة الكلام لزيني دحلان، كشف الأرتباب: ٢٦٥.

(٣) فتح الباري: ٣٩٨/٢، وفاء الوفا: ١٣٧٤/٤، سنن الكبرى: ٣٥١/٣.

(٤) رسالة زيارة القبور ص ١٥١.

وإن أعمال أمته تعرض عليه وإنه يستغفر لأمته وهذا ما صرح به القرآن الكريم ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد ١٩] ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا يدل على شفاعته وإن قلنا ميت ﷺ.

ثانياً: من السنة الشريفة ثبتت شفاعة النبي ﷺ بعد موته:

١- عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» (رواه البيهقي، ووفاء الوفاء ٤ / ١٣٤٩)

٢- روى مسلم في صحيحه أن الأنبياء ﷺ بعدما قبضوا ردت أرواحهم فهم الأحياء^(١).

٣- عن النبي ﷺ قال في المعراج: «مررت بموسى وهو يصلي في قبره» (سنن النسائي ٢١٦٣، ومسند أحمد ١٤٨٣)

سادساً: (حياة النبي ﷺ بعد الموت) من أقوال العلماء والمتكلمين:

١- قال السهمودي: لا شك في حياة النبي ﷺ بعد وفاته وكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم (راجع وفاء الوفاء ٤ / ١٣٤٩)

٢- قال البيهقي: ولحياة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بعد موتهم شواهد من أحاديث الصحيحة، ثم ذكر حديث (مروي عن موسى ﷺ وهو قائم يصلي في قبره)^(٢).

(١) صحيح مسلم ٣٣٧٥/٥

(٢) سيرة أعلام النبلاء ٩٩/١٦.

٣- وقال القسطلاني: ولا شك أن حياة الأنبياء ثابتة معلومة مستمرة
(راجع المواهب اللدنية ٤١٣/٣)

٤- وقال السبكي: وقد أجمع أهل السنة على إثبات الحياة في القبور
(وفاء الوفاء ١٤١٢/٤)

رابعاً: من الكتاب الكريم:

وإليك بعض الآيات التي تدل على حياة الأنبياء في القبور

١- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران ١٦٩].

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران ١٧٠].

والآيتان صريحتان بحصول الحياة في القبر قبل البعث من القرائن
التالية (كلمات أربع هي ١- أحياء عند ربهم - ٢- يرزقون - ٣- فرحين -
٤- ويستبشرون).

٢- وسلام على المرسلين، سلام على نوح في العالمين، وسلام على...
كيف نسلم عليهم؟ إذا كانوا أمواتاً؟ إذن هم أحياء في قبورهم يردون
السلام على من يسلم عليهم.

٣- ﴿وَخَاقٍ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءِ الْعَذَابِ * أَنَا يُرْضَوْنَ عَلَيْهَا غُدُوًّا
وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر ٤٥،
٤٦].

والآية صريحة في أنه تعالى أحاط بآل فرعون سوء العذاب وأنهم

يعرضون على النار قبل قيام الساعة ثم يدخلونها عند قيام الساعة، فهناك عذاب لهم قبل يوم القيامة يشعرون به وما هذا إلا اعترافاً بالحياة قبل القيامة.

والحاصل: إن الفطرة السليمة تشهد بحياة الروح بعد الموت والآيات الكريمة والسنة الشريفة كذلك يشهدان على بقاء الروح، فثبت أن الشفاعة من الميت ممكنة.

* آثار الشفاعة:

إن لتشريع الشفاعة مبررات عدة نذكر منها اثنتين:

الأول: الحاجة إلى رحمة الله الواسعة حتى مع العمل.

إن الفوز بالسعادة وإن كان يعتمد على العمل أشد الاعتماد، غير أن صريح الآيات هو أن العمل ما لم تنظم إليه رحمة الله الواسعة، غير كاف في إنقاذ الإنسان من تبعات تقصيره، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّنْ دَابَّةٍ مِّنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...﴾ [النحل ٦١].

الثاني: الآثار التربوية للشفاعة بالرغم مما اعترض على الشفاعة من كونها توجب الجرأة وتحيي روح التمرد في العصاة والمجرمين، فإن الشفاعة تتسبب في إصلاح سلوك المجرم عن التمادي في الطغيان، وتظهر حقيقة الحال في باب التوبة فلو كان موصداً في وجه العصاة والمذنبين واعتقد المجرم بأن عصيانه وهذا بخلاف ما إذا وجد الجو مشرقاً والطريق مفتوحاً وأيقن أن رجوعه يغير مصيره في الآخرة فيترك العصيان ويرجع إلى الطاعة، فالاعتقاد بالشفاعة المحدودة قد يشفعون في حقه إذا لم يهتك الستر ولم

يبلغ إلى الحد الذي لا تكون فيه الشفاعة نافعة عند ذلك ربما يعيد النظر في مسيرته ويحاول تطبيق حياته على شرائط الشفاعة حتى لا يُحرمها.

• شرائط شمول الشفاعة

قد تعرفت على أن الشفاعة المشروعة هي الشفاعة المحدودة بحدود وليس أمر الشفاعة فوضى مطلقة بلا قيد وشرط، فالشفاعة المطلقة المحررة من كل قيد مرفوضة في منطق العقل والقرآن. ونحن نذكر بعض شرائطها كما وردت في الروايات:

١- عدم الشرك بالله شيئاً، قال ﷺ: «شفاعتي نائلة إن شاء الله من مات ولا يشرك بالله شيئاً»^(١).

٢- شهادة الشهادتين بإخلاص، قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»^(٢).

٣- عدم الغش، قال رسول الله ﷺ: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي»^(٣).

٤- عدم نصب العداء لأهل البيت عليهم السلام، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن المؤمن ليشف لحميمة إلا أن يكون ناصباً ولو أن ناصباً شفع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفعاوا»^(٤).

(١) مستند أحمد: ٤٢٦٢.

(٢) مستند أحمد: ٣٠٧/٢، وصحيح البخاري: ٣٦١.

(٣) مستند أحمد: ٧٢/١ والمراد بالعرب هم المسلمون لأن المسلمين يوم ذلك كانوا منحصرين في العرب.

(٤) نواب الأعمال للصدوق: ٢٥١.

٥- عدم الاستخفاف بالصلاة قال الإمام الكاظم عليه السلام: «لَمَّا حَضَرَت الوفاة أَمَى الإمام الصادق عليه السلام قال لي: يا بُنَيَّ إِنَّهُ لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنْ اسْتَخَفَّ بِالصَّلَاةِ»^(١).

٦- عدم التكذيب بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ كَذَّبَ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ لَمْ تَنْلُهُ»^(٢).

♦ شبهات وإشكالات على الشفاعة:

الشبهة الأولى:

لو كان رفع العقاب عن المجرم عدلاً، فالعقاب ظلمٌ، وإن كان ظلماً، فكيف سأل الأنبياء ما هو ظلم؟

والجواب:

إن رفع العقاب ليس معناه نقض الحكم الأول ونقضاً للعقوبة، بل معنى إخراج المجرم عن كونه مصداقاً للعقوبات بجعله مصداقاً لشمول الرحمة والرفقة.

الشبهة الثانية:

إن الشفاعة توجب التخلف والاختلاف ورفع العقاب بالشفاعة عن المجرمين في جرائمهم موجب لنقض الغرض المحال، إذ سُنَّ الله تعالى جرت على صون أفعاله من التخلف، فما قُضِيَ وحُكِمَ به يجريه على وتيرة واحدة من غير استثناء.

(١) الكافي: ٢٧٠/٣.

(٢) عيون أخبار الرضا: ٦٦٢.

والجواب:

يأبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها، فالحكم له سبب، ولعل هناك أسباباً كثيرة أخرى تستدعي غير ما يقتضيه هذا السبب الواحد.

الشبهة الثالثة:

إن الشفاعة المعروفة هي حمل المشفوع عنده على ترك ما أراد فعله أو فعل ما أراد، فالشفاعة تصرف في إرادة الرب وحكمه وهو محال.

والجواب: إن الشفاعة ليست من التغيير في الإرادة والعلم بل في المراد والمعلوم فهو سبحانه يعلم أن الإنسان الفلاني سوف تجري عليه حالات متعددة فيكون في حين كذا على حال كذا لاقتران أسباب وشرائط خاصة فيريد فيه بإرادة، ثم يكون في حين آخر على حال آخر جديد، يخالف الأول لاقتران أسباب وشرائط أخرى، فيريد فيه بإرادة أخرى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن ٢٩]، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد ٣٩].

الشبهة الرابعة:

إن وعد الشفاعة يستلزم تجري الناس على المعصية.

والجواب:

بالنقض أولاً، بالآيات الدالة على شمول المغفرة وسعة الرحمة في غير مورد التوبة بدليل استثنائه الشرك المغفور بالتوبة، وثانياً بالحل (الوعد بالشفاعة) إنما يستلزم تجري الناس على المعصية بشرطين:

الأول: تعيين المجرم بنفسه ونعته أو تعيين الذنب الذي تقع فيه

الشفاعة تعييناً لا يقع فيه لبس بنحو الإنجاز من غير تعليق بشرط جائز.
الثاني: تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته بأن تقلعه من أصله قلعاً.

ومن المعلوم أن هذين الشرطين ليسا من الوعد بالشفاعة بشيء^(١).
إذن بعد هذه الأدلة والنصوص والشواهد لا يبقى مجال لمزاعم
الوهابية بحرمة طلب الشفاعة ومن الغريب دعواهم عدم ورود ذلك من أي
صحابي.

نعم إن أمثال هذه الدعوى تدل على عدم إطلاع قائلها على مصادر
التشريع ولا فعل الصحابة، وتدل على أنها قول بغير علم. وهناك إشكالات
أخرى مثارة حول الشفاعة هي:

الشبهة الخامسة:

إن جميع المعاصي تشترك في هدم الحدود والجرأة على المولى فأى
معنى لشمول الشفاعة لبعض ألوان الجرائم والمعاصي دون البعض الآخر؟
والجواب:

للجُرم مراتب كما أن للمجرمين درجات، فلا يستوي من أحرق
منديلاً كمن أحرق مصنعاً، ولا يستوي الشاب الناظر للمرأة وبين
الشاب الذي يعتدي عليها بالعنف، إذن الفرق بين الذنوب ترجيح مع
المرجح.

(١) راجع الميزان: ١٦٧/١.

الشفية السادسة:

إن تشريع الشفاعة يُجر إلى التماذي في العصيان واستمرار المجرم في عداوته رجاء غفران ذنوبه بالشفاعة.

والجواب:

أما نقضاً: فبالوعد بالمغفرة مع التوبة بل حتى مع عدمها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فلو كانت الشفاعة موجبة للتماذي، فليكن الوعد بالمغفرة مع التوبة بل مع عدمها في غير الشرك موجباً للتماذي أيضاً، فالجواب هنا هو الجواب هناك.

وأما حلاً: فالإشكال ينبع من تصور خاطئ، وهو اعتقاد كون الشفاعة مطلقة غير مشروطة بشيء فيكون للإنسان عند ذلك أن يفعل ما يريد تعويلاً عليها، ولكنك عرفت أن الشفاعة محدودة وتشمل بعض العباد، وهم الذين لم تنقطع علاقاتهم بالله سبحانه وبأوليائه، ومثل هذه الشفاعة لا تبعث على الجرأة بل تبعث عملاً حسناً في نفس العاصي وتدفعه إلى الاحتفاظ بعلاقته مع الله تعالى ولا ينسفها من رأس، إن الشفاعة التي نطق بها القرآن، ليست أمراً مطلقاً من كل قيد وشرط فإن الشفاعة مقيدة بإذنه سبحانه أولاً وكون المشفوع من الممكن أن يدعن المجرم بأنه ممن يشمله إذنه سبحانه ورضاه، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١)، وهناك وجه آخر لكون الشفاعة محدودة وهو إبهامها من حيث الجرم فلا يعلم أي جرم تشمله الشفاعة وأي جرم لا تشمله، كما أنها مبهمة من حيث وقت القيامة، فللمصاة والطفأة مواقف مختلفة وهي مواقف رهبة ومخيفة تهز القلوب

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

ولم يعين وقت الشفاعة وهذه الإبهامات تصد المجرم عن الاعتماد على الشفاعة ليتدأى في المعصية، وغاية ما يمكن أن يقال في الشفاعة أنها نوع من الرجاء والدعاء، ونافذة من الأمل فتحها القرآن في وجه العصاة حتى لا يأسوا من روح الله.

الشبهة السابعة:

الذي ورد في إثبات الشفاعة من الآيات المتشابهات، وفيه يقضى بمذهب التفويض والتسليم ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله تعالى عن المعنى المعروف للشفاعة في لسان التخاطب العرفي.

والجواب:

قد تعرفت على أصناف الآيات الواردة في الشفاعة وليس فيها آية مبهمه مستعصية على الفهم وعلى فرض وجودها، يرفع إبهامها بأية أختها أو بالأحاديث الواردة حولها على أن ما ذكره المستشكل من أن مذهب السلف في المتشابهات هو التفويض والتسليم لله، مردود من رأس فإن القرآن كتاب هداية وتربية، نزل للفهم والعلم العمل الصالح، فلا معنى لقراءة الآيات وتفويض مفاهيمها التصديقية إلى الله، بل يجب رفع إبهام المتشابهات عن طريق المحكمات. نعم؛ هناك مفاهيم تصويرية مبهمه كحقيقة ذاته تعالى، وصفاته وحقيقة الميزان والحساب ولكنها مفاهيم تصويرية خارجة عن موضوع البحث.

الفصل السابع في المآتم والمراسم

- ١ - أدلة بعض العامة على تحريم العزاء والبكاء على الميت
الأول: الميت يعذب ببكاء أهله
الثاني: أحتُ في وجوههن التراب
الثالث: عمر يضرب النواحة ويقتمح الدار
- ٢ - تشجيع النبي على إقامة العزاء
- ٣ - سيرة النبي في إقامة العزاء والبكاء
- ٤ - سيرة الصحابة والتابعين
- ٥ - سيرة المسلمين في إقامة المسيرات وضرب الطبول

الفصل السابع

في المآتم والمراسم

* في المآتم والمراسم

- أدلة بعض العامة على تحريم العزاء والبكاء على الميت

— الدليل الأول:

أحاديث الميت يعذب ببكاء أهله عليه، وهي منقولة عن عمر وابنه وغيرهما بما حاصله: الميت يعذب في قبره بما نيح عليه، أو أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، أو أن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه^(١).

والجواب:

يبدو من بعض النصوص أن الراوي أخطأ في النقل أو نسي النص على ما صرحت به عائشة عندما قال ابن عباس: لما مات عمر ذكرت ذلك الحديث لعائشة فقالت رحم الله عمر والله ما حدث رسول الله بهذا الحديث، ولكن رسول الله قال: «إِنَّ اللَّهَ لِيَزِيدَ الْكَافِرَ عَذَاباً بِبِكَاءِ أَهْلِهِ»، وقالت عائشة حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، فما قال ابن عمر

(١) البخاري كتاب الجنائز، صحيح مسلم كتاب الجنائز، وجامع الأصول: ٩٩/١١، سنن ابن ماجه:

شيئاً وعن عائشة إنها قيل لها إن ابن عمر يقول: الميت يعذب ببكاء الحي، فقالت يغفر الله له، أما أنه لم يكذب ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مرّ رسول الله ﷺ على يهودية يُبكي عليها فقال: إنهم ليكون عليها وإنها تعذب في قبرها وعن عائشة أيضاً: إن معنى الحديث أن الكافر وغيره من أصحاب الذنوب يعذب في حال بكاء أهله عليه بذنبه لا ببكائهم عليه^(١).

— الدليل الثاني:

ما رواه التقي الهندي عن عائشة: لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة جلس رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الحزن وأنا أطلع من شق الباب، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر يبكين، قال ﷺ فارجع إليهن فأسكتهن، فإن أبين فأحث في وجوههن التراب^(٢).

وفيه: أولاً: معارض بما ورد عن النبي ﷺ من البكاء على الميت وترغيبه الناس في البكاء على حمزة وجعفر، فإنه ﷺ قال لعمر لما زجر نساء يبكين الميت: دعهن فإن العين دامعة والنفس مصابة والعهد قريب^(٣).

وثانياً: ضعيفة السند؛ لأن في السند محمد بن إسحاق بن يسار كذاب ويدلس وأحاديثه باطلة كما ذكرت بعض الكتب الرجالية والمسانيد والسنن وعن أحمد بن حنبل ضعيف^(٤) وسقيم لم يكن يحتج به في السنن. فعن النسائي ليس بثقة ولا يُكتب حديثه^(٥).

(١) المجموع للنروي: ٣٠٨/٥.

(٢) كنز العمال ٧٣٢/١٥، مصنف ابن أبي شيبة ٢٥٦٣.

(٣) سنن النسائي: ١٩٤/٤، مسند أحمد: ٣٣٣/٢، والمستدرک علی الصحیحین: ٣٨١/١.

(٤) تهذيب الكمال: ٧٠/١٦ - ٨٠.

(٥) تهذيب الكمال ٧٠/١٦ - ٨٠.

الدليل الثالث فعل عمر وضربه النواحة:

عن عمر عندما سمع النياحة بالمدينة ليلاً فأتى عليها فدخل ففرق النساء فأدرك النائحة فجعل يضربها بالدرّة، فوقع خمارها فقالوا: شعرها يا أميراً، فقال أجل فلا حرمة لها^(١).

وفيه أولاً:

ضعيف السند بجماعة منهم إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى غير موثق، وأحاديثه منكروه لا أصل لها كذاب ولا ثقة في دينه. هذا ما قاله مالك فيه وأما قول أحمد بن حنبل فيه: كل بلاء فيه، أحاديثه: منكروه لا أصل لها^(٢).

ثانياً: من المستبعد جداً هجوم عمر واقتحامه داراً فيها النساء غير المحرم^(٣)، ثم كشفه عن حجاب امرأة بحيث يبدو شعرها، ثم قوله: إنها لا حرمة لها أي أنها غير مسلمة وخارجة عن الإسلام!

ثالثاً: على فرض ثبوت هذا الأمر من عمر فهل فعله حجة؟ طالما أمر النبي ﷺ بالنياحة والبكاء على الميت، إضافة أن عمر لم يدع العصمة، فيمكن أن يخطأ.

ورابعاً: مما يؤكد على أن موقف الخليفة لا يعكس سنة الرسول وفعله ﷺ له، وفي حديث آخر قال ﷺ لعمر: «يا عمر دعهن» وقول عائشة: رحم الله عمر إنه نسي أو أخطأ^(٤).

(١) كنز العمال ١٥ / ٧٣١.

(٢) تهذيب الكمال ١ / ٤٢٠.

(٣) تهذيب الكمال: ١ / ٤٢٠..

(٤) مسند أحمد ٣ / ٣٣٣، المجموع للنووي ٣٠٨٥.

ونكتفي بهذا المقدار من المناقشة وفيها كفاية لمن له أذن صاغية.

— أدلة المجوزين عقد المآتم والمراسم والبكاء

لدينا نصوص وروايات من النبي الكريم ﷺ ومن الصحابة والتابعين أنهم كانوا يبكون على الموتى والشهداء، ويفسحون المجال لإقامة المآتم والمراسم، ويشجعون على ذلك ونصوص تدل على أن عائشة كانت تلطم وجهها في مصيبة وفاة رسول الله ﷺ ومآتم عظيمة أقيمت حداداً على مصيبة بعض الشخصيات من المحدثين وغيرهم.

وفيما يلي أدلة جواز عقد المآتم والمراسم والبكاء:

* الأول: النبي يشجع على البكاء وفيما يلي بعض النصوص:

١- عن أسامة بن زيد عن بنت النبي ﷺ، قال: إن ابناً لبنت رسول الله قد قبض فأرسلت إلى رسول الله ﷺ ليأتيها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال، فرفع رسول الله ﷺ الصبي الميت ونفسه تقفع ففاضت عيناه ﷺ، فقال سعد يا رسول الله ﷺ ما هذا البكاء؟ قال ﷺ: «رحمة يجعلها في قلوب عباده، إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

٢- عن أحمد بن حنبل قال: رجع رسول الله ﷺ من أحد فجعلت نساء الأنصار يبكين على من قُتل من أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ ولكن حمزة لا بواكي له، قال ثم نام فانتبه وهن يبكين حمزة، قال ﷺ: «فهن اليوم إذا بكين يندبن حمزة»^(٢).

(١) انظر سنن النسائي: ٢٢/٤.

(٢) الاستيعاب: ٢٧٥/١.

٣- وعن البلاذري قال: قال النبي ﷺ: حينما أراد أن يخرج من بيت جعفر الطيار بعد أن عزى أسماء بنت عميس بفقد زوجها جعفر: على مثل جعفر فلتبك البواكي^(١).

٤- وعن الحاكم: خرج رسول الله على جنازة ومعه عمر بن الخطاب فسمع نساء يبكين فزبرهن عمر، فقال رسول الله ﷺ: يا عمر دعهن فإن العين دامعة والنفس مصابة والعهد قريب^(٢).

ويفهم من هذا النص أن القول بحرمة البكاء على الميت سنة عمرية وليست نبوية وأن عمر هو الذي منع عن البكاء على الميت رغم موقف النبي الكريم منه.

* الثاني: السيرة العملية للنبي الكريم ﷺ

يحدثنا التاريخ والسيرة عن بكاء النبي ﷺ على إبراهيم وعبد المطلب وأبي طالب وحمزة الشهيد والحسين سيد شباب أهل الجنة ﷺ وفاطمة بنت أسد، وأمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ وعثمان بن مظعون وسعد بن ربيع و.....و.....

١- بكائه على ابنة إبراهيم (بكى عليه، فسئل عن ذلك، فقال: «تدمع العينان ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»)^(٣).

٢- بكائه على عبد المطلب: قالت أم أيمن أنا رأيت رسول الله يمشي تحت سريره وهو يبكي^(٤).

(١) أنساب الأشراف: ص ٤٢.

(٢) المستدرک علی الصحیحین: ٣٨١/١، سنن النسائي ١٩/٤، مسند أحمد: ٣٢٢٣.

(٣) المقدم الفريد: ١٩/٣.

(٤) تذكرة الخواص: ص ٧.

٣- بكاهه على أبي طالب عن علي عليه السلام أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله بموت أبي طالب عليه السلام فبكى ثم قال: «أذهب فأغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه»^(١).

٤- بكاهه على حمزة بن عبد المطلب: لما رأى النبي حمزة قتيلاً بكى فلما رأى ما مثل به شهق^(٢).

٥- بكاء النبي على فاطمة بنت أسد: صلى عليها وتمرغ في قبرها وبكى^(٣).

٦- بكاهه على أمه آمنة: زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله^(٤).

٧- بكاء النبي على عثمان بن مظعون إن النبي قبل عثمان بن مظعون وهو ميت وهو يبكي^(٥).

٨- بكاء النبي صلى الله عليه وآله على سعد بن ربيع شهيد أحد، قال جابر بن عبد الله: لما قُتل سعد بن ربيع بأحد رجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ثم مضى إلى حمراء الأسد وكانت امرأة سعد امرأة حازمة، صنعت طعاماً - خبزاً ولحماً - ثم دعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهي يومئذ بالأسواف موضع بناحية البقيع فانصرفنا إلى النبي صلى الله عليه وآله من الصبح فبينما نحن عنده جلوس ونحن نذكر وقعة أحد ومن قُتل من المسلمين.

(١) الطبقات الكبرى: ١٠٥/١.

(٢) السيرة الحلبية: ٢٤٧/٣.

(٣) ذخائر العقبين: ص ٥٦، تاريخ المدينة: ١١٨/١.

(٤) المستدرک علی الصحیحین: ٣٥٧/١، تاريخ المدينة: ١١٨/١.

(٥) المستدرک علی الصحیحین: ٣٦١/١، والسنن الكبرى: ٤٠٧/٣.

ونذكر سعد بن ربيع، قال رسول الله ﷺ قوموا بنا فقمنا معه ونحن عشرون رجلاً حتى انتهينا إلى الأسواف، فدخل رسول الله ودخلنا معه بيت سعد فجلسنا ورسول الله يحدثنا عن سعد بن ربيع، ويترحم عليه ويقول: «لقد رأيت الأسنة شرعت إليه يومئذ حتى قتل». فلما سمع ذلك النسوة، بكين فدمعت عينا رسول الله، وما نهاهن عن شيء^(١).

الثالث: سيرة الصحابة والتابعين، وفيما يلي بعض النصوص:

١- بكاء عائشة: عن عباد، قال سمعتُ عائشة تقول مات رسول الله ﷺ، ثم وضعتُ رأسه على وسادة وُقمتُ أضرب صدري مع النساء وأضرب وجهي^(٢).

٢- بكاء ابن مسعود: فوقف ابن مسعود على قبر عمر - يبكي ويطرح رداه^(٣).

٣- بكاء عمر بن الخطاب: عن عثمان: أتيتُ عمر بنعي النعمان بن مقرن، فجعل يده على رأسه وجعل يبكي^(٤).

٤- بكاء نساء بني سفيان: عن الحسن البصري: قُتل مع الحسين ستة عشر من أهل بيته وحَمَل أهل الشام بنات رسول الله سبايا على أحقاب الإبل، فلما أدخلنا على يزيد، قالت فاطمة بنت الحسين ﷺ: يا يزيد أبنات رسول الله ﷺ سبايا! قال: بل حرائر كرام، أدخلني على بنات عمك

(١) السيرة النبوية: ٣٠٥/٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) العقد الفريد: ١٩٥/٣.

(٤) المصدر نفسه.

تجديهن قد فعلن ما فعلت، قال فاطمة فدخلت إليهن فما وجدت فيهن سفينية إلا ضاربت صدرها النياحة ثم بكت^(١).

٥- بكاء أهل مكة على رسول الله ﷺ: عن سعيد بن المسيب قال لما قبض رسول الله ارتجت مكة بالبكاء^(٢).

٦- بكاء أهل المدينة على الحسين عليه السلام: لما قتل غييد الله بن زياد الحسين بن علي (عليه السلام) وجيء برأسه إليه ارتجت المدينة بالبكاء وغلقت الأبواب^(٣)، وإلى غيرها من النصوص.

* إقامة المسيرات العزائية والحداد وضرب الطبول، وفيما يلي بعض النصوص:

١- ضرب الطبول في عزاء الشيخ أبي يعلى عبد المؤمن بن خلف أحد فقهاء بغداد: ذكر ذلك النسفي في سيرة أعلام النبلاء^(٤).

٢- نياحة عام على الجويني من بداية وفاته عام ٤٧٨ هـ. قال الذهبي: كان الحداد على الجويني من قبل تلامذته عاماً^(٥).

٣- شهر واحد حداد على ابن الجوزي المتوفي عام ٥٩٧ هـ. ويقول عنه الذهبي في موته غلقت الأسواق وحزن عليه خلق عظيم واستمر الحداد لشهر واحد^(٦)، وغيرها من النصوص.

(١) العقد الفريد: ٣٨٤/٤.

(٢) أخبار مكة للفكهي: ٨٠/٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٤٦/٣.

(٤) سيرة أعلام النبلاء: ٤٨٠/١٥.

(٥) تاريخ بغداد: ٩٣، وفيات الأعيان: ١٤٩/٣، سيرة أعلام النبلاء: ٤٦٧/١٨.

(٦) طبقات الشافعية: ١٨٤/٥.

والمتحصل من هذه النصوص والشواهد التاريخية أن إقامة المآتم
والمراسم والنوح والبكاء وقراءة الأشعار في مناسبات الموت والجزع
واللطم على الوجه والصدر وضرب الطبول وغلق الأسواق جائز شرعاً
وعرفاً.

الفصل الثامن التبرك بالقبور

- ١ - رأي الوهابية
- ٢ - مناقشة الفكرة
- ٣ - تبرك الصحابة بالقبور
- ٤ - رأي فقهاء المسلمين في التبرك
- ٥ - التبرك بأثار النبي ﷺ.
- ٦ - التبرك بالآثار
- ٧ - رواية في تقبيل القبر
- ٨ - قبور وجنائز يتبرك بها

الفصل الثامن

في التبرك بالقبور

• رأي الوهابية:

يرى ابن تيمية وابن عبد الوهاب حرمة التبرك والتمرغ بالقبور الشريفة وتقييلها، منها قبور الأنبياء وكفروا المسلمين ورموهم بالشرك وسموهم القبوريين وعباد القبور، وأنه كفعل الجاهلية بالأصنام والأوثان^(١).

• مناقشة الفكرة والجواب عليها يقع من وجوه:

الأول: لو لم ينصص الشرع على جوازه ولكنه راجح شرعاً لأنه من تعظيم الشعائر. أما قبور غير الأنبياء فسيأتي البحث عنها، وأما قبور الأنبياء فلأن لهم حرمة وشأناً ولا تزول حرمتهم بالموت والتأمل.

قال الإمام مالك للمنصور: حرمة النبي ميتاً كحرمة حيّاً^(٢). فالنبي والأولياء لا تزول حرمتهم بالموت.

الثاني: إذا كان التعظيم يُعدّ عبادة وهو حرام واحترام القبور وتقييلها تُعدّ عبادة وهي شرك لكان تعظيم الكعبة والطواف بها شركاً، وكذلك تعظيم الحجر الأسود وتقييله، وحجر إسماعيل ومقام إبراهيم، والمساجد

(١) راجع رسالة زيارة القبور: ص ١٥٣، الهدية السنية ص ٣٧.

(٢) كشف الارتباب: ص ٣٤٣.

والمشاعر، وتعظيم الأبوين، وخفض جناح الذل لهما، وسجود الملائكة لأدم وسجود إخوة يوسف وأبويه له وتعظيم الصحابة للنبي ﷺ والخلفاء للنبي وتعظيم الوهابين لأمرائهم والجنود لأمرائهم.

ثالثاً: إن فعل الصحابة والصلحاء أيضاً يخالف رأي الوهابية بحرمة مس القبر وتقبيله والتبرك بترابه.

وإليك بعض الشواهد.

١- تبرك فاطمة عليها السلام بتراب قبر النبي ﷺ: عن علي عليه السلام: (لما رمس رسول الله ﷺ جاءت فاطمة فوفقت على قبره عليه السلام وأخذت قبضة من تراب القبر ووضعت على عينها وبكت وأنشأت تقول^(١):

ماذا على من شمّ تربة أحمدٍ أن لا يشمّ مدى الزمان غواليها
صُبتْ عليّ مصائب لو أتتها صُبت على الأيام صِرن لياليا

٢- تبرك أبو أيوب الأنصاري بقبر النبي ﷺ حيث وضع وجهه على القبر الشريف وقبّله^(٢).

٣- تبرك بلال بقبر النبي ﷺ: أتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه^(٣).

٤- تبرك عطاء بن أبي رباح شيخ الإسلام مفتي الحرم: عن ابن الزبير

(١) راجع إرشاد الساري: ٣٥٢/٣، وفاء الوفا: ١٠٤/٤، والسيرة النبوية: ٣٤٠/٢، المواهب اللدنية ٤٠٠/٣.

(٢) مستدرک الحاكم: ٥٦٠/٤، وفاء الوفا: ١٤٠٤/٤، وشرح الشفاء ١٩٩/٢.

(٣) سيرة أعلام النبلاء: ٣٥٨/١، وأسد الغابة: ٢٠٨/١، شفاء السقام، ص: ٣٩.

قال: حدثنا مالك قال رأيت عطاء دخل المسجد النبوي وأخذ برمانة المنبر، ثم استقبل القبلة ثم قبل تراب القبر^(١).

٥- تبرك بن عبد الله: كان يضع يده اليمنى على القبر الشريف وأن بلالاً وضع خده عليه أيضاً^(٢)، وغيرها من الشواهد.

الرابع: فتاوى فقهاء المسلمين في التبرك بالقبور والتمسح بها.

وهذه بعض الفتاوى في التبرك والتمسح بالقبور:

١- فتوى ابن حنبل: عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال سألت أبي عن الرجل يمسه منبر رسول الله ﷺ ويتبرك بمسه ويُقبّله ويفعل بالقبور مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى؟ قال: لا بأس به^(٣).

٢- فتوى الرملي الشافعي: (إن كان قبر نبي أو ولي أو عالم واستلمه أو قبله بقصد التبرك فلا بأس به)^(٤).

٣- فتوى مُحِب الدين الطبري الشافعي: (يجوز تقبيل القبر ومسه وعليه عمل العلماء الصالحين)^(٥).

٤- فتوى الزرقاني المالكي: (تقبيل القبر الشريف مكروه إلا لقصد التبرك فلا كراهة)^(٦).

(١) سيرة أعلام النبلاء: ٥٤/٨.

(٢) وفاه الوفا: ١٤٠٥/٤.

(٣) وفاه الوفا: ١٤١٤/٤.

(٤) في حاشية المواهب اللدنية وفي كنز المطالب للحمزاوي: ص ٢١٩.

(٥) وفاه الوفا: ١٤٠٧/٤، وأسنن المطالب: ٣٣١/١.

(٦) شرح المواهب: ٣١٥/٨.

٥- فتوى شهاب الدين الخفاجي الحنفي، قال: قال أحمد بن حنبل والطبري: لا بأس بتقبيله والتزامه^(١).

٦- فتوى الغزالي: وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض^(٢).

٧- فتوى ابن حجر: هل يجوز تقبيل الحجر الأسود وكل من يستحق التعظيم من آدمي وغيره...^(٣).

٨- وأما من طرق أهل البيت عليهم السلام فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: (وإذا فرغت من الدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وآله فأت المنبر فامسحه بيدك وخذ برمانيته وامسح عينيك ووجهك به إنه شفاء للعين^(٤)).

الخامس: التبرك بأثار النبي صلى الله عليه وآله:

منها:

١- التبرك بالنقود والذهب الذي مسه النبي صلى الله عليه وآله، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وهو يتبرك بذهب أعطاه النبي صلى الله عليه وآله إليه^(٥).

٢- بعض النساء تتبرك بالقلادة: عن بعض النساء اللاتي خرجن مع رسول الله إلى خيبر فأعطاهن النبي صلى الله عليه وآله سهماً من الغنائم ولبعضهن قلادة ووضعها في عنقي، فقالت: والله لا تفارقني أبداً وأوصيت أنها تدفن معها^(٦).

(١) شرح الشفا: ١٧١/٣، وفاء الوفا: ١٤٠٤/٤.

(٢) إحياء العلوم: ٢٥٨/١.

(٣) شرح الفقه الشافعي، ٢٧٧١.

(٤) وسائل الشيعة: ٢٧٠/١٠، باب ٧، ح ١.

(٥) مسند أحمد: ٣١٤/٣، وسنن النسائي: ٢٨٩٧.

(٦) السيرة الحلبية: ٧٧٠/٢.

٣- عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل^(١).

٤- إن سهل بن سعد يحدث من حوله: إن النبي ﷺ حينما جلس هو وأصحابه في سقيفة بني ساعدة وطلب من سهل أن يسقيه ماءً يقول: فأخرجت لهم هذا القدح فأسقيتهم فيه، فأخرج يقول الراوي لنا سهل ذلك القدح فشرينا منه، قال: ثم استوبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. قال البخاري: رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت منه^(٢).

٥- الاستشفاء بجبة النبي ﷺ عن صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر... هذه جبة رسول الله فأخرجت إليّ جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت أخذتها وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها^(٣).

السادس: التبرك بالآثار: إن سيرة المسلمين قديماً وحديثاً جارية على التبرك بمنبر رسول الله ﷺ وموضع صلواته وموضع قدمه والتبرك بما مسه النبي الكريم من الأشياء والتبرك بالمنبر وأعواده، والتبرك بتراب المدينة، خصوصاً تراب قبر سيدنا حمزة رضي الله عنه، وقد ذكر الشيخ أحمد بن عبد الحميد وهو من أعلام القرن العاشر تبرك الناس بأعواد منبر النبي ﷺ^(٤).

وإليك بعض النماذج في ذلك:

(١) البخاري: ٣٥/٣، وتاريخ الطبري: ٢٧٥/٣.

(٢) فتح الباري: ص ١٠١ - ١٠٣.

(٣) راجع صحيح مسلم: ٣١٤/٣، كتاب اللباس.

(٤) راجع عمدة الأخبار: ص ١٣٥، الآثار النبوية: ص ٣١.

١- التبرك بالتبرك بالمنبر: ذكر البخاري في صحيحه ٢٤٣/٣ والعاقولي في كتاب التبرك ص ١٣٩ للعلامة الأحمدي قال: إن الناس تبركوا بمنبر النبي ورماتته.

٢- ذكر الشيخ أحمد بن عبد الحميد وهو من أعلام القرن العاشر: تبرك الناس بأعواد منبر النبي (عمدة الأختيار ص ١٣٥).

٣- قال السمهودي في كتابه وفاء الوفاء ٣٩ / ٢ يتبرك الناس بمنبر النبي ويمسحون أيديهم بالمنبر، وغيرها من النماذج (راجع الآثار النبوية، ص: ٣١، الطبقات الكبرى: ١٣/١، سيرة أعلام النبلاء ٢٨٩/١).

* رواية في تقبيل القبر:

روى في كشف الارتباب عن كفاية الشعبي وفتاوى الغرائب ومطالب المؤمنين وخزانة الرواية ما هذا لفظه:

لا بأس بتقبيل قبر الوالدين، لأن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنني حلفت أن أقبل عتبة باب الجنة وجبهة حور العين، فأمره أن يقتل رجل أمه وجبهة أبيه. قال: يا رسول الله إن لم يكن أبواي حين؟ قال قبل قبرهما، قال: فإن لم أعرف قبرهما؟ قال خط خطين انو أحدهما قبر الأم والآخر قبر الأب فقبلهما فلا تحث في يمينك^(١).

* قبور وجنائز يتبرك بها

إن سيرة المسلمين هي التبرك بتراب قبور الصحابة والتابعين، فمنها ما يلي:

(١) كشف الارتباب: ٣٥٠.

- ١- قبر سعد بن معاذ: إن أحداً أخذ من تراب قبر سعد وتبرك به^(١).
- ٢- قبر أحمد بن حنبل: قبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به^(٢).
- ٣- قبر معروف الكرخي قال ابن الجوزي قبره ظاهر يتبرك به ببغداد^(٣).
- ٤- تبرك الناس بتراب قبر البخاري (راجع ما كتبه السبكي عن وفاة البخاري ودفنه في طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٣، وسيرة أعلام النبلاء ١٢/ ٤٦٦).
- إذ قال يتبرك الناس بتراب قبر البخاري.
- ٥- أتباع بن تيمية يتبركون بجنازته: لقد تبرك أتباعه بجنازته وشربوا ماء غسله للتبرك، مما يثير السؤال التالي: هل أن أتباعه كانوا مشركين وأهل بدعه طالما يرى التبرك شركاً وبدعة، أو أن جواز التبرك والتمسح أمر ارتكازي لدى المسلمين وأن الفتوى بحرمته تعد فتوى على خلاف المرتكز وقولاً بغير ما أنزل الله^(٤)؟

(١) الطبقات الكبرى ١٠/٣، سيرة أعلام النبلاء ٢٨٩/١.

(٢) مختصر طبقات حنابلة ١٤.

(٣) صفوة الصفوة ٢/ ٣٢٤.

(٤) أنظر البداية والنهاية ١٤/ ١٣٦، الكنى والألقاب ١/ ٢٣٧.

الفصل التاسع

زيارة القبور

- ١- رأي ابن تيمية وأتباعه في زيارة قبر النبي ﷺ
- ٢- مناقشة الفكرة
- ٣- الأحاديث والزيارة
- ٤- سيرة الصحابة في الزيارة
- ٥- مناقشة حديث شد الرحال
- ٦- موقف علماء المسلمين من مزاعم ابن تيمية
- ٧- الأحاديث في زيارة القبور
- ٨- فعل النبي ﷺ والصحابة والتابعين
- ٩- رأي الفقهاء في زيارة القبور

الفصل التاسع

زيارة القبور

• زيارة قبر النبي ﷺ

منع ابن تيمية زيارة قبر النبي ﷺ وحرمها مطلقاً مع شد الرحال أو بدونه، فضلاً عن زيارة قبر غيره، حكى ذلك عنه القسطلاني^(١) وابن حجر في الجوهر المنظم^(٢)، وقال: بل زعم حرمة السفر إليها إجماعاً وأنه لا تقصر فيه الصلاة.

• مناقشة الفكرة:

إنّ الزيارة أمر مشروع بالأدلة الأربعة:

أما الكتاب العزيز: فقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٣).

فإنّ الزيارة هي الحضور الذي هو عبارة عن المجيء إليه سواء أكان لطلب الاستغفار أم بدونه.

(١) إرشاد الساري ٣٢٩/٢.

(٢) كشف الإرتياب ص ٤٥٩.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٤.

وإذا ثبت رجحان ذلك في حياته، ثبت بعد مماته، أيضاً على من يسلم عليه وعرض الأعمال عليه ﷺ.

١- فعن القسطلاني: ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فكذلك يشهد عليهم^(١).

٢- وحكاية الأعرابي أيضاً تدل على الحياة البرزخية لرسول الله ﷺ فعن ابن عساكر عن محمد بن حرب قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبي ﷺ فزرتة وجلست بحذائه فجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر قد غفر لك^(٢) وقد نقلها السمهودي بطريقتين عن علي بن أبي طالب عليه السلام وقد استدلل المراغي بهذه الآية على مشروعية زيارة النبي ﷺ وأنها قربة.

أما السنة: فقد وردت أحاديث كثيرة وبطرق عديدة على اختلاف مضامينها وفيما يلي نماذج منها:

الحديث الأول: عن النبي ﷺ قال: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»^(٣).

ولهذا الحديث أربعون مصدراً من كتب العامة ومنها كنز العمال، ١/١٥/٦٥١، ومختصر تاريخ دمشق، ٤٠٥/٢، وغيرهما.

الحديث الثاني: عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من حج فزار قبري

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ٤١٠/٣.

(٢) وفاء الوفا، ١٣٢٦٤ كنوز الحقائق، ١٠٨/٢، المواهب اللدنية، ٤٠٥/٣، نيل الأوطار، ١٠٨/٥.

(٣) سنن الدار قطني، ٢٧٨/٢، السنن الكبرى، ٢٤٥/٥.

بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي»^(١)، ولهذا الحديث خمسة وعشرون مصدراً من كتب العامة، منها المواهب اللدنية للقسطلاني، وفاء الوفا للسمهودي، والبيهقي في السنن، وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرهم. الحديث الثالث: عن النبي ﷺ قال: «لا عذر لمن كان له سعة من أمتي ولم يزرنني»^(٢).

• سيرة الصحابة في الزيارة:

- ١- إنَّ بن الخطاب لما قدم المدينة من فتوح الشام، كان أول ما بدأ بالمسجد، سلّم على رسول الله ﷺ^(٣).
- ٢- إن ابن عمر كان يقف على قبر النبي، فيقول: السلام عليك يا رسول الله ثم يصلي على النبي ﷺ^(٤).
- ٣- عن أبي حنيفة، عن ابن عمر قال: من السنة أن تأتي قبر النبي ﷺ من قبَل القبلة وتجعل ظهرك إلى القبلة، وتستقبل القبر بوجهك ثم تقول السلام عليك يا نبي الله^(٥).

وأما العقل: فإنَّ العقل يحكم بحسن تعظيم من عظمه الله تعالى والزيارة نوع من التعظيم والنتيجة أن تعظيمه ﷺ بالزيارة تعظيم لشعائر الله

(١) المعجم الكبير ٣١٠/١٢، سنن الدار قطني ٢٧٨/٢، المواهب اللدنية: ٥٧١/٤، وفاء الوفا، ١٣٤٢/٤، مختصر تاريخ دمشق، ٤٠٦٢.

(٢) وفاء الوفا ١٣٤٠/٤.

(٣) شفاء السقام ص ٤٤.

(٤) وفاء الوفا ١٣٤٠/٤.

(٥) الغدير: للعلامة الأميني ١٠٩٧٥، أنظر ما نقله العلامة الأميني في أحوال العلماء المسلمين استحباب

زيارة قبر النبي ﷺ.

وإرغام لأنوف أعدائه ومخالفيه.

* مناقشة حديث شد الرحال

حاول ابن تيمية التشنيع على الإمامية بأنهم: يحجون إلى المشاهد كما يحج الحاج إلى البيت العتيق كأن زيارة المشاهد خاصة بالإمامية دون سائر المذاهب الأخرى:

وابن عبد الوهاب: يزعم حرمة شد الرحال إلى المشاهد المشرفة وإلى قبر النبي ﷺ وحرمة السفر بالقصد إلى هذه المشاهد استناداً لحديث شد الرحال: «لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد الأقصى»^(١).

* مناقشة حديث شد الرحال: وتقع المناقشة من وجوه.

الأول: إن الحصر هنا إضافي لا حقيقي يعني بالنسبة إلى سائر المساجد لا يشد الرحال إلا إلى هذه المساجد، وذلك لأن المستثنى منه لم يذكر، فكما يحتمل تقدير المكان والموضع في المستثنى منه كذلك يمكن تقدير المسجد فيكون معنى الرواية لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد، إلا إلى هذه الثلاثة، وهذا التقدير هو المتعين لأنه المتبادر والظاهر من الحديث عرفاً. وعليه فلا ربط للحديث بحرمة شد الرحال إلى المشاهد والمقابر.

الثاني: إن الإجماع والاتفاق على جواز السفر وشد الرحال إلى أي مكان كان للتجارة أو طلب العلم، أو الجهاد، أو الزيارة أو النزهة أو القبور، أو غير ذلك، وستأتي قريباً أقوال العلماء بالزيارة.

(١) صحيح البخاري ١٣٧٢، إحياء العلوم للغزالي ٢٤٧/٢.

الثالث: إن مضمون هذا الحديث غير معمول به حتى على فرض جعل المستثنى منه المسجد، إذ معناه حينئذ عدم جواز شد الرحال إلى أي مسجد إلا هذه المساجد الثلاثة وأما غيرها من المساجد فلا يجوز السفر إليها.

والحال: إن النصوص تصرح بأن النبي ﷺ والصحابة كانوا يذهبون كل سبت إلى مسجد قبا مع أن قبا ليس من المساجد الثلاثة فلا بد من الالتزام بحرمة الذهاب إليها مع أنه لم يتفوه به مسلم. فعن ابن عمر: (كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً)^(١).

الرابع: إن بلالاً شد الرحال من الشام إلى زيارة قبر النبي ﷺ.

روى ابن عساکر قال: إن بلالاً في الشام رأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال، أما أن لك أن تزورني يا بلال. فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه^(٢).

• موقف العلماء من مزاعم ابن تيمية

١- قال القسطلاني: قول ابن تيمية حيث منع زيارة قبر النبي ﷺ وهو من أبشع المسائل المنقولة عنه^(٣).

٢- العزامي الشافعي: ولقد تعدى ابن تيمية حتى على الجناب المحمدي فقال: إن شد الرحال إلى زيارته معصية^(٤).

(١) إرشاد الساري ٣٢٢/٢، صحيح البخاري ١٣٧/٢.

(٢) أسد الغابة ٢٠٨/١، تهذيب المطالب: ٤٠٨٢.

(٣) إرشاد الساري ٣٢٩/٢.

(٤) فرقان القرآن ١٣٣.

٣- قال الغزالي: كل من تبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد موته ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قول ابن تيمية لا تشد الرحال إلا على ثلاثة مساجد، وغيرهم من العلماء الذين أظهروا قبائح أوهام ابن تيمية وغلطاته^(١).

والحاصل أن الأحاديث التي أوردها الحفاظ والمحدثون من السنة البالغة درجة التواتر وكذلك فعل الصحابة وزيارة بلال قبر النبي ﷺ وشد الرحال إلى الزيارة بمرأى وسمع الصحابة وعدم اعتراضهم عليه وكذلك دعوة عمر بن الخطاب كعب الأخبار لزيارة قبر النبي ﷺ وعدم اعتراض الصحابة في ذلك. تُعد أقوى حجة وأسمى دليل على جواز شد الرحال إلى المشاهد المشرفة سيما قبر رسول الله ﷺ بل تدل على الرجحان والاستحباب إذ في بعضها ورد الأمر بالزيارة وهو للنذب عند الجمهور وللوجوب عند ابن حزم، ولو مرة واحدة في العمر^(٢).

* الأحاديث في زيارة القبور

- ١- سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ «نهيتكم عن زيارة القبور: ألا فزوروها»^(٣)، قال الشيخ منصور: فزوروها والأمر للنذب عند الجمهور وللوجوب عند ابن حزم ولو مرة واحدة في العمر (أنظر التاج الجامع، ١/٣٨١).
- ٢- عن النبي ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»^(٤).

(١) فرقان القرآن: ١٣٣، المواهب اللدنية: (٣٠٤/٣)، إحياء العلوم للغزالي: (٢٨٥/١) وغيرها من المصادر.

(٢) التاج الجامع للأصول: ٢/٣٨٢.

(٣) صحيح مسلم ٦٥/٣، سنن النسائي ٨٩/٤، مستدرک الحاكم ٥٣٠/١.

(٤) - التاج الجامع للأصول ٢/٣٨١، جامع الأصول ١١/٤٣٨.

٣- عن ابن مسعود عن النبي ﷺ «ألا فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»^(١).

٤- عن عائشة عن النبي ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي»^(٢).

٥- عن أنس عن النبي ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الموت»^(٣).

٦- عن عائشة عن النبي ﷺ «إن جبرائيل أتاني.... فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم»^(٤).

* فعل النبي ﷺ والصحابة والتابعين

١- عن ابن هريرة قال: زار النبي ﷺ أمه فبكى وأبكى من حوله ثم استغفر لها^(٥).

٢- عن أبي جعفر ﷺ قال: إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تزور قبر حمزة رضي الله تعالى عنه، وتصلحه وقد تعلمته بحجر^(٦).

٣- روى رزين عن أبي جعفر ﷺ قال: إن فاطمة كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة^(٧).

(١) سنن ابن ماجه: ٥٠١/١، مستدرک الحاكم ٥٣١/١.

(٢) مستد أحمد ٣٣٧/٢، أنظر موسوعة أطراف الحديث: (١٨١/١٠).

(٣) مستدرک الحاكم ٥٣١/١، سنن ابن ماجه: (٥٠١/١)، أخبار مکه: (٥٣٤).

(٤) السنن الكبرى ١٣٢/٤.

(٥) صحيح مسلم ٦٥/٣.

(٦) السنن الكبرى ١٣٦/٤، مستدرک الحاكم ٥٣٣/١.

(٧) المصادر نفسها.

٤- عن ابن أبي مليكة: رأيت عائشة تزور قبر أخيها عبد الرحمن ومات بالحُبشي وقبر بمكة^(١).

٥- عن ابن أبي مليكة قال: إن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها أليس كان رسول الله نهى عن زيارة القبور؟ قال: نعم كان نهى ثم أمر بزيارتها^(٢).

٦- عن علي ابن أبي طالب عليه السلام: إن فاطمة عليها السلام كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده.

* رأي الفقهاء في زيارة القبور

١- قال النووي: وبالجواز قطع الجمهور^(٣).

٢- وقال مالك عن زيارة القبور: لا بأس^(٤).

٣- قال السهودي: أجمع العلماء على استحباب زيارة القبور^(٥).

ويمكن أن تجد أقوالاً في زيارة القبور، منها قول في استحبابها ومنها قول في وجوبها ولو مرة في كل عام منها قول إذا رجعت إلى المصادر ومنها مصنف عبد الرزاق ٥٧٠/٣ - ٥٧٤.

(١) مصنف عبد الرزاق: (٥٧٢/٣).

(٢) السنن الكبرى: (١٣١/٤).

(٣) إرشاد الساري ٤٠٠/٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) السنن الكبرى ١٢٨/٤، مصنف عبد الرزاق ٥٧٢/٣.

خلاصة الفصل التاسع

تلخيص زيارة القبور

صرح ابن تيمية والوهابيون أن زيارة قبر النبي ﷺ وشد الرحال إلى المشاهد شرك، ومعه يهدر دمه وماله إن لم يتب (مجموعة فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٣٤٦).

* مناقشة الحديث والجواب عنه يقع من وجوه.

إن زيارة القبور أمر مشروع بالأدلة الأربعة.

الأول: الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. فإن الزيارة هي الحضور الذي هو عبارة عن المجيء إليه سواء كان لطلب الاستغفار أو بدونه وإذا ثبت رجحان ذلك في حياته ثبت بعد مماته أيضاً بالآية السابقة أولاً وثانياً لما دل على حياته البرزخية وشفاعته ورده السلام على من سلم عليه وعرض الأعمال عليه ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ وثالثاً من السنة الشريفة فعن القسطلاني قال: ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوا وعشية (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ج ٣ ص ٤١٠) وكذلك نقله السبكي في كتاب التريب في شرح التقريب / ٢٩٧).

ورابعاً: قصة الأعرابي عندما جاء لقبر رسول الله ﷺ وقال يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي ذنوبي فنودي من القبر قد غفر لك نقلها السهمودي في كتابه وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٤٢٦، والمواهب اللدنية ج ٣ ص ٤٠٥، وكنوز الحقائق ج ٢ ص ١٠٨ وغيرها.

الدليل الثاني من السنة الشريفة:

وردت أحاديث كثيرة وبطرق متعددة وعلى اختلاف مضامينها وفيما يلي نماذج منها:

١- «من زار قبري وجبت له شفاعتي» (السنن الكبرى الدارقطني ج ٢ ص ٢٧٨، وتاريخ الكامل ج ٦ ص ٣٥١، والسنن الكبرى ج ٥ ص ٢٤٥).

٢- «من جاءني زائراً لا تحمله إلا زيارتي كان حقاً أن أكون له شفيعاً يوم القيامة» (المعجم الكبير ج ٢ ص ٢٢٥، ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٤٠، وإحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٢٣١).

٣- «من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي» (سنن الدارقطني، ج ٢ ص ٢٧٨، والمعجم الكبير ج ٢ ص ٣١٠).

٤- «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني» (وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٤٠).

الدليل الثالث: من سيرة الصحابة وفعلهم ومنها:

١- عمر بن الخطاب لما قدم المدينة من فتوح الشام كان أول من بدأ به زار قبر النبي ﷺ (شفاء السقام ص ٤٤).

٢- إن عمر كان إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ ثم زاره وسلم عليه (وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٤٠).

٣- عن أبي حنيفة عن ابن عمر: من السنة أن تأتي قبر النبي ﷺ من قبل القبلة وتستقبل القبر بوجهك ثم تزوره وتسلم عليه (وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٤٠).

* مناقشة حديث شد الرحال

حاول ابن تيمية التشنيع على الإمامية بأنهم يحجون إلى المشاهد كما

يحج الحاج إلى بيت الله الحرام كأن زيارة المشاهد خاصة بالإمامية دون سائر المذاهب الإسلامية الأخرى وابن عبد الوهاب يزعم جرمه شد الرحال إلى المشاهد وإلى قبر النبي ﷺ بقوله: قال رسول الله ﷺ: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد الحرام ومسجدي والمسجد الأقصى»، فهو يرى حرمة السفر إلى زيارة القبور استناداً إلى هذا الحديث.

الجواب أولاً:

إن الحصر هنا إضافي لا حقيقي يعني بالنسبة إلى سائر المساجد لا يشد الرحال إلا إلى هذه المساجد وذلك لأن المستثنى منه لم يذكر، فكما يحتمل تقدير المكان والموضع في المستثنى منه يمكن تقدير المسجد فيكون معنى الرواية لا تشد الرحال إلا مسجد من المساجد إلا إلى هذه الثلاثة وهذا التقدير هو المتعين لأنه المتبادر والظاهر من الحديث عرفاً، وعليه فلا ربط للحديث بحرمة شد الرحال إلى المشاهد المشرفة والمقابر وأما إذا كان الاستثناء مفرغ منه والتقدير لا تشد الرحال إلا إلى موضع بمعنى منع السفر إلى كل موضع غيرها كزيارة قريب أو صاحب أو مؤمن أو طالب علم أو تجارة أو نزهة لأن المستثنى منه في المفرغ يقدر بالأعم لكن المراد بالعموم هنا الموضع المخصوص وهو المسجد (إرشاد الساري ج ٢ ص ٣٢٢) فلا يستفاد منه حرمة شد رحال إلى زيارة القبور والمشاهد المشرفة.

وثانياً: مما لا كلام فيه هو الإجماع والاتفاق على جواز السفر وشد الرحال إلى أي مكان كان للتجارة أو لزيارة العلماء أو طلب العلم أو الجهاد النزهة أو غير ذلك فلو كان المستثنى منه غير المسجد في الحديث بل المكان أو الموضع للزم عدم جواز شد الرحال إلى هذه الجهات المذكورة وهذا خلاف المتفق والمجموع عليه فلا بد من القول بأن المستثنى منه في

الحديث هو المسجد يعني لا يقصد بالسفر إلى المسجد إلا المساجد الثلاثة وحيث لا يدل الحديث لا ولا إشارة فيه على حرمة شد الرحال إلى المشاهد وخصوصاً قبر النبي ﷺ وزيارته.

ثالثاً: سيرة الرسول: أن مضمون هذا الحديث غير معمول به حتى على فرض جعل المستثنى منه المساجد الثلاثة وأما غيرها من المساجد فلا يجوز السفر إليها وهذا يخالف سيرة الرسول ﷺ والصحابة، فقد ذهب إلى مسجد قبا هذا وسند الحديث ضعيف وضعفه كثير من العلماء (راجع تهذيب التهذيب).

رابعاً: من سيرة الصحابة وفعلمهم ومنهم بلال الحبشي شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ (عن ابن عساکر والبخاري ج ٢ ص ١٣٧، وأسد الغابة ج ١ ص ١٠٨، وإرشاد الساري ج ٢ ص ٣٣٢).

خامساً: أقوال العلماء وموقفهم من مزاعم ابن تيمية وابن عبد الوهاب ومنها:

قال القسطلاني: قول ابن تيمية حيث منع زيارة قبر النبي ﷺ وهو أبشع المسائل المنقولة عنه (إرشاد الساري ج ٢ ص ٣٢٩).

الأسئلة:

- ١- تزعم الوهابية حرمة زيارة القبور فما هو دليلهم؟
- ٢- ما هي الأدلة التي يستدل بها على جواز زيارة القبور؟
- ٣- اذكر نموذجين من فعل الصحابة تؤيد جواز زيارة القبور.
- ٤- اذكر حديث شد الرحال، ثم ناقشة بالتفصيل.

الفصل العاشر

زيارة النساء للقبور

- ١ - رأي الوهابية
- ٢ - مناقشة الفكرة والحديث المروي
- ٣ - فاطمة الزهراء عليها السلام تزور قبر حمزة وقبر أبيها
- ٤ - عائشة تزور قبر أخيها
- ٥ - فتاوى علماء السنة على الجواز

الفصل العاشر

في زيارة النساء للقبور

• رأي الوهابية:

منع ابن تيمية والوهابيون زيارة النساء للقبور كما منع زيارة الرجال للقبور وحرماها مطلقاً حكى ذلك عنه القسطلاني في كتابه^(١)، واستدلوا على ذلك بما نقل عن النبي ﷺ، قال: «لمن الله زائرات القبور»^(٢).

• مناقشة الفكرة والحديث المروي:

والجواب عن الحديث المروي يقع من وجوه:

الأول: ففيه مضافاً إلى أنه منسوخ بحديث بريدة الصحيح كما صرح بذلك الحاكم والذهبي، أنه معارض بما روته عائشة عن النبي ﷺ: نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها^(٣).

الثاني: معارض بفعل عائشة أيضاً حيث كانت تزور قبر أخيها عبد

(١) إرشاد الساري: ٣٢٩/٢، وابن حجر في الجوهر المنظم (نقله كشف الارتباب: ٤٥٩). والشيخ

الطبي في كتابه روافد الإيمان ص ١٢٧.

(٢) رواه أصحاب السنن، غير البخاري ومسلم، أنظر مصنف عبد الرزاق: ٥٦٩/٣.

(٣) السنن الكبرى: ١٣١/٤، مستدرک الحاكم: ٣٧٤/١، وحديث عائشة هذا مصحح من الذهبي في

حاشية المستدرک وغيره.

الرحمن حيث توفي سنة ٥٣ للهجرة، فكانت تزور قبره^(١)، فهل كانت عائشة تريد مخالفة سنة رسول الله ﷺ فتستحق اللعن كما في هذا الحديث المذكور أعلاه.

الثالث: إنه مخالف لما ثبت عن فاطمة ؓ من زيارتها لقبر أبيها بعد دفنه وزيارة قبر حمزة والشهداء في أحد كل جمعة وهذا كان على عهد أبيها، ثم بعد أبيها إلى أن توفيت، ولم يرد نهى لها لا من النبي ولا من زوجها علي ؓ ولا من أي من الصحابة وهي أعرف بدين أبيها من غيرها، فزارت القبور مرّات عديدة، فكيف لم ينهها النبي ﷺ أو أي أحد آخر؟ فلو كانت زيارة القبور حرام لكانت أعرف بدين أبيها من غيرها.

وفي رواية علي ابن أبي طالب ؓ قال: كانت فاطمة ؓ تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده^(٢).

وفي رواية أخرى كانت فاطمة ؓ تزور قبور الشهداء بأحد بين الیومین والثلاثة فتصلي هناك وتدعو وتبكي^(٣)، فكيف لم يمنع النبي ﷺ فاطمة ؓ؟، وكذلك زارت قبر النبي ﷺ بعد وفاته، فعن علي ؓ لما رمس رسول الله ﷺ جاءت فاطمة ؓ فوقفت على قبره ﷺ وأخذت قبضة من تراب القبر ووضعت على عينها وبكت^(٤)، فكيف لم يعارضها ويمنعها علي ؓ؟

(١) وفيات الأعيان: ٦٩/٣.

(٢) السنن الكبرى: ١٣١/٤، مصنف عبد الرزاق: ٥٧٢/٣.

(٣) أنظر السنن الكبرى: ١٣١/٤.

(٤) راجع إرشاد الساري: ٣٥٢/٣.

وكيف لم يمنعها صحابي إن كانت زيارة النساء للقبور محرمة كما تقول الوهابية.

الرابع: إن فتاوى علماء السنة على الجواز وإليك نماذج منها:

١- فتوى القسطلاني: ولا يكره لهنّ زيارة قبر النبي ﷺ بل تندب^(١).

٢- فتوى أحمد بن حنبل: حينما سُئل عن المرأة تزور القبر فقال: لا بأس به^(٢).

٣- فتوى النووي بالجواز وقال بالجواز قطع الجمهور، وقال: وبالجملة فتستحب زيارة قبور المسلمين للرجال والنساء لحديث مسلم: (٦٥/٣) كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكرة الآخرة.

وتكره للنساء لجزعهن، وأما حديث أبي هريرة المروي عند الترمذي:

لعن الله زوارات القبور، فمحمول على ما إذا كانت زيارتهن للتعديد والبكاء والنوح على ما جرت به عاداتهن، وقال القرطبي، وحمل بعضهم حديث الترمذي في المنع على من تكثرت الزيارة لأن زوارات للمبالغة^(٣) والإنصاف: نقول فيه ما قلنا في حديث لعن الله زائرات القبور، راجع مناقشة الحديث ٣، صفحة: (٧٣) بالإضافة لضعفه عارض بالصحيح والكبيرة.

٤- فتوى الحافظ الألباني: فإنه أورد حديث (لعن رسول الله زائرات القبور) ثم قال: ضعيف ثم قال: لا بأس بزيارة النساء للقبور^(٤).

(١) إرشاد الساري: ٤٠٠/٣.

(٢) التمهيد في شرح الموطأ: ٢٣٤/٣.

(٣) إرشاد الساري ٤٠٠/٣.

(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السلب في الأمة: ٢٦٠.

٥- فتوى الترمذي: فلما رخص النبي ﷺ زيارة القبور دخل في رخصته الرجال والنساء: (الجامع الصحيح: ٣٧٢/٣).

الخامس: بحث في السند: إن رخصته لعن رسول الله زائرات القبور رواه أصحاب السنن النبوية وفعل الصحابة وفعلت عائشة عندما زارت قبر أخيها ولم يتفقوا على طريقة فأما البخاري ومسلك فلم يخرجوا الحديثين بالمرّة.

وفي السند عبد الرحمن بن بهمان ولم يحدث عنه سوى ابن خيثم، وقال ابن المديني: لا نعرفه^(١).

وفي سنده أيضاً أبو صالح وهو باذان: وقال أبو حاتم لا يحتج به، وقال النسائي ليس بثقة وقال ابن عدي: ولم أعلم أحداً من المتقدمين رضيه^(٢).

وفي سنده أيضاً عمر بن أبي سلمة، قال النسائي ليس بالقوي، وقال ابن خزيمة لا يحتج بحديثه وقال ابن معين: هو ضعيف^(٣)، أضف إلى ما أوردناه من المعارضات والإشكالات وكلام الفقهاء في شرح الحديث وفتاواهم في جواز بل استحباب زيارة القبور للنساء والرجال.

(١) انظر ميزان الاعتدال: ٥٥١/٢.

(٢) راجع تهذيب الكمال: ٧٤.

(٣) سيرة أعلام النبلاء: ١٣٣/٦.

الفصل الحادي عشر

الحلف بغير الله

- ١- دعوى الوهاية
- ٢- مناقشة الدعوى والحديث
- ٣- صدور الحلف من النبي ﷺ
- ٤- تقرير النبي ﷺ
- ٥- تقرير الصحابة وغيرهم
- ٦- موقف العلماء من ابن تيمية

الفصل الحادي عشر

الحلف بغير الله تعالى

• دعوى الوهابية:

لقد منعت الوهابية الحلف بغير الله وبعضهم جعله شركاً على الإطلاق وبعضهم جعله من الشرك الأصغر^(١) قال ابن تيمية: الشرك شركان أكبر وأصغر والأكبر له أنواع ومنه طلب الشفاعة من المخلوق والتوسل وغيره وأما الأصغر كالرياء والسمعة والجاه ومنه الحلف بغير الله لما روي عن ابن عمر: عن رسول الله ﷺ «من حلف بغير الله فقد أشرك» والشرك الأصغر لا يخرج عن الملة وتجب التوبة منه^(٢).

روى الترمذي: أن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة فقال لا تحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر»^(٣).

• مناقشة الحديث والدعوى: وتقع من وجوه.

الأول: سند الحديث ضعيف لأن في سنده سليمان بن حيان حيث قال فيه كل من ابن معين وأبن عدي إن سليمان ابن حيان ليس بحجه

(١) روافد الإيمان ص ١٩٧، تطهير الاعتقاد ص ٣٥.

(٢) رسائل الهدية ص ٢٥، تطهير الاعتقاد للصنعاني ينقل عنه صاحب كشف الارتباب ص ٣٣٥،

والطبي في كتابه روافد الإيمان ص ١٩٧.

(٣) إرشاد الساري ٣٨٥/٩، مسند أحمد ١٢٥/٣، موسوعة أطراف الحديث النبوي ٢٣٩/٨.

وسيء الحفظ وقال فيه البزاز كما في (مقدمة فتح الباري ج ١/ص ٤٠٥)،
وسيرة أعلام النبلاء ٣٠/٩.

اتفق أهل العلم بالنقل أنه لم يكن حافظاً^(١).

الثاني: وقع الحلف بغير الله من الله تعالى، ومن النبي ﷺ ومن الصحابة والتابعين ومن جميع المسلمين خلفاً عن سلف

أما من الله تعالى فمنه قوله تعالى: ﴿والعصر، والعاديات والنازعات، والناشطات، والمرسلات، والتين، والزيتون، والضحى، والسماء ذات البروج، والنجم إذا هوى، والفجر وليال عشر، والقلم، لا أقسم بيوم القيامة﴾ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ [الحجر ٧٢]، فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس.

إن قلت: إن جوازه من الله لا يستلزم جوازه من الناس.

قلت: إن صدوره من الله يدل على أنه

لا قبح فيه وإذا كان الله قد جعل لنفسه شريكاً وأشرك بالشرك الأصغر تعالى عن ذلك فما على من اقتدى به في ذلك بأس! لأن ما يقبح من العبد لكونه شركاً أصغر وتشبيهاً للخلق في العظمة بالله تعالى لا يمكن أن يحسن منه تعالى، إذ صدوره منه تعالى لا يخرج عن ذلك الصفة إن كانت وهي الشرك الأصغر!

الثالث: وأما صدور الحلف بغير الله من النبي ﷺ فقد ثبت بالنصوص الصحيحة، وإليك بعض النصوص:

(١) سيرة أعلام النبلاء: (٣٠/٩).

١- جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «أما وأبيك لتبنته، إن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء»^(١).

٢- جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليله وصيام شهر رمضان والزكاة، ومع كل واحد يقول: هل علي غيرها؟ وهو يقول لا، إلا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا انقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «أفلق وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق» (صحيح مسلم ج/٤، ص ٢٢٤٧، وهناك نماذج أخرى من الحلف راجع المصدر المذكور).

الرابع: تقرير النبي ﷺ.

قال أبو طالب عم النبي ﷺ ضمن آيات له:

كذبتم وبيت الله يبرى محمد ولما نطاعن دونه وناضل^(٢)

فسمع ذلك رسول الله ﷺ ولم ينكره ولو كان الحلف بغير الله شركاً

أو كفراً كما تقول الوهابية لأنكره ﷺ فلو منعه لكان وظهر

رابعاً: تقرير الصحابة وفعلهم:

١ - عبد الله بن جعفر الطيار حيث قال: إذا سألت عمي علياً عليه السلام شيئاً

ويمنعني، أقول له: بحق جعفر فيعطيني^(٣)، فلم ينكره عليه ولم يردعه، بل

يلبي دعوته، بعد هذا القسم.

(١) صحيح مسلم ٤١٩/٤.

(٢) إيمان أبي طالب ص ٣٣٩ منية الرابع في إيمان أبي طالب ص ١٢٢، شرح النهج لابن أبي الحديد

٧٩/١٤

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٧٣/١٥، الاستيعاب ٧٠ - ٨١

٢- قول أبي بكر للسارق الذي سرق حلي ابنته: (وأبيك ما ليالك بليل سارق)^(١).

٣- كتاب علي عليه السلام لمعاوية: ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك.

لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان (نهج البلاغة للشيخ محمد عبده، ص: ٥٢٦، ج: ٦)

٤ - وفي كتاب معاوية لعلي عليه السلام: فإن كنت أبا حسن إنما تحارب عن الإمارة والخلافة فلعمري لو صحت لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين^(٢).

٥- عبد الله بن عمر العنسي: وكان هذا من عبّاد أهل زمانه، لما سمع رواية عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وآله أن عماراً تقتله الفئة الباغية، خرج ليلاً فأصبح في عسكر علي عليه السلام وحدث الناس بقول عمرو بن العاص وأنشد:

والراقصات بركب عامدين له إن الذي جاء من عمرو لمأثور
ما في مقال رسول الله في رجل شك ولا في مقال الرسل تحبير^(٣)

٦- مسروق يحلف بقبر النبي صلى الله عليه وآله

عائشة: قال لها مسروق سألتك بصاحب هذا القبر، ما الذي سمعت

من رسول الله في حق الخوارج؟

(١) كشف الارتباب ص ٢٧١، إرشاد الساري ٣٥٧/٩.

(٢) كشف الارتباب ص ٣٣٩، روافد الإيمان للشيخ الطبسي ص ٢٠٠.

(٣) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٣٤٤.

قالت: سمعته عليه السلام يقول: إنهم شرُّ الخلق والخليفة يقتلهم خيرُ الخلق والخليفة وأقربهم عند الله وسيلة^(١).

فهنا نرى أن مسروق حلف بصاحب هذا القبر ولم تردعه عائشة فدل على جواز الحلف بغير الله تعالى

خاصاً: موقف العلماء من ابن تيمية في منعه الحلف بغير الله.

١- القسطلاني يحكي عن ابن عبد البر الذي يرد على مدعى ابن تيمية في أن الحلف بغير الله شرك فيقول ابن عبد البر: إن هذه اللفظة (شرك) منكرة وتردُّها الآثار الصحاح^(٢). أقول: بل يعضدها حديث: أما وأبيك لتنبئنه، فلو كان شركاً لما حلف بغير الله! ثم أضاف القسطلاني: وأحسن الأجوبة ما عن البيهقي وارتضاه النووي وغيره وقال إن اللفظ هو الحلف بغير الله كان يجري على السنة العرب بقولهم أفلح وأبيه ولا مانع منه وكانوا يقصدون به القسم.

٢- الإمام مالك يقول في الحلف بغير الله مكروه.

أقول: كل مكروه جائز إلا أن تركه أفضل على قول مالك.

٣- الإمام الشافعي يقول: أيضاً في الحلف بغير الله مكروه أقول: كل

مكروه جائز.

فنقول لابن تيمية ولأتباعه أين الشرك أو الكفر الذي جاء في دعواكم؟ فثبت أن الحلف بغير الله جائز، جاء به الكتاب والسنة وتقرير الصحابة والتابعين وسيرة المسلمين.

(١) البداية والنهاية ٣١٥/٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٢٦٧، بحار الأنوار ٣٣٩/٣٣.

(٢) إرشاد الساري ٣٥٧/٩.

الفصل الثاني عشر

في النذر لغير الله

١ - دعوى الوهابية في النذر لغير الله

٢- مناقشة الدعوى

٣- الروايات تؤكد جواز النذر لغير الله

٤- معنى النذر

٥- هل المشابهة توجب التكفير؟

٦- سيرة المسلمين في النذور.

٧- أقوال العلماء في النذر لغير الله.

الفصل الثاني عشر

النذر لغير الله

• رأي الوهابية:

ترى الوهابية حرمة النذر لغير الله وأن ذلك يشبه النذر للأوثان وأنه ينشأ من الغلو في المنذور له.

قال القصيمي أحد أتباع الوهابية: إنها من شعائر الشيعة الناشئة عن غلوهم في أئمتهم وتألبيهم لعلي وولده^(١).

وقال ابن تيمية: قال علماؤنا لا يجوز أن يُنذر لقبر ولا للمجاورين عند القبر شيئاً من الأشياء، لا من درهم ولا من زيت، ولا من شمع، ولا من حيوان، ولا من غير ذلك، كله نذر معصية، وقد ثبت في الصحيح من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه^(٢).

وقال: إذا كان الطلب من الموتى - ولو كانوا أنبياء - ممنوعاً خشية الشرك، فالنذر للقبور، أو لسكان القبور نذر حرام باطل يشبه النذر للأوثان. ومن اعتقد أن النذر للقبور نفعاً أو أجراً فهو ضال جاهل^(٣).

(١) النذير ١٨٠/٥، كتاب الصراع: ٥٤/١، روافد الإيمان ص ١٨٥.

(٢) كشف الارتباب ص ٣٥٥، رسالة زيارة القبور ص ١٥٠.

(٣) الملل والنحل ص ٢٩١.

والجواب: أولاً: المقصود بالنذر الصدقة وإهداء ثوابها إلى النبي أو الولي أو الصالح ولا يقصد التقرب إليه بالنذر بل إلى الله تعالى.

كيف يقصد التقرب إليه وهو يعلم أنه ميت لا يمكنه الانتفاع بالمنذور، لا يأكله إن كان طعاماً ولا يشربه إن كان شراباً ولا ينفقه إن كان مالا ولا يلبسه إن كان ثوباً. فالواجب عدم التسرع في التكفير والتهجم على المسلمين بفتاوى غير مدروسة بل يجب حمل فعل المسلم على الصحة، ويتبغي الحذر من التهجم مهما أمكن

ثانياً: إن هذا النذر لا يزيد على من نذر لأبيه وأمه أو حلف أو عاهد أن يتصدق عنهما وقد ورد لزوم الوفاء به كما روي عنه عليه السلام أنه قال لل بنت التي نذرت لأبيها عملاً: «في بنذك»^(١).

أما اختيار بعض الأمكنة فهو طلب لشرف المكان حتى يتضاعف ثواب العبادة، كما يختار بعض الأزمنة لبعض العبادات وهذا مما لا بأس به ويدل عليه بعض الروايات^(٢).

ثالثاً: الروايات والنذر:

١- روي عن ثابت بن الضحاك عن النبي صلى الله عليه وآله: أن رجلاً سأله أنه نذر أن يذبح ببوانه^(٣) فأتى رسول الله فأخبره فقال صلى الله عليه وآله: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا لا.

قال صلى الله عليه وآله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

(١) سنن أبي داود ٣٣١٢/٣.

(٢) راجع جامع الأحاديث - باب النذر.

(٣) هي هضبة قريبة من ساحل البحر (معجم البلدان ٣٠/٢).

قالوا: لا قال رسول الله ﷺ: أوف بندرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم^(١).

٣- عن ميمونة: أن أباها قال للنبي ﷺ: إني نذرت أن أذبح خمسين شاة على بوانه.

فقال هناك شيء من هذه النصب؟ فقال لا

قال ﷺ: فأوف بندرك فذبح تسعاً وأربعين وبقيت واحدة فجعل يعدو خلفها ويقول اللهم أوف بنذري حتى أمسكها فذبحها^(٢).

ولعل سؤاله ﷺ هل كان فيها نصب بمعنى وثن يعبد أو عيد من أعياد الجاهلية، خشية أن يكون النذر جارياً على عادة أهل الجاهلية لقرب العهد بهم.

* رابعاً: معنى النذر:

هو أن يلزم الإنسان نفسه بأداء شيء معين إذا تحقق هدفه وقضيت حاجته، فيقول: الله عليّ أن أفعل كذا وكذا وهذا هو النذر الشرعي. ففي قوله: نذرت لفلان مجازاً لغاية الاختصار، إذ معناه: نذرت لله على أن أفعل شيئاً يكون ثوابه لفلان.

• هل المشابهة توجب التكفير؟

* خامساً: المشابهة لا توجب التكفير

ومن أعجب العجائب: تكفير ابن تيمية للمسلمين في هذه النذور

(١) سنن أبي داود ٣/٣١٣.

(٢) معجم البلدان ١/٥٠٥.

بحجة أن عملهم في الذنور يشبه عمل المشركين فلو كان هذا هو الملاك، فهناك أعمال أخرى تشبه عمل المشركين، وذلك مثل كثير من مناسك الحج وفرائضه، تشبه في ظاهرها أعمال المشركين: كالطواف حول البيت وذبح الذبائح أضف إلى ذلك: إن الملاك والمقياس هو النية القلبية لا التشابه ودليله ما قال رسول الله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» (راجع صلح الإخوان، ص: ١٠٢)، إضافة إلى ذلك أيضاً أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأمم واصله إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة ومشهورة منها ما صح عن سعد أنه سأل النبي ﷺ قال يا نبي الله إن أمي ماتت وأعلم أنها لو عاشت لتصدقت، أفإن تصدقتُ عنها أينفعها ذلك؟ قال: نعم.

فسأل النبي: أي الصدقة أنفع يا رسول الله؟

قال ﷺ: الماء. فحفر بئراً وقال هذه لأُم سعد^(١).

وقد أخطأ ابن تيمية ومن حذا حذوه، فأدعى أن المسلم إذا قال هذه الصدقة للنبي أو الولي فاللام الموجودة في قولنا نذرت لله ويراد منها الغاية وقد غفل ابن تيمية أو تغافل عن أن العمل لله ويقصد باللام جهة المصرف للصدقة وهي كاللام في قوله تعالى إنما الصدقات للفقراء والمساكين^(٢).

فظهر أن المسلمين لا يقصدون بذبائحتهم ونذورهم للأمم إلا الصدقة عنهم وجعل العلماء ومنهم العزامي (قال لو سلمنا أن اللام يراد منها

(١) فرقان القرآن ص ١٣٣.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٠.

الغاية ويقصد بها جهة المصرف للصدقة مجازاً^(١).

* سادساً: سيرة المسلمين في النذور:

إن النذر بالذبح وغيره للأنبياء والأولياء أمر شائع بين المسلمين ومعروف من سيرتهم من دون اختصاص بفرقة دون فرقة وإنما يثاب به الناذر إذا كان لله وذبح باسم الله يقول الخالدي: بمعنى أن الثواب لهم والمذبح منذور لوجه الله كقول الناس: ذبحت لميتي بمعنى تصدقت عنه وكقول القائل: ذبحت للضيف بمعنى أنه كان السبب في حصول الذبح^(٢).

ويكفينا من الشواهد لسيرة المسلمين ثلاثة:

١- أحمد بن جعفر البستي نزيل مراكش المتوفي بها (عام ٦٠١هـ) قبره مزار مزاحم عليه مجرب الإجابة ويبلغ وارد ذلك المزار من النذور في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهب عين وربما وصل بعض الأيام ألف دينار ذهب وتصرف في ذوي الحاجات المحتفين به من أهالي تلك الديار^(٣).

٢- قبر النذور ببغداد وهو قبر عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال البغدادي: كان ببغداد قبر يعرف بقبر النذور ويقال: إن المدفون فيه رجل من ولد علي بن أبي طالب عليه السلام يتبرك بزيارته الناس ويقصدوه ذو الحاجة وسمي بقبر النذور لأنه ما يكاد ينذر له نذر إلا صحَّ وبلغ الناذر ما يريد ولزمه الوفاء بالنذور وهذا ما حدث به القاضي

(١) فرقان القرآن ص ١٣٣.

(٢) صلح الأخوان ص ١٠٩، الغدير ١٨٢/٥.

(٣) نيل الابتهاج ٦٢/٢، الغدير ٢٠٤/٥.

أبو القاسم التنوفي^(١).

٣- قبر الشيخ أحمد البدوي المتوفي (٦٧٥) دفن بطنطا واشتهر بكراماته وكثرت النذور إليه^(٢).

* سابقاً: أقوال العلماء في النذر

١ قال الخالدي: قال الخوارج: لا يجوز النذر في أماكن الأنبياء والصالحين زاعمين أن الأنبياء والصالحين أوثان (والعياذ بالله) وأعياد من أعياد الجاهلية، فهو من ضلالهم وخرافاتهم وتجاسرهم على أنبياء الله وأوليائه حتى سمّوهم أوثاناً.

وهؤلاء المخذولون بجهلهم يسمون التوسل بالأنبياء عبادة ويسمونهم أوثاناً، فلا عبرة بجهالة هؤلاء وضلال وضلالاتهم^(٣) كما لا عبرة بجهالة ابن تيمية ومن لف لفته وضلالاتهم^(٤).

٢- قال الرافعي نقلاً عن صاحب التهذيب وغيره: إنه لو نذر أن يتصدق بكذا على أهل بلد عينه يجب أن يتصدق به عليهم^(٥).

٣- وقال الخالدي أيضاً: إن المسألة تدور مدار نيات الناظرين وإنما الأعمال بالنيات فإن كان قصد الناظر وجه الله تعالى، وانتفاع الأحياء بوجه من الوجوه وثوابه لذلك الميت المنذور له لا بأس وهذا هو نفسه قول

(١) سيرة أعلام النبلاء ٢٤٩/١٦.

(٢) المواهب اللدنية ٣٤٦٥، شذرات الذهب ٥/٧.

(٣) صلح الأخوان ص ١٠٩.

(٤) العنبر للعلامة الأميني ١٨٣/٥.

(٥) صلح الأخوان ص ١٠٤.

الأذري والزرکشي وابن حجر الهيتمي والرملي الشافعي والرافعي والنوي وعلاء الدين الحنفي والشيخ محمد الغزي والشيخ قاسم الحنفي^(١).

٤- قال العزامي: النذر بالذبح وغيره للأنبياء والأولياء أمر مشروع سائغ من سيرة المسلمين عامة من دون أي اختصاص بفرقة دون أخرى لا كما قال ابن تيمية وممن ابتلي بصحبته وصحة تلاميذه وهو منه تلبس في الدين وصرف إلى معنى لا يريده مسلم من المسلمين إنما يقصدون بذبائهم وندورهم للميتين من الأنبياء والأولياء إلا الصدقة عنهم وجعل ثوابها إليهم وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموال وواصلت إليهم والأحاديث في ذلك صحيحة ومشهورة^(٢) فالنذر بالذبح وغيره للأنبياء والأولياء أمر مشروع من سيرة النبي والصحابة والمسلمين وبعد هذه الأدلة والشواهد وكلمات العلماء من علماء المسلمين فهل يحق لابن تيمية وأتباعه الإصرار على حرمة النذر لغير الله.

(١) صلح الأخوان ص ١٠٢.

٢- فرقان القرآن ص ١٣٣.

الفصل الثالث عشر

الاحتفالات

- ١- رأي الوهابية ودليلهم
- ٢- مناقشة الدليل
- ٣- سيرة المسلمين
- ٤- فتاوى وكلمات العلماء
- ٥- مناقشة سند الحديث
- ٦- مناقشة دلالة الحديث
- ٧- تفسير الحديث ومفاده

الفصل الثالث عشر

الاحتفالات

• رأي الوهابية وأدلتهم:

تزعم الوهابية أن من المنكرات: تكريم مولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاحتفال وقراءة القرآن وإنشاد القصائد، والإحسان إلى المؤمنين بالإطعام، وقالوا: قد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله^(١).

وفيما يلي عرض آرائهم وأدلتهم:

١- ابن تيمية: إن اتخاذ هذا اليوم عيداً، محدثٌ لا أصل له، فلم يكن في السلف لا من أهل البيت ولا غيرهم من اتخاذ ذلك عيداً، حتى يحدث فيه أعمالاً... وإنما يفعل مثل هذا: النصراني الذي يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى عليه السلام أعياداً أو اليهود، أو...^(٢).

٢- وقال محمد حامد الفقي وغيره من الوهابيين: والمواليد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم^(٣).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٩٣.

(٢) كشف الارتباب صفحة ٤٨.

(٣) أنظر الملل والنحل للسبحاني ٣٢٠/٤.

واستدلوا لرايهم:

١- بما رواه أبو هريرة: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنت»^(١).

٢- وما روي عن النبي ﷺ: نهى أن يتخذ - القبر - عيداً^(٢).

* مناقشة الفكرة:

والجواب يقع من وجوه:

الأول: هناك فرق بين التكريم والعبادة، وذلك لأنّ العنصر المقوم للعبادة هو الاعتقاد بألوهية المعبود، أو ربوبيته، أو كونه مفوضاً إليه فعل الرب، وليس في الاحتفال شيء من ذلك.

وفي التكريم: تجسيد للأصل الوارد في القرآن الكريم والروايات، وهو حب النبي ﷺ على وجه يكون النبي ﷺ مقدماً عند الإنسان على نفسه.

أما في القرآن:

فقره تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَبِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

وأما في الحديث: فعن النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون (أنا

(١) مستد أحمد: ٤٢٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

وأهل بيتي) أحب إليه من نفسه^(١) (وبنيه والناس جميعاً)^(٢).

فعلى قول حامد الفقي وغيره من الوهابيين أن يفرقوا بين العبادة والتكريم، قبل أن يتهجموا على من يقوم بالاحتفالات والموايد والذكريات و...و...

الثاني: إن الأصل في الأشياء هو الجواز ما لم يقم عليه منع شرعي، كما صرح ابن تيمية بهذا الأصل، حيث قال:

إن الأصل في العادات عدم الحظر إلا ما حظره الله^(٣).

وعليه: أولاً لم يرد منع شرعي عن الاحتفال، وثانياً ما روي فسيأتي البحث فيه وأنه ضعيف سنداً ودلالة.

الثالث: وإن لم يكن لإقامة الاحتفال نصٌ على الجواز ولكن تُعرف مشروعيته وجوازه من خلال الأصل المسلم المتخذ من الكتاب والسنة، وهو حب النبي وأهل بيته، فالمنع عنه، يُعدّ مخالفة لإظهار هذا الحب ويكون إظهاراً للحقد والضغن الكامن في القلب.

الرابع: إن ابن تيمية جعل المقياس في الحلية والحرمة فعل السلف، فهل المقياس هو فعل السلف أم الكتاب والسنة؟

(١) الدر المنثور: ٣/ ٢٢٣.

(٢) منتهى الآمال: ٢/ ٦٤٧، وفي البحار عن أمالي الصدوق: لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحب إليه من ذاته فقال رجل من القوم: يا أبا عبد الرحمن ما تزال تجيء بالحديث بحبي الله به القلوب، ٢٧/ ص ٧٥ وص ٨٦ مسند أحمد ٣/ ٢٠٧ - ٢٣٧/٤، أنظر مصادره (موسوعة أطراف الحديث النبوي: ٣١٢٧).

(٣) المجموع: ٤/ ١٩٥.

الخامس: فتاوى وكلمات المؤرخين والمحدثين والعلماء!

ولو سلمنا أن السلف هو المقياس، فإنهم قد أقاموا الاحتفالات على مرّ الأزمان ويشهد له نص المؤرخين والمحدثين والعلماء، وإليك بعضهم:

١- قال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ويعملون الولائم.. فرحم الله امرؤ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشدّ علة على مَنْ في قلبه مرض وإعياء داء^(١) فهذا هو فعل السلف وإجماع المسلمين في جميع العصور.

٢- وقال الديار بكري: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ ويعملون الولائم ويتصدقون بأنواع الصدقات ويظهرون السرور^(٢).

٣- قال ابن عباد: أما المولد، فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك.. أمر مباح لا منكر^(٣).

تدل هذه الشواهد التاريخية على أن المسلمين احتفلوا أزماناً ليست بالقصيرة من دون معارضة صريحة ولا ضمنية من سائر المسلمين ولا من فقهاءهم.

السادس: مناقشة الحديث «لا تجعلوا قبوري عيداً».

أولاً: إن العيد لغة هو الموسم وعليه فلا يصح أن يقع خبيراً لقوله:

(١) المواهب اللدنية: ٢٧/١.

(٢) تاريخ الخميس: ٣٢٢/١.

(٣) المواسم والمراجم: ص ٢٠ تقيلاً عن القول الفصل بمولد خير الرسل: ص ١٧٥.

(قبري) إذ لا معنى لجعل القبر عيداً، وإنما يصح جعل موسم أو يوم مشخّص عيداً، فيقال مثلاً: موسم الحج عيد، أو يوم الجمعة عيد.

ثانياً: العيد لغة يوم إظهار الزينة لذا يكون معنى الحديث لا تجعلوا قبري يوماً خاصاً لإظهار الزينة بل لا بد من زيارته جميع الأيام لكي يكون لكم تذكرة للموت والموعظة وليس لإظهار الزينة والفرح كما في الأعياد.

ثالثاً: من حيث السند ضعيف، لأن في سنده سهيل ابن أبي صالح وعبد الله بن نافع وعلى النقل الثاني في سنده سهيل بن أبي صالح وكلاهما ممن لا يحتج بحديثهما:

قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به^(١).

وقال ابن المديني: مات أخ لسهيل ووجد عليه - بمعنى حزن عليه - فني كثيراً من الحديث.

وقال ابن معين: ضعيف^(٢).

وأما الراوي الثاني: عبد الله بن نافع.

قال البخاري: يعرف حفظه وينكر^(٣).

وقال ابن حنبل: لم يكن صاحب حديث وكان ضعيفاً، ولم يكن في الحديث بذلك.

وقال الرازي: ليس بالحافظ هو لين تعرف حفظه وتنكر^(٤).

(١) ميزان الاعتدال: ٢/ ٢٤٣، انظر: تهذيب الكمال: ١٢/ ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الجرح والتعديل: ٥/ ١٨٤، شفاء السقام: ٨٠.

(٤) نفس المصدر.

* تفسير ومفاد الحديث (لا تجعلوا قبوري عيداً):

إن الاحتمالات التي ذكرها العلماء من تفسير الحديث المذكور ما يلي:

١- يحتمل أن يكون المراد به: الحث على كثرة زيارة النبي ﷺ وأن لا يهمل حتى لا يزار إلا في بعض الأوقات كالعيد الذي لا يأتي في العام إلا مرتين^(١)، بمثابة العيد، وهذا هو رأي المنذري^(٢).

٢- ويحتمل أن يكون المراد: لا تتخذوا وقتاً مخصوصاً لا تكون الزيارة إلا فيه، كما ترى أن كثيراً من المشاهد لزيارتها يوم معين كالعيد، بل أكثر الزيارة له وهذا هو رأي السبكي^(٣).

٣- ويحتمل أن يكون المراد: أن لا يجعل كالعيد في العكوف عليه وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك، مما يعمل في الأعياد، بل: لا بد وأن لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه. وهو المتبادر من كلام الخفاجي الحنفي^(٤).

٤- ويحتمل أن يكون المراد: إن اجتماعهم عند قبره، ينبغي أن يكون مصحوباً بالخشوع والتأمل والاعتبار حسبما يناسب حرمة واحترامه، فإن حرمة ميتاً كحرمة حياً، فلا يكون ذلك مصحوباً باللهو واللعب والغفلة والمزاح مما اعتادوه في أعيادهم^(٥).

(١) شفاء السقام: ص: ٨٠ عن المنذري.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) شرح الشفا: ٣/ ٥٦٦.

(٥) المواسم والمراسم: ٧١.

الفصل الرابع عشر
نظرية البداء عند الشيعة

- ١- تفسير لفظ البداء
- ٢- إحاطة علمه تعالى بكل شيء
- ٣- تغيير المصير بالأعمال الصالحة والطالحة
- ٤- إمكان النسخ في التشريع والتكوين
- ٥- حقيقة البداء في ضوء الكتاب والسنة
- ٦- تنبيهات حول البداء

الفصل الرابع عشر

نظرية البداء عند الشيعة

* (البداء): ويراد به نظرية البداء عند الشيعة، تغيير مصير الإنسان بالأعمال الصالحة أو الطالحة مع سبق علم الله تعالى به:

تحتل مسألة البداء في عقائد الشيعة الإمامية المكانة الأولى وبقدر ما تحظى هذه المسألة من الاهتمام والعناية لديهم تلقى نقداً لاذعاً وهجوماً عنيفاً من جانب علماء السنة والوهابية، فلا يمرون عليها إلا ويهاجمونها بشدة وقسوة وهذا من العجب أن تعتبر طائفة مسألة من صميم الدين وجوهره وأخرى تعتبرها فكرة هدامة للدين، وأعجب منه أن الباحث إذا نظر فيما سيأتي، يقف على أن النزاع القائم نزاع لفظي، لا يمت إلى النزاع المعنوي والجوهري بصله، وقد حصل النزاع من عدم إمعان المخالف فيما يتبناه الموافق^(١)، وفي البحث أمور:

• الأمر الأول: تفسير لفظ البداء

إن البداء - بفتح الباء - في اللغة هو الظهور بعد الخفاء، قال الراغب في مفرداته: (بدا الشيء بدوءاً وبداءً: ظهر ظهوراً بيناً.

(١) الإلهيات على هدي الكتاب والسنة للشيخ المحقق السبجاني ١ / ٥٦٥.

قال تعالى: ﴿وَيَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ * وَيَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴿ [الزمر ٤٧، ٤٨].

والبداء بهذا المعنى لا يطلق على الله سبحانه بتاتاً، لاستلزامه حدوث علمه تعالى بشيء بعد جهله به، ولا يظن بمسلم عارف بالكتاب والسنة أن يطلق البداء بهذا المعنى على الله سبحانه، فالشيعة الإمامية يستحيل عليهم أن يطلقوا البداء على الله بهذا المعنى بل لهم في ذلك تفسير آخر سيأتي إنشاء الله، فالبداء في الإنسان أن يبدوله رأي في الشيء، لم يكن له ذلك الرأي سابقاً وذلك عن جهل بالمصالح وندامة على ما سبق منه.

والبداء بهذا المعنى يستحيل على الله تعالى لأنه من الجهل والنقص ولا تقول به الشيعة الإمامية حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «من زعم أن الله تعالى بدا له شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم»^(١) وقال أيضاً: «من زعم أن الله تعالى بدا له في شيء ولم يعلمه أمس فأبرأ منه»^(٢) والصحيح في ذلك أن نقول كما قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣) ومعنى ذلك أنه تعالى قد يظهر شيئاً على لسان نبيه أو وليه أو في ظاهر الحال لمصلحة تقتضي ذلك لإظهاره ثم يمحوه فيكون غير ما قد ظهر أولاً، مع سبق علمه تعالى بذلك.

* الأمر الثاني: إحاطة علمه بكل شيء:

أجمعت الإمامية تبعاً لنصوص الكتاب والسنة والبراهين العقلية على

(١) بحار الأنوار: ١١١/٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة الرعد ٣٩.

أنه سبحانه عالم بالأشياء والحوادث كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها بالتفصيل لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران 5].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته في إحدى خطبه: «كل سر عندك علانية وكل غيب عندك شهادة»^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ومن زعم أن الله عز وجل يدوني شيء لم يعلمه أمس، فابراً منه»^(٢).

وقال أيضاً: «ما عبد الله عز وجل بشيء مثل البداء»^(٣).

وقال أيضاً: «فكل أمر يريد الله فهو في علمه قبل أن يصنعه ليس شيء يبدوله إلا وقد كان في علمه أن الله لا يبدوله من جهل»^(٤).

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء»^(٥).

هذه تصريحات أئمة الشيعة في سعة علمه سبحانه وامتناع البداء عليه بمعنى الظهور بعد الخفاء. ويقولون: إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء مع علمه تعالى.

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٠٥، شرح محمد عبده.

(٢) بحار الأنوار: ١١١/٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) بحار الأنوار: ١٢١/٣.

(٥) الكافي: ١٠٧/١.

* الأمر الثالث: تغيير المصير بالأعمال الصالحة والطالحة.

دلت الآيات والأحاديث الصحيحة على أن الإنسان قادر على تغيير مصيره بحسن أفعاله وصلاح أعماله، بمثل الصدقة والإحسان وصلة الأرحام وبر الوالدين والاستغفار والتوبة وشكر النعم، إلى غير ذلك مما يوجب تغيير المصير وتبدل المقدر السيئ، إلى المقدر الحسن، كما أنه قادر بسبب الأعمال الطالحة على تغيير مصيره من الحسن إلى السيئ بارتكاب طالح الأعمال وسيئها. فليس الإنسان محكوماً بمصير واحد غير قابل للتغيير، بل المصير يتغير ويتبدل بشكر النعم أو كفرانها، وبالتقوى والمعصية وهناك آيات كثيرة وروايات صحيحة تنص على تغيير المصير بعمل الإنسان، نذكر القليل منها:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١١].

٢- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال ٥٣].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣].

وإليك بعض الروايات التي تنص على تغيير المصير بتأثير العمل:

١- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل ما توسل به المتوسلون الإيمان بالله وصدقة السر، فإنها تذهب الخطيئة وتطفئ غضب الرب، وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان»^(١).

(١) بحار الأنوار: ١٧٧/٩٣ ح ٩.

٢- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتُنسى في الأجل»^(١).

٣- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الدعاء يرد القضاء وإن المؤمن ليدنّب فيحرم بذنبه الرزق»^(٢).

وقد روى أهل السنّة نظير هذه الروايات نذكر بعضها:

٤- عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»^(٣).

٥- وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن ثوبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(٤).

وهذا قليل من كثير وغيض من فيض مما ورد في تغيير المصير بالأعمال الصالحة والطالحة.

* الأمر الرابع: إمكان النسخ في التشريع والتكوين

إن المعروف من عقيدة اليهود أنهم يمنعون النسخ سواء أكان في التكوين أم في التشريع وقد استدلوا على امتناعه بوجوه منها أن يكن النسخ من جهة البداء وهذا يكشف ويظهر خلاف علمه تعالى^(٥) بمعنى يستلزم

(١) الكافي: ٤٧٠/٢.

(٢) بحار الأنوار: كتاب الذكر والدعاء، الباب ١٦، الحديث ٢ ٢٨٧٩٠.

(٣) التاج: ١١١/٥.

(٤) المستدرک للحاكم: ٤٩٣/١.

(٥) الإلهيات للشيخ السجستاني ٥٧٤ / ١.

جهله تعالى وهو ممتنع، وأجيب عنه إن النسخ لا يلزم البداء المحال في حقه لأن معنى النسخ ارتفاع الحكم المجعول المقيد بزمان معلوم عند الله ومجهول عند الناس ويكون ارتفاعه بعد انتهاء ذلك الزمان لأجل انتهاء أمده الذي قيد به، ومن المعلوم أن للزمان دخله في مناطات الأحكام فيمكن أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة في سنين ثم يخلوا عن تلك المصلحة بعد انتهائها.

فالنسخ بهذا المعنى تقييد لإطلاق الحكم من حيث الزمان. وأما نحن نقول أن الله تعالى يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء لا يمنعه من ذلك مانع ودليلنا الآية التالية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) ويقول تعالى أيضاً: ﴿الْأَلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

• الأمر الخامس: حقيقة البداء في ضوء الكتاب والسنة

إذا عرفت الأمور السابقة، تقف على أن المراد من البداء عند الشيعة الإمامية ليس إلا تغيير المصير والمقدر بالأعمال الصالحة والطلاحة للإنسان مخير في أن يُغَيَّرَ مصيره بصالح أعماله أو بطالحها ودليله قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١١]، فالله سبحانه لا يغير مصير العبد إلا بتغيير من العبد بحسن الفعل أو سونه معارضاً لتقديره الأول سبحانه، بل هو أيضاً جزء من قدره وسنته، فإن الله إذا قدر لعبده شيئاً وقضى له بأمر، لم يقدره ولم يقضه عليه على وجه

(١) سورة الرعد ٣٩

(٢) سورة الأعراف ٥٤

القطع والحتم، بحيث لا يتغير ولا يتبدل، بل قضاؤه وقدره على وجه خاص وهو أن ما قدر للعبد يجري عليه ما لم يغير حاله بحسن فعل أو سونه، فإذا غير حاله تغير قدر الله وقضاؤه في حقه وحل مكان ذلك القدر قدر آخر ومكان ذلك القضاء، قضاء آخر والجميع (من القضاء والقدر السابقين واللاحقين) قضاء الله وقدره وهذا هو البداء الذي تقوله الإمامية من مبدأ تاريخها إلى هذا الوقت. ودليله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام ٢]، فبين أن الأجل على ضربين، ضرب منها مشروط يصح فيه الزيادة والنقصان، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر ١١]، فبين تعالى أن آجالهم كانت مشرطة في الأعمال الصالحة وترك الأعمال الطالحة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف ٩٦].

فالبداء من الله تعالى يختص بما كان مشروطاً في التقدير كالتقوى والاستغفار وليس هو الانتقال من عزيمة إلى عزيمة تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً^(١).

فالشيعة تقول إن البداء بالنسبة للناس ظهور بعد خفاء، لقوله تعالى: ﴿وَيَدَا هُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية ٣٣]، وأما بالنسبة له تعالى فالبداء هو تغيير التقدير بالفعل الصالح والطالح وهذا المعنى مجازي. أما إذا وقفت على أن ما ذكره الإمام الأشعري^(٢) والبلخي في تفسيره والرازي في نقد المحصل وغيرهم، لا صلة له بعقيدة الشيعة فيه فإنهم فسروا البداء لله

(١) تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

(٢) المقالات الإسلامية صفحة ١٠٧ طبعة محي الدين عبد الحميد.

بظهور ما خفي عليه وهذا المعنى، الشيعة منه براء، بل البداء عندهم تغيير التقدير بالأعمال الصالحة والطالحة من قبل الإنسان مع سبق علم الله تعالى به ودليلهم عليه من القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١١]، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْتَابِ﴾ [الرعد ٣٩]، وأما من السنة: (الصدقة تحول الشقاء سعادة وبر الوالدين يزيد في العمر، واصطناع المعروف يقي مصارع السوء وقال الإمام الباقر عليه السلام «صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتسهل الحساب وتُنسى الأجل»^(١) وهذا هو المعنى المجازي للبداء عند الشيعة.

بقيت أمور يجب التنبيه عليها:

* الأمر الأول: الأثر التربوي للبداء

إن الأثر التربوي الذي يترتب على القول بالبداء أمر لا يمكن إنكاره، كيف والاعتقاد بالبداء يبعث الرجاء في قلوب المؤمنين، كما أن إنكاره والالتزام بأن ما جرى به قلم التقدير كائن لا محالة دون استثناء، يترتب عليه اليأس والقنوط، فيستمر الفاسق في فسقه والظالم في ظلمه والطاغي في طغيانه، قائلين بأنه إذا كان قلم التقدير مضي على شقائنا، فلأي وجه نغير نمط أعمالنا السيئة بأعمال البر والتضرع والدعاء والجواب:

إن الاعتقاد بالبداء يضاهاى الاعتقاد بقبول التوبة والشفاعة وتكفير الصغائر باجتئاب الكبائر، فإن الجميع يبعث الرجاء في النفوس ويشرح قلوب الناس أجمعين عصاة ومطيعين حتى لا يأسوا من روح الله، ولا

(١) بحار الأنوار، ٢٨٧٩٠.

يتصوروا أنهم إذا قدر كونهم من الأشقياء فلا فائدة في السعي والكدح بل يعتقدوا بأن الله سبحانه لم يجف قلمه في لوح المحو والإثبات، فله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء حسب ما يتحلى به العبد من مكارم الأخلاق وصالح الأعمال أو يرتكب من طالحها وفاسدها وليست مشيئته تعالى جزافية غير تابعة لضابطة حكيمة، (وهذا هو البداء الذي تعتقده الشيعة في حقه تعالى سمه ما شئت ويمكن تسميته بالتوسعة).

فلو تاب العبد وعمل بالفرائض وتمسك بالواجبات وترك المحرمات خرج من صفوف الأشقياء ودخل في عداد السعداء وبالعكس.

وهكذا كل ما قدر في حق الإنسان من الحياة والموت والصحة والمرض والغنى والفقر يمكن تغييره بتغيير حالة بالعمل الصالح والدعاء والصدقة وصلة الرحم وإكرام الوالدين، فالبداء يبعث نور الرجاء في قلوب الناس فالبداء في الاصطلاح: هو تغيير مصير الإنسان بالأعمال الصالحة أو الطالحة مع سبق علم الله به فالتفسير مشروط بالقيام بالأعمال الصالحة أو الطالحة.

* الأمر الثاني: البداء ليس تغييراً في علمه ولا في إرادته سبحانه وتعالى:

إن علمه سبحانه ينقسم إلى علم ذاتي وعلم فعلي، فعلمه الذاتي نفس ذاته وهو لا يتغير ولا يتبدل، وأما علمه الفعلي فهو عبارة عن لوح المحو والإثبات، فإذا قيل بدا لله في علمه، فمرادهم البداء في هذا المظهر.

وإن شئت قلت: إن مراتب علمه تعالى مختلفة ومحالها متعددة فأولها وأعلاها العلم الذاتي المقدس عن الزيادة والنقصان وهو محيط بكل شيء وكل شيء حاضر عنده بذاته ثم يليه علمه الفعلي وفيه التغيير ولذا يطلق

عليه بلوح المحو والإثبات فيقدر في ذلك اللوح كون الشخص من السعداء ولكنه يرتكب عملاً طالحاً يوجب التغيير فيه، فيكتب في الأشقياء وبالعكس وإليه يشير تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. [الرعد ٣٩].

فالظاهر من الآية أن أم الكتاب هو الكتاب الواسع للأصل الذي يكتب فيه تقدير جميع الكائنات ومنها الإنسان، ولأجل ذلك يكون مصوناً من التغيير وهذا بخلاف لوح المحو والإثبات فيكتب فيه التقدير ولكنه لما كان مشروطاً بشرط غير متحقق، يغيره التقدير الثاني وبذلك يظهر أن التغيير في التقدير لا يلزم التغيير في العلم ولا التغيير في الإرادة وإنما التغيير في مظاهر علمه الفعلي.

فيلاحظ عليه:

أولاً: إن زيادة الآجال والأرزاق أو نقصانها بالأعمال مما لم تنفرد به الشيعة الإمامية، ومن العجيب أن يغفل عما رواه أئمة أهل البيت عليهم السلام من أهل السنة.

ثانياً: إن الزيادة في الآجال والأرزاق وإن كانت توجب التغيير في التقدير، لكنها لا توجب التغيير في علم الله أو مشيئته وإرادته فالتغيير من مظاهر علمه الفعلي لا في علمه الذاتي الأزلي.

* الأمر الثالث: البداء في التقدير الموقوف لا المحتوم

إن البداء (تغيير التقدير بالأعمال) إنما يتصور في التقدير الموقوف وأما القطعي المحتوم فلا يتصور فيه.

وتوضيح ذلك بما يلي:

إنَّ لله سبحانه قضاءين أو تقديرين أو نوعين من التقدير: قضاءً قطعياً وقضاءً معلقاً، أما الأول فلا يتطرق إليه البداء ولا يتغير أبداً، وأما الثاني المعلق فهو الذي يتغير بالأعمال الصالحة والطلاحة وقد صرح أئمتنا في أحاديثهم بهذا الأمر ونصوا على هذا التقسيم.

والمراد من التقدير الحتمي ما لا يبدل ولا يغير ولو دُعي بألف دعاء وتصدق بألف صدقة وذلك كقضائه تعالى للشمس تجري والقمر يسير إلى أجل معين، وللنظام الشمسي عمراً محدداً وتقديره في حق كل إنسان بأنه يموت إلى غير ذلك من السنن الثابتة الحاكمة على الكون والإنسان والمراد من الثاني الأمور المقدرة على وجه التعليق فقدّر أن المريض يموت في وقت كذا إلا إذا تداوى أو أجريت له عملية جراحية أو دُعي له وتُصدّق عنه وغير ذلك من التقادير التي تتغير بإيجاد الشرائط والموانع، والله تعالى يعلم في الأزل كلا التقديرين المحتوم والموقوف وإليك بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام حول هذا التقسيم.

روى الفضيل، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الأمور أمور محتومة جائية لا محالة ومن الأمور أمور موقوفة عند الله يقوم منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء»^(١).

وفي حديث قال الرضا عليه السلام لسليمان المرزوي: «يا سليمان إنَّ من الأمور أموراً موقوفة عند الله تبارك وتعالى يقدر منها ما يشاء ويؤخر ما يشاء»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ١١٩/٤، نقلًا عن أمالي الطوسي باب البداء.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/٤.

وقد خرجنا بهذه النتيجة، وهي:

إن التقدير على نوعين موقوف وغير موقوف والله سبحانه من وراء الكل واقف على تحقق الموقوف عليه^(١).

* الأمر الرابع: الأجل والأجل المسمى:

إن الأجل بلا قيد هو التقدير الموقوف والأجل المسمى هو المحتوم وإليك بيانه:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾^(٢).

وإليك توضيح مفهوم الأجلين بالمثال التالي:

إذا وهب الله تعالى لأحدنا طفلاً وأجريت عليه الفحوصات الطبية بحيث اطمأن الأطباء أن باستطاعة هذا الطفل أن يحمل أعباء الحياة إلى سبعين سنة، فمن الواضح أن معنى هذا ليس أكثر من الإمكان أو الاقتضاء وليس معناه أنه يعيش هذه المدة كيفما كان، وفي أي وضع كان بل هو مشروط بشروط عديدة، منها استمرار صحته وعدم عروض مانع لاستمرار بقائه حتى تصل هذه القابلية من القوة إلى الفعل وإلا فربما يموت قبل أن يصل إلى تلك المدة وعلى ضوء هذا فللطفل من يومه الأول أجلان:

١- أجل مطلق: وهو إمكانه واقتضاؤه للبقاء وقابليته الجسمية لمدة سبعين سنة، وحيث أن لاستمراره في البقاء لا بد من توفر شروطه، ولا يعلم

(١) الإلهيات الشيخ جعفر سبحاني الجزء الأول ص ٥٨٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ٢.

بالجزم واليقين تحققها، يكون هذا أجلاً مبهماً لا مبرماً ولا محتوماً.

٢- أجل محتوم: وهو مقدار عيشه حسب تحقق شروطه في الواقع وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه لأنه هو المحيط بالعالم وهذا الأجل محتوم لا مبهماً عنده تعالى لذا قال تعالى عن المحتوم: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾^(١).

فالأجل المسمى هو المحتوم الذي لا يتقدم ولا يتأخر وأما الأجل غير المسمى هو الموقوف الذي يتقدم ويتأخر بشروطه وأسبابه وهذا مكتوب فيما نسميه بلوح المحو والإثبات^(٢).

* الأمر الخامس: ما يترتب على البداء في مقام الإثبات

إذا كان البداء هو تغيير المصير بالعمل الصالح أو الطالح، وإنه يقع في الأمور الموقوفة لا المحتمومة، يسهل على الباحث علاج الإخبار بالمغيبات من جانب الأنبياء مع عدم تحققه.

وإليك نماذج من هذه الإخبار بالمغيبات في الكتاب والسنة: مع عدم تحققها:

١- رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، فتلك الرؤيا الصادقة تحكي عن أمر الله لإبراهيم بذبح ولده ومع ذلك لم يتحقق ونسخ ذلك الأمر بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَنْتَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) الإلهيات الشيخ جعفر سبحاني الجزء الأول ص ٥٨٧.

(٣) انظر سورة الصافات: ١٠٧.

٢- إن يونس عليه السلام أخبر قومه بنزول العذاب وأنه مصيبيهم ومع ذلك لم يأتهم بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنفَعَهَا بِمَثَلٍ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١).

٣- ما جاء في قصة موسى بن عمران حيث إن موسى أخبرهم بأنه سيغيب عنهم ثلاثين ليلة كما عن ابن عباس حيث قال: (إن موسى قال لقومه إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، فلما كملت زاده الله عشرًا، فينطرح في ذهن الإنسان.

سؤال: كيف يجوز أن يخبر النبي ﷺ بشيء من المغيبات ثم لا يتحقق؟

الجواب: عرفنا أن البداء تغيير المصير بالعمل الصالح والظالم وأنه يقع في الأمور الموقوفة بمعنى يقع التغيير بما هو في لوح المحو. ولذا عندما يخبر النبي نبي نبي من المغيبات فلا يتحقق لأنه غير مصيره بالأعمال الصالحة أو الطالحة وهناك قرينة على عدم كذب النبي بأخباره ومن هذه القرائن في قصة ابراهيم وفديناه بذبح عظيم، وهناك عدم نزول العذاب على قوم يونس هي إيمانهم بقوله تعالى لما آمنوا كشفنا عنهم الخزي في الحياة الدنيا.

أسئلة الفصل:

- س ١- ما هو معنى البداء في اللغة والاصطلاح وما هو الدليل عليه من القرآن والسنة؟
- س ٢- ما هو الأثر التربوي للبداء؟
- س ٣- ما هو رأي الشيعة في البداء؟ اشرح ذلك؟
- س ٤- اشرح البداء في التقدير الموقوف لا المحتوم.
- س ٥- ما هي التنبهات حول البداء؟ عددها واطرح واحده منها؟
- س ٦- اشرح البداء ليس تغييراً في علمه ولا في إرادته تعالى.
- س ٧- كيف يخبر النبي ﷺ بشيء من المغيبات ثم لا يتحقق؟
- س ٨- عرف الأجل والأجل المسمى.
- س ٩ - هل يصح أن النبي الأكرم ﷺ يخبر بشيء من المغيبات ثم لا يتحقق؟

الفصل الخامس عشر

القرآن الكريم والتحريف

البحث الأول: التحريف وأقوال العلماء.

البحث الثاني: روايات نقص القرآن وزيادته في مصادر أهل السنة.

البحث الثالث: محاولات تحريف مكشوفة من أحد الخلفاء.

البحث الرابع: آيات زعم عمر وعائشة أنها من القرآن.

البحث الخامس: هل البسمة من القرآن؟

البحث السادس: صيانة القرآن من التحريف.

(القرآن معصوم من التحريف)

وفيه أبواب:

* الباب الأول: معنى التحريف

* الباب الثاني: رأي المسلمين في التحريف

* الباب الثالث: نسخ التلاوة مذهب مشهور بين علماء السنة

* الباب الرابع: التحريف والكتاب

* الباب الخامس: التحريف والسنة

* الباب السادس: دعوى وقوع التحريف من بعض الخلفاء

* الباب السابع: شبهات القائلين بالتحريف

البحث السابع: شبهة جمع القرآن الكريم على عهد عثمان

البحث الأول:

التحريف وأقوال العلماء

أحب أن اطمئن الأخوة الأعزاء من جميع المذاهب والاتجاهات إلى أن هذه الأمة المحرومة المباركة قد امتازت عن غيرها من الأمم فيما امتازت بكتاب الله عز وجل حيث لا يوجد على وجه الأرض كتاب سماوي محفوظ النسخة جيلاً عن جيل وحرفاً بحرف غير القرآن. فهو معصوم من التحريف.

وأما تلك الأحاديث التي توهم وقوع التحريف فيه ليس لها قيمة علمية ولا عملية وذلك أن الله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه بقوة نضه الذاتية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) ثم بالمحافظين عليه ﷺ.

إن القرآن كلام الله تعالى وهي حقيقة يقف عندها الذهن لاستيعابها ويتفكر فيها العقل لإدراك أبعادها وينشع لها القلب لجلالها.. وهي تعني فيما تعني أنه عز وجل قد انتقى معاني القرآن وألفاظه وصاغها بعلمه وقدرته وحكمته وهي حقيقة تفاجئ كل منصف يقرأ القرآن، فيجد نفسه أمام متكلم فوق البشر بألفاظه وأفكاره وإعجازه.

* اتهامات وردود

ونحن نسمع بين الآونة والأخرى اتهامات توجه للشريعة الإمامية بالقول بتحريف القرآن بل ونقل البعض إجماع الشيعة على ذلك!

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

وما عسانا أن نقول غير (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) نحن لا ننكر وجود بعض الروايات التي يُضرب بها وبأمثالها عرض الجدار علماً أن مثل هذه الروايات نجدها في كتب أهل السنة أيضاً وعلى الرغم من ذلك فنحن لا نقول بالتحريف وقد استعرضنا هاهنا آراء علماء الشيعة التي وقفنا عليها في المصادر التي بين أيدينا من تفاسير وكتب عقائدية وكلامية، ونسأل الله عز اسمه أن تكون قد وقفنا في بحثنا هذا الذي شرعنا فيه قرينةً لله تعالى.

وإليكم أقوال علماء الطائفة الإمامية بعدم التحريف:

١- قال شيخ المحدثين محمد بن علي بن الحسن بن بابويه الملقب بالصدوق وهو صاحب كتاب من لا يحضره الفقيه:

«اعتقادنا في القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد الأكرم هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك - إلى أن قال - ومن نسب إلينا أن نقول أنه أكثر من ذلك فهو كاذب»^(١).

٢- قال أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي شيخ الطائفة وهو صاحب كتابي التهذيب والاستبصار في تفسيره التبيان:

﴿وَإِنَّا لَهُمُ لَحَافِظُونَ﴾ قال قتادة: لحافظون من الزيادة والنقصان وقال الطوسي: ومثله قوله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطِيلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾.

٣- قال أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي في كتابه مجمع البيان في تفسير قوله تعالى (وإننا له لحافظون) عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغيير.

٤- قال المولى محسن، الملقب بالفيض الكاشاني في تفسيره الصافي

(١) من لا يحضره الفقيه ٣٢١/١.

في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم ولذلك أكده من وجوه وإنا له لحافظون من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان.

٥- قال السيد عبد الله شبر في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عند أهل الذكر واحداً بعد واحد إلى القائم.

٦- قال السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره الميزان في قوله تعالى ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ بما له من صفة الذكر بما له من العناية الكاملة به فهو ذكر خالد حي مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة، مصون من النقص، مصون من التغيير في صورته وسياقه.

فالآية تدل على كون كتاب الله محفوظاً من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذكراً لله سبحانه فهو ذكر حي خالد.

٧- قال العلامة البلاغي في تفسيره آلاء الرحمن في ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولئن سمعت في الروايات الشاذة شيئاً في تحريف القرآن وضياح بعضه فلا تُقم لتلك الروايات وزناً وقل ما يشاء العلم في اضطرابها ووهنها وضعف رواياتها ومخالفتها للمسلمين.

٨- قال العلامة الشيخ محمد حسين الكاشف الغطاء في كتابه أصل الشيعة وأصولها «إن الكتاب الموجود بين المسلمين هو الكتاب الذي أنزله الله إليه - رسول الله - للإعجاز والتحدي وإنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة وعلى هذا إجماعهم».

٩- قال السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة «لا يقول أحد من الإمامية لا قديماً ولا حديثاً من مزيد فيه قليل أو كثير فضلاً عن كلهم بل كلهم متفقون على عدم الزيادة، ومن يمتد بقوله من محققهم متفقون على أنه لم ينقص منه».

١٠- قال السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي رحمه الله في كتابه الفصول المهمة:

«والقرآن الحكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي الناس لا يزيد حرفاً ولا يستقص حرفاً، ولا تبديل فيه لكلمة بكلمة ولا لحرف بحرف».

١١- قال العلامة المجلسي في كتابه البحار ج ٩ ص ١١٣ في تفسيره (وإنما له لحافظون): عن الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف.

١٢- قال الشيخ محمد رضا المظفر رحمه الله في كتابه عقائد الإمامية ص ٤٨:

«لا يعتره التبديل والتغيير والتحريف وهذا الذي بين أيدينا نتلوه هو نفس القرآن المنزل على النبي ومن ادعى غير ذلك فهو مختلق أو مغالط أو مشبه وكلهم على غير هدى، فإنه كلام الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾».

١٣- قال السيد الخوئي رحمته الله في كتابه البيان في تفسير القرآن ص ٢٧٨:

«إن حديث تحريف القرآن حديث خرافه وخيال لا يقول به إلا من ضعف عقله أو من لا يتأمل في أهدافه حق التأمل».

١٤- قال السيد نعمه الله الجزائري في كتابه الأنوار النعمانية: «القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله وجعله معجزة باقية له إلى يوم القيامة هو القرآن الموجود بين أيدينا الآن لا زيادة فيه ولا نقصان ولا تحريف ولا تغيير» وقد ألف العديد من الشيعة كتباً في الرد على القائلين بالتحريف راجع الانتصار للعاملي ج ٣ ص ١٦. والبيان للسيد الخوئي وغيرهما.

البحث الثاني

روايات نقص القرآن وزيادته في مصادر أهل السنة

ذكرت الكتب والمصادر السنية روايات تدل على نقص القرآن وزيادته.

منها:

١- قال السيوطي في الدر المنثور^(١) وأخرج ابن مردويه عن عمر بن

الخطاب قال:

قال رسول الله ﷺ «القرآن ألف حرف وسبعة وعشرون ألف حرف فمن قرأه صابراً محتسباً فله بكل حرف زوجة من الحور العين» قال بعض العلماء هذا العدد باعتبار ما كان قرأناً ونسخ رسمه وإلا فالموجود الآن لا يبلغ هذه العدة ورواه المتقي الهندي في مجمع الزوائد ١٦٣/٧ ورواه الطبراني في الأوسط وذكره الذهبي في الميزان لهذا الحديث ورواه المتقي الهندي في كنز العمال ٥١٧/١.

والرواية ضعيفة وليست صحيحة حيث أن عدد حروف القرآن ثلاث مئة ألف حرف وزيادة وهي لا تبلغ ثلث العدد الذي قاله الخليفة في الرواية فيكون مقصودة ضياع أكثر من ثلثي القرآن بعد النبي ﷺ ولا يمكن قبول رواية السيوطي بأن من نسخ من القرآن أكثر من الثلثين.

٢- قال ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٢) قال الطبراني حدثنا

(١) الدر المنثور للسيوطي ٤٢٢/٦.

(٢) لسان الميزان ٢٧٧٥.

محمد بن عبيد قال حدثنا أبي عن جدي عن حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ «القرآن ألف ألف حرف وسبعة وعشرون ألف حرف فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين».

ووثقه الهيثمي في مجمع الزوائد^(١) وقال الهندي في كنز العمال ج ٢ ص ٥٦٧ من مسند عمر عن المسور بن مخرمه قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: (أسقط ما أسقط من القرآن).

وروى صاحب كنز العمال في ج ٦/ص ٢٠٨ عن عدي بن عدي بن عميرة بن فروه عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب قال لأبي: أوليس كنا نقرأ من كتاب الله: إن انتفاءكم من آبائكم كفر بكم فقال بلى، ثم قال أوليس كنا نقرأ الولد للفراس وللعاقر الحجر؟ قال: بلى ثم قال عمر فقدنا من كتاب الله ما فقدنا.

وروى الهندي في كنز العمال ج ٢/٤٨٠ وروى السيوطي في الدر المنثور ج ٥/١٨٠ عن حذيفة عن عمر قال: قال لي عمر بن الخطاب كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلت اثنتين أو ثلاثاً وسبعين آية قال عمر إن كانت لتقارب سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم وبما أن سورة البقرة ٢٨٦ آية، فيكون الناقص من سورة الأحزاب حسب رأي عمر أكثر من ماتتي (٢٠٠) آية.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٧/٢٨٧ عن أبي موسى الأشعري عن حذيفة قال تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما تقرؤون منها مما كنا

(١) مجمع الزوائد ١٦٣٧.

نقرأ إلا ربيعها وروى الحاكم في مستدرکه ٣٣٠/٢ كذلك وقال عبد الله بن سلمه عن حذيفة قال ما تقرأون إلا ربيع سورة التوبة (سورة براءة) وروى هذا الحديث الطبراني في الأوسط ٢٢٠/٣. وكذلك رواه السيوطي في الدر المنثور ١٠٥/١ والظاهر أن أصل هذا الإدعاء هو من أبي موسى الأشعري ولا بد أن تكون هذه السورة المزعومة موجودة في مصحف أبي موسى الذي صادره منه حذيفة بأمر الخليفة عثمان.

ملاحظة:

وكتب الفخر الرازي موضوعاً بعنوان أسماء أكابر سلف أهل السنة الذين قالوا بتحريف القرآن واعترف أكابر علمائهم به ومن الذين قالوا بتحريف القرآن من أكابر سلف أهل السنة هم:

الأول: الخليفة عمر بن الخطاب كما مر سابقاً.

الثاني: الخليفة عثمان بن عفان في حديث لما أتني إليه بالمصحف رأي فيه شيئاً من اللحن فقال: قد أحسستم وأجملتم أرى شيئاً من اللحن بألستكم، أخرجه بن أبي داود في سننه ٣٢٠/٣ عن يحيى بن يعمر.

الثالث: أبي موسى الأشعري كما مر سابقاً.

الرابع: عبد الله بن مسعود.

فهو ينفي سورة المعوذتين.

راجع الوسائل ٧٨٩/٤ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال عن المعوذتين أهما من القرآن؟ فقال الصادق عليه السلام هما من القرآن. فقال الرجل: إنهما ليستا من القرآن في قراءة ابن مسعود ولا في مصحفه فقال الإمام عليه السلام: أخطأ ابن مسعود - وفي رواية أخرى قال كذب ابن مسعود وهما من

القرآن فقال الرجل أقرأ بهما في المكتوبة؟ فقال عليه السلام: نعم.

الخامس: سيد القراء أبي بن كعب ينقل عنه السيوطي في الدر المنثور ٣٧٨/٦ إن القرآن ناقص آية هي: (لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيته سأل ثانياً فأعطيته وإن سأل ثالثاً فأعطيته، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب وإن الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية وممن يعمل خيراً فلن يكفره).

أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ٢٢٤/٢ وعلق عليه بقوله هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وكذا رواه أحمد في مسنده ١٧٧/٥ وقال أيضاً حديث صحيح الإسناد.

السادس: حبر الأمة عبد الله بن عباس ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٣٦/١٨ عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأ هذه الآية: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) - كان يقرأها ابن عباس (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا الله) (راجع الدر المنثور ١٧٠/٤).

السابع: عائشة بنت أبي بكر:

عن عروة أنه سأل عائشة عن لحن القرآن (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون)، (قالوا إن هذان لساحران) فقالت يا ابن أختي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب (راجع الدر المنثور ٢٤٦/٢).

ثم ذكر السيوطي ج ١ ص ٣٠٢ عن هشام بن عروة قال قرأت في مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاح العصر وقوموا لله قانتين).

ونحن نقول هذا الخبر مكذوب على عائشة لأن هشام بن عروة قد

ولد سنة إحدى وستين وتوفيت عائشة سنة سبع وخمسين للهجرة) فلم تر عائشة هشاماً وليداً.

الثامن: حفصة بنت عمر تشهد لإدخال زيادة في القرآن (راجع الدر المنثور ٣٠٢/١).

أن حفصة أدخلت في مصحفها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر) فقال لها عمر ألك بهذا بينة؟ قالت لا! قال عمر فوالله لا ندخل في القرآن ما تشهد به امرأة بلا إقامة بينه.

تنبيه: حفصة تحرف القرآن عملياً عن عمد بعد أن لم تستطع إدخال الزيادة في قرآن المسلمين فعلت ذلك في مصحفها^(١)

التاسع: عبد الله بن عمر.

عن ابن عمر قال: لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله: ما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير^(٢).

العاشر: مروان بن الحكم قال (وجعلوا الملائكة عند الرحمن إنائاً) ليس فيه (الذين هم) ما أنزله الله تعالى هي الآية (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنائاً)^(٣).

الحادي عشر: عبد الله بن الزبير.

في الدر المنثور ٣١٢/٦: أخرج الفراء عن ابن الزبير أنه قال على المنبر

(١) الدر المنثور ٣٠٢/١

(٢) الدر المنثور ١٠٦٧١

(٣) الدر المنثور ٥/٦

ما بال صبيان يقرؤون (نخرة) إنما هي (ناخرة) وفي الدر المثور ٣٨١/١ عن عمر وابن دينار قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول صبياناً يقرؤون (في عين حمئة) وإنما هي (حامية).

الثاني عشر: عروة بن الزبير عن هشام بن عروة بن الزبير قال كان أبي يقرؤها (وما هو على الغيب بضنين) (كذا) أي يضيف كذا على الآية (الدر المثور ٣٢١/٦).

ونكتفي بهؤلاء ومن أراد الإطلاع على غيرهم ممن نسب إليهم التحريف كابن شهاب الزهري وعكرمة مولى بن عباس وأبان بن عثمان بن عفان ومجاهد بن جبر والضحاك بن مزاحم وغيرهم فليرجع إلى الدر المثور ٣٣/٢ - ٢٧٥.

وكذا يرجع إلى الانتصار للعالمي ٥٥/٣ - ٥٩.

البحث الثالث

محاولات تحريف مكشوفة من خليفة النبي

حاول الخليفة عمر في عملية فاشلة لتحريف آية في القرآن الكريم لمصلحة قريش ضد الأنصار:

الآية الكريمة التي حاول تحريفها هي قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ
الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^(١) [التوبة ١٠٠].

قال ابن شبه في تاريخ المدينة ٧٠٧/٢ فقال حدثنا معاذ بن شبه بن
عبيده قال حدثني أبي عن أبيه عن الحسن: قرأ عمر (والسابقون الأولون من
المهاجرين الذين اتبعوهم بإحسان)

وقال عمر: أشهد أن الله أنزلها هكذا، فقال أبي بن كعب: (أشهد أن الله
أنزلها هكذا والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم
بإحسان).

راجع أيضاً منتخب كنز العمال ٥٥/٢.

قال المتقي الهندي: ثم أن أبي قسم فقال: والله أقرأنيها رسول الله ﷺ
وأنت (عمر) تتبع الخبط.

(١) الدر المنثور للسيوطي ٤٢٢/٦، مجمع الزوائد للهيتمي ١٦٢٧، كنز العمال ٥١٧/٢.

ونفهم من هذه الروايات الصحيحة عندهم أن الخليفة عمر يرى أن قريشاً كلها فوق الجميع ولا يجوز أن يساوي بها أحد ولكن وقفة الصحابي المقرَّب وحافظ القرآن هو أبي بن كعب الذي استطاع أن يقف مقابل الخليفة في مسألة تمس كيان لأنصار هي التي أرجعت الخليفة عن محاولة التحريف فوا مصيبتاه من هذه الجرأة على تحريف آية من كتاب الله.

البحث الرابع

آيات زعم عمر وعائشة أنها من القرآن هي

٢-١- آية الرجم وآية الشيخ والشيخة (راجع البخاري في صحيحه ٢٥/٨).

٣- آية لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم (راجع البخاري في صحيحه ٢٤/٨). ومجمع الزوائد للهيتمي ٩٧/١ وكنز العمال ٤٨٠/٢).

٤- آية حق جهاده في آخر الزمان. قال السيوطي في الدر المشور ٣٧١/٤ أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي عمر: ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ: وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله؟ ورواه أيضاً في كنز العمال ٤٨٠/٢.

٥- آية: الولد للفراش وللعاهر الحجر. روى في كنز العمال ٢٠٨/٦ عن عدي بن عدي بن عميرة بن فروة عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب قال لأبي: أوليس كنا نقرأ من كتاب الله: (الولد للفراش وللعاهر الحجر) هذا مع أن مصادر الشيعة والسنة روت أن قاعدة الولد للفراش وللعاهر الحجر هي حديث للنبي ﷺ. راجع سنن الترمذي ٣١٣/٢، وسنن النسائي ١٨٠/٦ عن أبي هريرة ومسنند أحمد ٢٥/١ ورواه الهيتمي في مجمع الزوائد ١٤/٥.

٦- آية: لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.

ولكن البخاري روى في صحيحه ١٧٥/٧ أن هذا حديث نبوي وليس

آية من القرآن وكذلك روى مسلم في صحيحه ١٠٠/٣ أن هذا حديث نبوي وليس آية من القرآن.

٧- التسيحات الأربع من القرآن (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) هذه التسيحات من القرآن كما يقول عمر حيث قال أربع من أطيب الكلام وهن من القرآن لا يضرك بأيهن بدأت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

راجع مسند أحمد ١١/٥ وسنن النسائي ١٤٢/٢، وهذه الرواية مناقضة لما ورد في مصادرهم ولما أتفق عليه المسلمون من أن التسيحات الأربع حديث شريف وليس قرآناً.

٨- آية عائشة التي أكلتها السخلة. قال السيوطي في الدر المنثور ١٣٥/٢، أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال قالت أم المؤمنين عائشة نزل في القرآن آية تحدد الرضاعة بعشر رضعات، ثم نسخت ونزلت آية تكتفي بخمس رضعات: وأن تلك الآية كانت حتى توفي النبي تقرأ في القرآن وكانت مكتوبة عندها على ورقة وموضوعة تحت سريرها ولكنها انشغلت بوفاة النبي وبعدها فدخلت سخلة ملعونة وأكلت الورقة، فخرس المسلمون إلى يوم القيامة هذه الآية.

وراجع أيضاً صحيح مسلم ١٦٧/٤.

البحث الخامس البسمة جزء من القرآن

— هل البسمة من القرآن؟

من الأمور التي اختلفت الشيعة بها مع السنة هي مسألة البسمة، اتفقت الشيعة الإمامية على أن البسمة آية من كل سورة بدئت بها وذهب إليه ابن عباس وابن المبارك وأهل مكة كابن كثير، وأهل الكوفة كعاصم والكسائي وغيرهما وذهب إليه أيضاً غالب أصحاب الشافعي^(١). وجزم به قراء مكة والكوفة، وحكي هذا القول عن ابن عمر، وابن الزبير وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير وأما أهل السنة فقد ذهب مالك والأوزاعي على أنها ليست من القرآن ومنعوا من قراءتها في الفرائض مطلقاً. أما أبو حنيفة فقد أوجب قراءتها في الصلاة قبل الفاتحة لكن الشافعي قرأها في الجهريات جهراً وفي الإخفائيات إخفاتاً وعدها آية من فاتحة الكتاب وهذا قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وأبي عبيدة.

* أدلة جزئية للبسمة للقرآن.

الدليل الأول: أحاديث أهل البيت عليهم السلام:

وهي الروايات المتواترة والصحيحة المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام الصريحة في ذلك^(٢) ومنها:

(١) راجع تفسير الأتوسي ٢٩٦/١، مسند أحمد ١١/٥.

(٢) راجع فروع الكافي باب قراءة القرآن ص ٨٦ والاستبصار ٣١١/١ والتهذيب ١٥٢/١، وسائل الشيعة

١- عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إذا قمت للصلاة اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة القرآن؟ قال نعم قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم مع السورة، قال نعم ^(١).

٢- عن يحيى بن أبي عمران الهمداني قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام جعلت فداك ما تقول في رجل ابتداءً ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاته وحده في أم الكتاب فلما صار إلى غير أم الكتاب من السورة تركها؟ فقال العباسي: ليس بذلك بأس فكتب بخطه الشريف يعيدها مرتين على رغم أنف العباسي ^(٢).

الدليل الثاني: أحاديث أهل السنة:

وقد دلت روايات كثيرة من طرق أهل السنة على أن البسملة جزء من القرآن، نذكر جملة منها:

١- ما رواه أنس قال:

بينما رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي أنفاً سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) ^(٣).

٢- ما صح عن ابن عباس أيضاً قال: إن النبي الأكرم كان إذا جاءه جبرائيل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة ^(٤).

(١) الكافي ٣/٣١٢.

(٢) الكافي ٣/٣١٣.

(٣) صحيح مسلم ١٢/٢ وسنن النسائي باب قراءة البسملة ١/١٤٢.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدرکه ١/٢٣١.

٣- عن أم سلمة قالت كان النبي ﷺ يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين إلى آخرها، يقطعها حرفاً حرفاً^(١).

٤- ما أخرجه الدارقطني أيضاً بسند صحيح عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتُم الحمد فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها»^(٢).

الدليل الثالث: سيرة المسلمين:

لقد استقرت سيرة المسلمين على قراءة البسملة في أوائل السور غير سورة براءة وثبت بالتواتر أن رسول الله كان يقرأها ولو لم تكن من القرآن للزم على الرسول الأكرم أن يصرح بذلك، فإن قراءته وهو في مقام البيان - ظاهرة في أن جميع ما يقرأ قرآن، ولم يكن بعض ما يقرأ قرآناً ثم لم يصرح بذلك لكان ذلك إغراء منه بالجهل وهو قبيح وفي ما يرجع إلى الوحي الإلهي أشد قبحاً ولو صرح الرسول الأكرم بذلك لتقل إلينا بالتواتر مع أنه لم ينقل حتى بالأحاديث.

الدليل الرابع: مصاحف التابعين والصحابة:

مما لا ريب فيه أن مصاحف التابعين والصحابة قبل جمع عثمان وبعده كانت مشتملة على البسملة ولو لم تكن من القرآن لما أثبتوها في مصاحفهم شهادة منهم بأنها من القرآن.

وما ذكرناه يبطل احتمال أن إثباتهم إياها كان للفصل بين السور. ويبطل هذه الدعوى أيضاً إثبات البسملة في سورة الفاتحة وعدم إثباتها في

(١) أخرجه الحاكم في مستدرکه ٢٣٢/١.

(٢) الإتيان ١٣٧١.

سورة براءة ولو كانت للفصل بين السور لأثبتت في الثانية، ولم تثبت في الأولى.

وذلك يدلنا قطعاً على أن البسمة آية منزلة في الفاتحة دون سورة براءة.

الدليل الخامس: ومما يقرر أنها جزء من القرآن وأنها آية من آيات سورة الفاتحة (السبع المثاني) هو ما جاء في القرآن نفسه في سورة الحجر آية ٨٧: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

ومما في كتب السنة ما جاء في مستدرك الحاكم ٢٥٧/٢ ونحوه في تلخيص الذهبي مؤكداً على صحة ذلك بسند معتمد عن ابن عباس (رض) عن النبي ﷺ فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين... إلى آخر السورة وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس في المستدرك للحاكم ٢٣١/٢ أنه قال أن البسمة آية وعند عدها آية يكون مجموع آياتها سبع.

* أدلة نفاة جزئية البسمة:

واستدل القائلون بأن البسمة ليست جزءاً من السورة بوجوه.

الوجه الأول: إن طريق ثبوت القرآن ينحصر بالتواتر، فكل ما وقع النزاع في ثبوته فهو ليس من القرآن، والبسمة مما وقع النزاع فيه. والجواب أولاً: أن كون البسمة من القرآن مما تواتر عن أهل البيت عليهم السلام ولا فرق في التواتر بين أن يكون عن النبي ﷺ وبين أن يكون عن أهل بيته المعصومين بعد أن ثبت وجوب أتباعهم.

وثانياً: أن ذهاب شذمة إلى عدم كون البسمة من القرآن لشبهه لا

يضر بالتواتر، مع شهادة جمع كثير من الصحابة بكونها من القرآن، ودلالة الروايات المتواترة عليه معنى.

وثالثاً: إنه قد تواتر أن النبي قرأ البسملة حينما يقرأ سورة من القرآن وهو في مقام البيان، ولم يبين أنها ليست منه وهذا يدل دلالة قطعية على أن البسملة من القرآن، نعم لا يثبت بهذا أنها جزء من السورة. ويكفي لإثباته ما تقدم من الروايات، فضلاً عما سواها من الأخبار الكثيرة المروية من الطريقتين.

والجزئية تثبت بخبر الواحد الصحيح ولا دليل على لزوم التواتر فيها أيضاً.

الوجه الثاني: ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله يقول: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل: فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي وإذا قال: الرحمن الرحيم قال: اثني علي عبدي وإذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى مجدني عبدي وإذا قال العبد إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله تعالى هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال اهتدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»^(١).

وتقريب الاستدلال في هذه الرواية أنها تدل بظاهرها - على أن ما بعد آية إياك نعبد وإياك نستعين يساوي ما قبلها في العدد ولو كانت البسملة جزء من الفاتحة لم يستقم معنى الرواية وذلك لأن سورة الفاتحة كما

(١) صحيح مسلم ٦٧ وسنن أبي داود ١٣٠/١ وسنن النسائي ١٤٤/١.

عرفت سبع آيات فإن كانت البسمة جزءاً كان ما بعد آية: إياك نعبد وإياك نستعين آيتين، ومعنى ذلك أن ما قبل هذه الآية ضعف ما بعدها فالفاتحة لا تنقسم على نصفين في العدد ولهذا لم يذكر البسمة والجواب عنه أولاً:
إن الرواية مروية عن العلاء، وقد اختلف فيه بالتوثيق والتضعيف^(١).

وثانياً: أنه لو تمت دلالتها فهي معارضة بالروايات الصحيحة المتقدمة الدالة على أن الفاتحة سبع آيات مع البسمة لا بدونها وثالثاً: إنه لا دلالة في الرواية على أن التقسيم بحسب الألفاظ، بل الظاهر إنه بحسب المعنى، فالمراد أن أجزاء الصلاة بين ما يرجع إلى الرب وما يرجع إلى العبد حسب المدلول.

ورابعاً: - إنه لو سلمنا أن التقسيم إنما هو بحسب الألفاظ فأى دليل على أنه بحسب عدد الآيات، فلعله باعتبار الكلمات فإن الكلمات المتقدمة على آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والمتأخرة عنها مع احتساب البسمة وحذف المكررات عشر كلمات.

وخامساً: إن هذا معارض بخبر صحيح عن ابن عباس مرفوعاً مباشرة عن النبي ﷺ وفيه: قُسِّمَتِ الصَّلَاةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِئِى فَإِذَا قَالَ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِىْمِ قَالَ اللّٰهُ دَعَانِى عَبْدِى... إلى آخره^(٢).

الوجه الثالث: ما رواه أبو هريرة (من أن سورة الكوثر ثلاث آيات وأن سورة الملك ثلاثون آية كما جاء في مستدرک الحاكم ٥٦٥/١ وصحيح الترمذي ٣٠/١١) فلو كانت البسمة جزءاً منها لزداد عددهما على ذلك.

(١) تهذيب الكمال ٣٦٥/٢٧، ميزان الاعتدال ٢٣٧٣.

(٢) سنن النسائي ١٤٤/١، سنن أبي داود ١٣٠/١.

والجواب: إن رواية أبي هريرة في سورة الكوثر على فرض صحة سندها معارضة برواية أنس التي تقول أن بسم الله الرحمن الرحيم جزء من سورة الكوثر وهذه رواية مقبولة روتها جميع الصحاح فرواية أبي هريرة مطروحة بإرادة الآيات المختصة، فإن البسمة مشتركة بين جميع السور، وهذا هو جواب روايته في سورة الملك بالإضافة إلى أن أبا هريرة روى عن النبي الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم أخرجه الحاكم في مستدرکه ٢٣٢/١.

الوجه الرابع: إن البسمة لو كانت آية من الفاتحة للزم التكرار فيها بالرحمن الرحيم ولو كانت جزءاً من سورة للزم تكرارها في القرآن الكريم مائة وثلاث عشرة مرة. والجواب: أن التكرار موجود في الكتاب الكريم وذلك اهتماماً ببعض الشؤون العظمى وتأكيداً لها مثلاً قصة موسى مكررة في القرآن كما وقد جاء التكرار في سورة الرحمن والمرسلات. بالإضافة أن لكل بسمة في كل سورة معنى فلا يلزم التكرار.

البحث السادس

صيانة القرآن من التحريف

وفيه أبواب:

- * الباب الأول: معنى التحريف.
- * الباب الثاني: رأي المسلمين في التحريف.
- * الباب الثالث: نسخ التلاوة مذهب مشهور بين علماء السنة.
- * الباب الرابع: التحريف والكتاب.
- * الباب الخامس: التحريف والسنة.
- * الباب السادس: دعوى وقوع التحريف من بعض الخلفاء
- * الباب السابع: شبهات القائلين بالتحريف.

الباب الأول:

معنى التحريف

يطلق لفظ التحريف ويراد منه عدة معان على سبيل الاشتراك فبعض منها واقع في القرآن باتفاق من المسلمين وبعض منها لم يقع فيه باتفاق منهم أيضاً وبعض منها وقع الخلاف بينهم وإليك تفصيل ذلك.

الأول: التحريف المعنوي (نقل الشيء عن موضعه وتحويله إلى غيره) ومنه قوله تعالى ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَاخْتَرَفُوا لِكَلِمَةٍ عَن مَّوَاضِعٍ﴾^(١).

ولا خلاف بين المسلمين في وقع مثل هذا التحريف المعنوي في كتاب الله فإن كل من فسّر القرآن بغير حقيقته وحمله على غير معناه فقد حرّفه وترى كثيراً من أهل البدع والمذاهب الفاسدة قد حرّفوا القرآن بتأويلهم آياته على آرائهم وأهوائهم وقد ورد المنع عن التحريف بهذا المعنى وذم فاعله في عدة من الروايات^(٢).

الثاني: التحريف اللفظي ويكون على أقسام:

١- النقص أو الزيادة في الحروف أو في الحركات مع حفظ القرآن وعدم ضياعه.

والتحريف بهذا المعنى واقع في القرآن قطعاً، فقد ثبت عدم تواتر القراءات ومعنى هذا أن القرآن المنزل إنما هو مطابق لإحدى القراءات وأما

(١) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٢) الوافي: ٢٧٤/١.

غيرها فهو إما زيادة في القرآن وإما نقيصة فيه.

الثالث: ٢- القسم الثاني من أقسام التحريف اللفظي (النقص أو الزيادة بكلمة أو كلمتين، مع التحفظ على نفس القرآن المنزل) وهذا التحريف بهذا المعنى قد وقع في صدر الإسلام وفي زمان الصحابة قطعاً ويدلنا على ذلك إجماع المسلمين على أن عثمان أحرق جملة من المصاحف وأمر ولاته بحرق كل مصحف غير ما جمعه وهذا يدل على أن هذه المصاحف كانت مخالفة لما جمعه، وإلا لم يكن هناك سبب موجب لإحراقها، وعلى ذلك فالتحريف واقع لا محالة إما من عثمان أو من كتاب تلك المصاحف، ولكننا سنبين بعد هذا إن شاء الله تعالى أن ما جمعه عثمان كان هو القرآن المعروف بين المسلمين، الذي تداولوه عن النبي الأكرم يداً بيد فالتحريف بالزيادة والنقيصة إنما وقع في تلك المصاحف التي انقطعت بعد عهد عثمان وأما القرآن الموجود فليس فيه زيادة ولا نقيصة.

الرابع: ٣- القسم الثالث من أقسام التحريف اللفظي التحريف بالزيادة والنقيصة في الآية والسورة مع التحفظ على القرآن المنزل، والتسالم على قراءة النبي ﷺ إياها، والتحريف بهذا المعنى أيضاً واقع في القرآن قطعاً بالبسملة - مثلاً مما تسالم المسلمون على أن النبي ﷺ قرأها قبل كل سورة غير سورة التوبة وقد وقع الخلاف في كونها من القرآن بين علماء السنة وأما الشيعة فهم متسالمون على جزئية البسملة من كل سورة غير سورة التوبة واختار هذا القول جماعة من علماء السنة أيضاً فمنهم الشافعي^(١)، وإذن فالقرآن المنزل من السماء قد وقع فيه التحريف يقيناً

(١) الفقه المقارن على المذاهب الأربعة للجزري ١٧٦١.

بالزيادة أو بالنقصان^(١)، وأما القرآن الموجود بين أيدينا فليس فيه زيادة ولا نقصان وسوف يأتي بيانه ذلك إن شاء الله تعالى.

الخامس: ٤- القسم الرابع من أقسام التحريف اللفظي: - التحريف بالزيادة بمعنى أن بعض المصحف الذي بأيدينا ليس من الكلام المنزل. والتحريف بهذا المعنى باطل بإجماع المسلمين.

السادس: ٥- القسم الخامس من أقسام التحريف اللفظي: التحريف بالنقصان، بمعنى أن المصحف الذي بأيدينا لا يشمل على جميع القرآن الذي نزل من السماء فقد ضاع بعضه على الناس والتحريف بهذا المعنى هو الذي وقع فيه الخلاف فأثبتته بعض أهل السنة ونفاه آخرون فهو المشهور عند الشيعة الإمامية وبعض أعلام السنة بمعنى عدم وقوع التحريف عند الشيعة وبعض أهل السنة.

(١) البيان في تفسير القرآن للسيد المحقق الخوئي باب معنى التحريف.

الباب الثاني:

رأي المسلمين في التحريف

المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن، وأن الموجود بأيدنا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم ﷺ وقد صرح بذلك كثير من الأعلام.

منهم الصدوق وقد عدّ القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية. ومنهم شيخ الطائفة الشيخ الطوسي وصرح بذلك في أول تفسيره التبيان ونقل القول بذلك أيضاً عنه علم الهدى السيد المرتضى في أماليه الجزء الأول ومنهم شيخ الفقهاء الشيخ جعفر في كتابه كشف الغطاء ومنهم بطل العلم الشيخ محمد جواد البلاغي في مقدمة تفسيره آلاء الرحمن. ومنهم الشيخ المفيد والشيخ البهائي وغيرهم من علماء الشيعة ومحققهم^(١) بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف، نعم ذهب جماعة من بعض محدثي الشيعة وجمع من علماء أهل السنة إلى وقوع التحريف وهؤلاء لا يؤخذ برأيهم كما يقول المحقق الخوئي رحمته الله بعد إثباته عدم التحريف بالأدلة الموجودة في الكتاب تحت الباب الرابع. قال الرافعي: فذهب جماعة من أهل الكلام ممن لا صناعة لهم إلا الظن والتأويل.

أقول: سيظهر لك بعد هذا أن القول بنسخ التلاوة هو بعينه القول بالتحريف وعليه فاشتهار القول بوقوع النسخ في التلاوة - عند أغلب علماء أهل السنة يستلزم اشتهاار القول عندهم بالتحريف.

(١) راجع البحث الأول - التحريف وأقوال العلماء في هذا الكتاب.

الباب الثالث:

نسخ التلاوة

ذكر أكثر علماء أهل السنة: إن بعض القرآن قد نسخت تلاوته وحملوا على ذلك ما ورد في الروايات أنه كان قرأناً على عهد رسول الله ﷺ فيحسن بنا أن نذكر جملة من هذه الروايات ليتبين أن الالتزام بصحة هذه الروايات الالتزام بوقوع التحريف في القرآن.

١- روى ابن عباس أن عمر قال فيما قال وهو على المنبر: إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها... إلى أن يقول قائل، والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله^(١). أقول: وآية الرجم التي ادعى عمر أنها من القرآن ولم تقبل منه رويت بوجوه عديدة ثم الاختلاف بالأسلوب يدل على عدم صحتها من القرآن.

منها (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجمهما البتة نكالا من الله) ومنها الشيخ والشيخة فارجمهما البتة بما قضيا من اللذة) ومنها إن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجمهما البتة) وغير هذه الوجوه راجع صحيح البخاري ٢٧/٨، صحيح مسلم ١١٥/٥.

٢- وأخرج الطبراني بسند موثق عن عمر بن الخطاب مرفوعاً (القرآن ألف ألف وسبعة وعشرون ألف حرف^(٢)) بينما القرآن الذي بين أيدينا لا يبلغ ثلث هذا المقدار، وعليه فقد سقط من القرآن أكثر من ثلثيه.

(١) صحيح البخاري ٢٦٨ وصحيح مسلم ١١٦٥.

(٢) الاتقان ١٢١/١، مجمع الزوائد ١٦٣/٧، كنز العمال ٥١٧/١، الدر المشور ٤٢٢/٦.

٣- وروى عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم تقدر منها إلا ما هو الآن^(١) وغير ذلك من الروايات التي تصرح بالتحريف إذا التزمنا بها راجع المرجع ومنها الدر المنثور ٤٤٢/٦.

وغير خفي أن القول بنسخ التلاوة هو بعينه القول بالتحريف والإسقاط. وبيان ذلك: أن نسخ التلاوة هذا إما أن يكون قد وقع من الرسول الأعظم وإما أن يكون ممن تصدى للزعامة بعده، فإن أراد القائلون بالنسخ وقوعه من الرسول فهو أمر يحتاج إلى الإثبات وقد اتفق العلماء أجمع على عدم جواز نسخ كتاب الله بخبر الواحد وقد صرح بذلك جماعة في كتب الأصول وغيرها^(٢) بل قطع الشافعي وأكثر أصحابه وأكثر أهل الظاهر بامتناع نسخ الكتاب بالسنة المتواترة وإليه ذهب أحمد بن حنبل وعلى ذلك فكيف تصح نسبه إلى النبي ﷺ بإخبار هؤلاء الرواة؟ وهي أخبار آحاد مع أن نسبة النسخ إلى النبي تنافي جملة من الروايات الصحيحة التي تضمنت أن الإسقاط قد وقع بعده. وإن أرادوا أن النسخ قد وقع من الذين تصدوا للزعامة بعد النبي فهو عين القول بالتحريف وعلى ذلك فيمكن أن يدعى أن القول بالتحريف هو مذهب أكثر علماء أهل السنة لأنهم يقولون بجواز نسخ التلاوة سواء نسخ الحكم أم لا. نعم ذهب طائفة المعتزلة إلى عدم جواز نسخ التلاوة^(٣) ومن العجيب أن جماعة من علماء السنة أنكروا نسبة القول بالتحريف إلى أحد

(١) الاتقان ١/٢-٤١، كنز العمال ٤٨٠/٢، الدر المنثور ١٨٠/٥.

(٢) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ١٠٦٧.

(٣) الأحكام في أصول الأحكام للأمدي ٢١٧/٣.

من علمائهم حتى أن الألويسي كذّب الطبرسي في نسبة القول بالتحريف إلى الحشوية وأعجب من ذلك أنه ذكر أن قول الطبرسي بعدم التحريف نشأ من ظهور فساد قول أصحابه بالتحريف فالتجأ هو إلى إنكاره^(١) مع أنك قد عرفت أن القول بعدم التحريف هو المشهور بل المتسالم عليه بين علماء الشيعة ومحققهم.

(١) روح المعاني ٢٤١/١.

الباب الرابع:

التحريف والكتاب

والحق بعد هذا كله أن التحريف (بالمعنى الذي وقع النزاع فيه) غير واقع في القرآن أصلاً بالأدلة التالية الدليل الأول - قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) فإن في هذه الآية دلالة على حفظ القرآن من التحريف، وأن الأيدي الجائرة لن تتمكن من التلاعب فيه. والقائلون بالتحريف قد أولوا هذه الآية الشريفة، وذكروا في تأويلها وجوهاً:

الوجه الأول:

أن الذكر هو الرسول (فقد ورد استعمال الذكر فيه في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الذِّكْرَ﴾، ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾^(٢) وهذا الوجه بين الفساد: لأن المراد بالذكر هو القرآن في كلتا الآيتين بقريته التعبير (بالنزيل والإنزال) ولو كان المراد بالذكر هو الرسول لكان المناسب أن يأتي بلفظ الإرسال أو بما يقاربه في المعنى على أن هذا الاحتمال إذا تم في الآية الثانية فلا يتم في آية الحفظ فإنها مسبوقه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(٣) ولا شبهه في أن المراد بالذكر في هذه الآية هو القرآن، فتكون قريته على أن المراد من الذكر في آية الحفظ هو القرآن لا غيره.

(١) سورة الحجر الآية ٩

(٢) سورة الطلاق الآية ١٠، ١١.

(٣) سورة الحجر: الآية ٦.

الوجه الثاني:

(أن يراد من حفظ القرآن صيانتَه عن القدح فيه، وعن إبطال ما يتضمنه من المعاني العالية، والتعاليم الجليلة) وهذا الاحتمال أبين فساداً من الأول: لأن صيانتَه عن القدح إن أريد بها حفظه من قدح الكفار والمعاندين فلا ريب في بطلان ذلك، لأن قدح هؤلاء في القرآن فوق حد الإحصاء وإن أريد أن القرآن رصين المعاني قوي الاستدلال مستقيم الطريقة وأنه لهذه الجهات ونحوها أرفع مقاماً من أن يصل إليه قدح القادحين وريب المرتابين فهو صحيح ولكن هذا ليس من الحفظ بعد التنزيل كما تقوله الآية، لأن القرآن بما له من الميزان حافظ لنفسه، وليس محتاجاً إلى حافظ آخر وهو غير مفاد الآية الكريمة، لأنها تضمنت حفظه بعد التنزيل^(١) فالمراد بالحفظ في آية الحفظ من قبله تعالى هو عدم التحريف والتقيصة بمعنى صيانتَه من الزيادة والتقيصة.

الوجه الثالث:

دلت على حفظ القرآن في الجملة ولم تدل على حفظ كل فرد من أفراد القرآن، فإن هذا غير مراد من الآية بالضرورة وإذا كان المراد حفظه في الجملة كفى في ذلك حفظه عند الإمام الغائب.

وهذا الاحتمال أو هن الاحتمالات، لأن حفظ القرآن يجب أن يكون عند من أنزل إليهم وهم عامة البشر، أما حفظة عند الإمام فهو نظير حفظه في اللوح المحفوظ، أو عند ملك من الملائكة وهو معنى تافه يشبه قول القائل إنني أرسلت إليك بهديه وأنا حافظ لها عندي أو عند بعض خاصتي،

(١) البيان في تفسير القرآن، ٢٠٨١.

ومن الغريب قول هذا القائل إن المراد في الآية حفظ القرآن في الجملة لا حفظ كل فرد من أفرادها فكأنه توهم أن المراد بالذكر هو القرآن المكتوب.

أو الملفوظ لتكون له أفراد كثيرة، ومن الواضح أن المراد ليس ذلك لأن القرآن المكتوب أو الملفوظ لا دوام له خارجاً وإنما المراد بالذكر هو المحكي بهذا القرآن الملفوظ أو المكتوب وهو المنزل على رسول الله والمراد بحفظ صيانه عن التلاعب وعن الضياع.

الوجه الرابع

نعم هنا شبهة أخرى ترد على الاستدلال بالآية الكريمة على عدم التحريف وحاصل هذه الشبهة أن مدعي التحريف في القرآن يحتمل وجود التحريف في هذه الآية نفسها لأنها بعض آيات القرآن أفلا يكون الاستدلال بها صحيحاً حتى يثبت عدم التحريف فلو أردنا أن نثبت عدم التحريف بها كان ذلك من الدور الباطل بمعنى توقف الشيء على نفسه

وهذه الشبهة تدل على عزل العترة الطاهرة عن الخلافة الإلهية، ولم يعتمد على أقوالهم وأفعالهم فإنه لا يسعه دفع هذه الشبهة، وأما من يرى أنهم حجج الله على خلقه، وأنهم قرناء الكتاب في وجوب التمسك بدلالة حديث الثقلين المتواترة^(١) فلا ترد عليه هذه الشبهة لأن استدلال العترة بالكتاب وتقرير أصحابهم عليه يكشف عن حجية الكتاب الموجود، وإن قيل بتحريفه غاية الأمر أن حجية الكتاب على القول بالتحريف تكون متوقفة على إمضائهم.

(١) راجع البحث الأول في الإمامة.

الدليل الثاني: قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَكَنُزُّ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

فقد دلت هذه الآية الكريمة على نفي الباطل بجميع أقسامه عن الكتاب فإن النفي إذا ورد على الطبيعة أفاد العموم، ولا شبهه في أن التحريف من أفراد الباطل، فيجب أن لا يتطرق إلى الكتاب العزيز.

الشبهة على الاستدلال:

وقد أجيب عن هذا الدليل: - بأن المراد من الآية صيانة الكتاب من التناقض في أحكامه ونفي الكذب عن أخباره، واستشهد لذلك برواية علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لا يأتيه الباطل من بين يديه بمعنى من قبل التوراة ولا من قبل الإنجيل والزبور، ولا من خلفه أي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله»، ورواية مجمع البيان عن الصادق عليه السلام أنه ليس في إخباره عما مضى باطل ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل.

ويرد هذا الجواب: أن الرواية لا تدل على حصر الباطل في ذلك، لتكون منافية للدلالة الآية على العموم، وخصوصاً إذا لاحظنا الروايات التي دلت على أن معاني القرآن لا تختص بموارد خاصة، فالآية دالة على تنزيه القرآن في جميع الإعصار عن الباطل بجميع أقسامه، والتحريف من أظهر أفراد الباطل فيجب أن يكون مصوناً عنه، ويشهد لدخول التحريف في الباطل الذي نفته الآية عن الكتاب، أن الآية وصفت الكتاب بالعزة، وعزة الشيء تقتضي بالمحافظة عليه من التغيير والضياع، أما إرادة خصوص التناقض والكذب من لفظ الباطل في الآية الكريمة فلا يناسبها توصيف الكتاب بالعزة.

الباب الخامس:

التحريف والسنة

والدليل الثالث على عدم التحريف: حديث الثقلين المتواتر^(١).
 إن أخبار حديث الثقلين اللذين خلفهما النبي في أمته وأخبر أنهما لن
 يفترقا حتى يردا عليه الحوض، وأمر الأمة بالتمسك بهما هما الكتاب
 والعترة. وهذه الأخبار متظافرة بل متوافرة من طرق الفريقين والاستدلال
 بها على عدم التحريف في الكتاب يكون من ناحيتين.

الناحية الأولى: أن القول بالتحريف يستلزم عدم وجوب التمسك
 بالكتاب المنزل لضياعه على الأمة بسبب وقوع التحريف، ولكن وجوب
 التمسك بالكتاب باق إلى يوم القيامة لصريح أخبار الثقلين فيكون القول
 بالتحريف باطلاً جزماً وتوضيح ذلك:

أن هذه الروايات دلت على اقتران العترة بالكتاب وعلى أنهما باقيان
 في الناس إلى يوم القيامة فلا بد من وجود شخص يكون قريناً للكتاب ولا
 بد من وجود الكتاب ليكون قريناً للعترة حتى يردا على النبي الحوض
 وليكون التمسك بهما حافظاً للأمة عن الضلال والباطل ومن أفراد الباطل
 التحريف كما يقول النبي ﷺ في هذا الحديث ومن الضروري أن
 التمسك بالعترة إنما يكون بموالاتهم، وإتباع أوامرهم ونواهيهم والسير على
 هداهم.

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ١٢٢٧ - الحديث ٤٤٢٥، مستد أحمد: ١٧٣ - ٥٩٢٦ - ٣٦٧٤

- ١٨٢/٥ - ١٨٩. الحديث ٦٨١، والصواعق المحرقة ص ٨٩، والمراجعات، المراجعة ٨

ومن الناحية الثانية: إن القول بالتحريف يقتضي سقوط الكتاب عن الحجية، فلا يتمسك بظواهره فلا بد للقائلين بالتحريف من الرجوع إلى إمضاء الأئمة الطاهرين لهذا الكتاب الموجود بأيدينا وإقرار الناس على الرجوع إليه بعد ثبوت تحريفه ومعنى هذا أن حجية الكتاب الموجود متوقفة على إمضاء الأئمة للاستدلال به وأولى الحجتين المستقلتين اللتين يجب التمسك بهما، بل هو الثقل الأكبر فلا تكون حجيته فرعاً على حجية الثقل الأصغر، والوجه في سقوط الكتاب عن الحجية (على القول بالتحريف) هو احتمال اقتران ظواهره بما يكون قرينه على خلافها، أما الاعتماد في ذلك على أصالة عدم القرينة فهو ساقط فإن الدليل على هذا الأصل هو بناء العقلاء على إتباع الظهور وعدم اعتنائهم باحتمال وجود القرينة المنفصلة ولا باحتمال القرينة المتصلة إذا كان سببه احتمال غفلة المتكلم عن البيان أو غفلة السامع عن الاستفادة، والصحيح أن القرآن حجة بظواهره ولا بد من التمسك بظواهره فالقرآن بنفسه حجة مستقلة بظواهره. ولا حاجة إلى إمضاء الأئمة على حجيته في الظاهر وإذا كان حجة بظواهره فلا بد أن يكون خالياً من التحريف.

الدليل الرابع: ترخيص قراءة السورة في الصلاة:

إنه قد أمر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بقراءة سورة تامة بعد الفاتحة في الركعتين الأوليين من الفريضة.

ومن الواضح أن هذه الأحكام إنما ثبتت في أصل الشريعة بتشريع الصلاة وليس للتمية فيها أثر، وعلى ذلك فاللازم على القائلين بالتحريف أن لا يأتوا بما يحتمل فيه التحريف من السور، لأن الاشتغال اليقيني يقتضي البراءة اليقينية. وإن هذا الترخيص من الأئمة عليهم السلام بنفسه دليل على عدم

وقوع التحريف في القرآن وإلا لكان مستلزماً لتفويت الصلاة الواجبة على المكلف بدون سبب موجب. وجملة القول أنه لا ريب في أمر أهل البيت عليهم السلام بقراءة سورة من القرآن الذي بين أيدينا في الصلاة وهذا الحكم ثابت من دون ريب ولا شائبة تقية إما أن يكون هو نفس الحكم الثابت في زمان رسول الله الأكرم وإما أن يكون غيره، وهذا الأخير باطل لأنه من النسخ الذي لا ريب في عدم وقوعه بعد النبي وإن كان أمراً ممكناً في نفسه، فلا بد وأن يكون ذلك هو الحكم الثابت على عهد رسول الله ومعنى ذلك عدم التحريف فيكون أمر الأئمة عليهم السلام بقراءة سورة تامة بعد الفاتحة دليلاً واضحاً على عدم التحريف في القرآن.

الباب السادس:

دعوى وقوع التحريف من بعض الخلفاء

الدليل الخامس: إن القائل بالتحريف إما أن يدعي وقوعه من الشيخين بعد وفاة النبي ﷺ وإما من عثمان بعد انتهاء الأمر إليه، وإما من شخص آخر بعد انتهاء الدور الأول من الخلافة، وجميع هذه الدعاوى باطلة أما دعوى وقوع التحريف من أبي بكر وعمر فيطُلها أنهما في هذا التحريف إما أن يكونا غير عامدين وإنما صدر عنهما من جهة عدم وصول القرآن إليهما بتمامه لأنه لم يكن مجموعاً قبل ذلك، وإما أن يكونا متعمدين في هذا التحريف، وإذا كانا عامدين فإما أن يكون التحريف الذي وقع منهما في آيات تمس بزعامتهما وإما أن يكون في آيات ليس لها تعلق بذلك، فالاحتمالات المتصورة ثلاثة^(١): أما احتمال عدم وصول القرآن إليهما بتمامه فهو ساقط قطعاً، فإن اهتمام النبي ﷺ بأمر القرآن بحفظه وقراءته وترتيل آياته واهتمام الصحابة بذلك في عهد الرسول وبعده يورث القطع بكون القرآن محفوظاً عندهم في الصدور أو تدويناً في القراطيس، وقد اهتموا بحفظ أشعار الجاهلية وخطبها فكيف لا يهتمون بأمر الكتاب العزيز الذي عرضوا أنفسهم للقتل في دعوته وإعلان أحكامه وهجروا في سبيله أوطانهم وبذلوا أموالهم وأعرضوا عن أطفالهم ونسائهم، وهل يحتمل عاقل مع ذلك كله عدم اعتنائهم بالقرآن؟ حتى يضيع بين الناس.

(١) البيان في تفسير القرآن ص ٢١٠ للمحقق السيد الخوئي قدس سره.

وأن روايات الثقلين المتظافرة «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي» دالة على بطلان هذا الاحتمال بالإضافة إلى أن هناك روايات صريحة دالة على تدوين القرآن وجمعه في زمان النبي ومما يدل عليه أن الكتاب لا يصدق على مجموع المتفرقات ولا على المحفوظ في الصدور بل على المكتوب في القراطيس.

ولو سلمنا عدم اهتمام المسلمين بجمع القرآن على عهده ﷺ فلماذا لم يهتم بذلك النبي ﷺ بنفسه مع اهتمامه الشديد بأمر القرآن؟ فهل كان غافلاً عن نتائج هذا الإغفال أو كان غير متمكن من الجمع لعدم تهيؤ الوسائل عنده؟

ومن الواضح بطلان جميع ذلك، وبالإضافة إلى أن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ والغفلة وسيأتي إثبات ذلك في بحث النبوة إن شاء الله تعالى.

وأما احتمال تحريف الشيخين للقرآن عمداً في الآيات التي لا تمس بزعامتهما وزعامة أصحابهما فهو بعيد في نفسه، إذ لا غرض لهما في ذلك.

وكيف يمكن وقوع التحريف منهما مع أن الخلافة مبتنية على سياسة إظهار الاهتمام بأمر الدين بالإضافة إلى أنه لم يحتج بذلك أحد الممتنعين عن بيعتهما كعلي بن أبي طالب وسعد بن عباد وغيرهما ولو حصل التحريف منهما لذكره أمير المؤمنين في خطبته الشقشقية المعروفة أو في غيرها من كلماته التي اعترض بها على من تقدمه؟ ولم يحصل اعتراض من المسلمين عليهما، ولو حصل ذلك لما اختفى ذلك عنا ولبان لنا فإن هذه الدعوى واضحة البطلان.

وأما دعوى وقوع التحريف من الشيخين عمداً في آيات تمس

بزعامتهما فهو أيضاً مقطوع بعدمه، فإن أمير المؤمنين عليه السلام وزوجته الصديقة الطاهرة وجماعة من أصحابه قد عارضوا الشيخين في أمر الخلافة واحتجوا عليها بما سمعوا من النبي صلى الله عليه وآله واحتجوا عليهما بحديث الغدير وغيره ولم يحتجوا عليهما في تحريف القرآن ولو كان في القرآن شيء يمس زعامتهم لكان أحق بالذكر في مقام الاحتجاج وأحرى بالاستشهاد، ففي ترك الصحابة ذلك في أول الخلافة وبعد انتهائها إلى علي دلالة قطعية على عدم التحريف المذكور وأما احتمال وقوع التحريف من عثمان فهو أبعد من الدعوى الأولى: للأسباب التالية:

١- لأن الإسلام قد انتشر في زمان عثمان على نحو ليس في إمكان عثمان أن ينقص من القرآن شيئاً ولا في إمكان من هو أكبر شأنًا من عثمان.

٢- ولأن تحريفه إن كان للآيات التي لا ترجع إلى الولاية ولا تمس زعامة سلفه بشيء فهو بغير سبب موجب وإن كان للآيات التي ترجع إلى شيء من ذلك فهو مقطوع بعدمه، لأن القرآن لو اشتمل على شيء من ذلك وانتشر بين الناس لما وصلت الخلافة إلى عثمان.

٣- ولأنه لو كان محرّفًا للقرآن لكان في ذلك أوضح حجة، وأكبر عذر لقتله عثمان في قتله علناً، ولما احتاجوا في الاحتجاج على ذلك إلى مخالفته لسيرة الشيخين في بيت مال المسلمين وإلى ما سوى ذلك من الحجج.

٤- ولأن من الواجب على علي عليه السلام بعد عثمان أن يرد القرآن إلى أصله، الذي كان يُقرأ به في زمان النبي صلى الله عليه وآله وزمان الشيخين ولم يكن عليه في ذلك شيء يتقد به، بل ولأن ذلك أبلغ أثراً في مقصوده وأظهر لحجته على الناظرين بدم عثمان ولا سيما إنه عليه السلام قد أمر بإرجاع القطائع التي

أقطعها عثمان^(١) وهذا أمر علي في الأموال فكيف يكون أمره في القرآن لو كان محرراً؟ فيكون إمضاؤه ﷺ للقرآن الموجود في عصره دليلاً على عدم وقوع التحريف فيه. وأما دعوى وقوع التحريف بعد زمان الخلفاء فلم يدعها أحد غير أنها نسبت إلى بعض القائلين بالتحريف، فأدعي أن الحجاج لما قام بنصرة بني أمية اسقط من القرآن آيات كثيرة كانت قد نزلت فيهم وزاد فيه ما لم يكن منه، وكتب مصاحف وبعثها إلى مصر والشام والحرمين والبصرة والكوفة، وأن القرآن الموجود اليوم مطابق لتلك المصاحف وأما المصاحف الأخرى فقد جمعها ولم يبق منها شيئاً. ولا نسخة واحدة^(٢).

وهذه الدعوى تشبه هذيان المحمومين وخرافات المجانين والأطفال فإن الحجاج واحد من ولاية بني أمية وهو أقصر باعاً وأصغر قدراً من أن ينال القرآن بشيء بل وهو أعجز من أن يغير شيئاً من الفروع الإسلامية فكيف يغير ما هو أساس الدين، وقوام الشريعة ومن أين له القدرة والنفوذ في جميع دول الإسلام وغيرها من انتشار القرآن فيها؟

وكيف لم يذكر ذلك الخطب العظيم مؤرخ في تاريخه ولا ناقد في نقده مع ما فيه من الأهمية وكثرة الدواعي على نقله وكيف لم يتعرض لنقله واحد من المسلمين في وقته وكيف أغضى المسلمون عن هذا العمل بعد انقضاء عهد الحجاج؟

(١) نهج البلاغة فيما رده على المسلمين من قطنع عثمان في خطبه له (والله لو وجدته قد تزوج النساء وملك به الإمام لردته فإن في العدل سعة).

(٢) مناهل العرفان ص ٢٥٧.

وهب أنه تمكن من جمع نسخ المصاحف جميعها، ولم تشذ عن قدرته نسخة واحدة من أقطار المسلمين المتباعدة فهل تمكن من إزالته عن صدور المسلمين وقلوب حفظه القرآن؟

وعدد هم في ذلك الوقت لا يحصيه إلا الله على أن القرآن لو كان في بعض آيته شيء يمس بني أمية لهتم معاوية بإسقاطه قبل زمان الحجاج وهو أشد منه قدرة ونفوذاً ولأستدل به أصحاب علي عليه السلام على معاوية.

ويتضح للقارئ أن من يدعي التحريف يخالف بداهة العقل وقد قيل في المثل: حدث العاقل بما لا يليق فإن صدق فلا عقل له.

الباب السابع:

شبهات القائلين بالتحريف

الشبهة الأولى: أن التحريف قد وقع في التوراة والإنجيل وقد ورد في الروايات المتواترة من طريقي الشيعة والسنة: أن كل ما وقع في الأمم السابقة لا بد وأن يقع مثله في هذه الأمة، فمنها ما رواه الصدوق في (الإكمال) عن غياث بن إبراهيم عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله ﷺ كل ما كان في الأمم السالفة فإنه يكون في هذه الأمة مثله حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة»^(١).

ونتيجة ذلك: أن التحريف لا بد من وقوعه في القرآن وإلا لم يصح معنى هذه الأحاديث.

والجواب عن ذلك:

أولاً: أن الروايات المشار إليها أخبار آحاد لا تفيد علماً ولا عملاً، ودعوى التواتر فيها جزافية لا دليل عليها، ولم يذكر من هذه الروايات شيء في الكتب الأربعة^(٢)، ولذلك فلا ملازمة بين وقوع التحريف في التوراة ووقوعه في القرآن.

ثانياً: أن هذا الدليل لو تم لكان دالاً على وقوع الزيادة في القرآن أيضاً،

(١) البحار ٤/٨، نقلاً عن إكمال الدين للصدوق.

(٢) البيان في تفسير القرآن باب التحريف.

كما وقعت في التوراة والإنجيل، ومن الواضح بطلان ذلك، لأن اتفاق المسلمين على عدم وقوع الزيادة في القرآن.

ثالثاً: إن كثيراً من الوقائع التي حدثت في الأمم السابقة لم يصدر مثلها في هذه الأمة كعبادة العجل، وتيه بني إسرائيل أربعين سنة وغرق فرعون وأصحابه وملك سليمان للأنس والجن وولادة عيسى من غير أب ومسح كثير من السابقين قرده وخنازير وغير ذلك مما لا يسعنا إحصاؤه وهذا أدل دليل على عدم إرادة الظاهر من تلك الروايات، فلا بد من إرادة المشابهة في بعض الوجوه.

الشبهة الثانية:

إن علياً كان له مصحف غير المصحف الموجود وقد أتى به إلى القوم فلم يقبلوا منه وأن مصحفه عليه السلام كان مشتملاً على أبعاض ليست موجودة في القرآن الذي بأيدينا ويترتب على ذلك نقص القرآن الموجود عن مصحف أمير المؤمنين علي عليه السلام وهذا هو التحريف الذي وقع الكلام فيه، والروايات الدالة على ذلك كثيرة. منها ما في رواية احتجاج علي عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أنه قال:

«يا طلحة إن كل آية أنزلها الله تعالى علي محمد صلى الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله وخط يدي وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى علي محمد وكل حلال أو حرام أو حد أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي، حتى أُرش الخدش»^(١) ومنها رواية الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر قال: ما

(١) مقدمة تفسير البرهان صفحة ٢٧ وفي هذه الرواية تصريح بأن ما في القرآن الموجود كله قرآن.

يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء^(١).

والجواب عن ذلك: أن وجود مصحف أمير المؤمنين عليه السلام يغيّر القرآن الموجود في ترتيب السور مما لا ينبغي الشك فيه، وتسالم العلماء الأعلام على وجوده، كما أن احتمال قرآنه على زيادات ليست في القرآن الموجود لا دليل على ذلك ولا دلالة في ذلك على أن هذه الزيادات كانت من القرآن، وقد أسقطت منه بالتحريف، بل الصحيح أن تلك الزيادات كانت تفسيراً بعنوان التأويل، وما يؤول إليه الكلام أو بعنوان التنزيل من الله شرحاً للمراد.

فليس كل ما نزل من الله واجباً يلزم أن يكون من القرآن فالذي يستفاد من الروايات في هذا المقام أن مصحف علي عليه السلام.

كان مشتملاً على زيادات تنزيلاً أو تأويلاً ولا دلالة في هذه الروايات على أن تلك الروايات هي من القرآن وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذكر أسماء المنافقين في مصحف أمير المؤمنين فإن ذكر أسمائهم لا بد وأن يكون بعنوان التفسير.

وحاصل ما تقدم: أن وجود الزيادات في مصحف علي وإن كان صحيحاً إلا أن هذه الزيادات ليست من القرآن، ومما أمر رسول الله بتبليغه إلى الأمة، فإن الالتزام بزيادة مصحفه على القرآن الحالي قول بلا دليل مضافاً على أنه باطل قطعاً ويدل على بطلانه جميع ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم التحريف في القرآن وإنما الزيادة في قرآنه هي زيادة في التفسير وأسباب النزول وغيرهما.

الشبهة الثالثة: أن الروايات المتواترة عن أهل البيت عليهم السلام قد دلت على تحريف القرآن فلا بد من القول به.

والجواب: إن هذه الروايات لا دلالة فيها على وقوع التحريف في القرآن بالمعنى المتنازع فيه وتوضيح ذلك أن كثيراً من الروايات وإن كانت ضعيفة السند فإن جملة منها نقلت من كتاب أحمد بن محمد السيارى الذي اتفق علماء الرجال على فساد مذهبه وذكر علي بن أحمد الكوفي أنه ذكر علماء الرجال أنه كذاب وأنه فاسد المذهب.

(راجع معجم الرجال للمحقق الخوئي في باب حرف الألف) وهذه الروايات تقسم على طوائف منها:

الطائفة الأولى: هي الروايات التي دلت على التحريف بعنوانه نذكر جملة منها:

١- عن عبد الأعلى قال قال أبو عبد الله عليه السلام: أصحاب العربية يحرفون كلام الله عز وجل عن مواضعه^(١).

٢- عن علي بن ابراهيم القمي بإسناده عن أبي ذر قال: «لما نزلت هذه الآية (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ترد أمتي علي يوم القيامة على خمس رايات ثم ذكر أن رسول الله يسأل الرايات عما فعلوا بالثقلين، فتقول الراية الأولى أما الأكبر فحرفناه ونبذناه وراء ظهورنا وأما الأصغر فعاديتاه وأبغضناه وظلمناه»^(٢).

(١) الوافي: ١٣٠/٢.

(٢) البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي الجزء الأول - باب الشبهات، الوافي ١٣١/٢.

٣- عن ابن طاووس بإسناده عن الحسن ابن الحسن السامري في حديث طويل أن رسول الله قال لحذيفة فيما قال في من يهتك الحرم «إنه يضل الناس عن سبيل الله ويحرف كتابه ويغير سنتي»^(١).

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة (الأولى).

أن الظاهر من الرواية الأولى تفسير التحريف باختلاف القراءة وإعمال اجتهاداتهم في القراءات وقد أوضحنا للقارئ أن التحريف بهذا المعنى وهو النقص أو الزيادة في الحروف أو في الحركات وهو أن القرآن مطابق لأحد القراءات وأما غيرها فهو أما زيادة أو نقصان وهذا هو معنى التحريف.

وهو واقع بهذا المعنى قطعاً وهو خارج عن محل النزاع ولولا هذا التحريف لم تزل حقوق العترة محفوظة وحرمة النبي فيهم مرعية ولما انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه من غضب حقوقهم وإيذاء النبي فيهم.

الطائفة الثانية: هي الروايات التي دلت على أن بعض الروايات التي دلت على أن بعض الآيات المنزلة من القرآن قد ذكرت فيها أسماء الأئمة عليهم السلام وهي كثيرة.

منها: ما ورد من ذكر أسماء الأئمة عليهم السلام في القرآن كرواية الكافي بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام قال «ولاية علي بن أبي طالب مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله رسولاً إلا بنسوة محمد وولاية وصيه»^(٢).

وغيرها:

(١) الوافي: ١٣٠/٢.

(٢) أصول الكافي: ٣٨١.

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة الثانية:

أولاً:

إننا قد أوضحنا فيما تقدم أن بعض التنزيل كان من قبيل التفسير للقرآن وليس من القرآن نفسه، فلا بد من حمل هذه الروايات على أن ذكر أسماء الأئمة عليهم السلام في التنزيل من هذا القبيل، وإذا لم يتم هذا الحمل فلا بد من طرح هذه الروايات لمخالفتها للكتاب والسنة.

وثانياً: مما يدل على أن اسم أمير المؤمنين لم يذكر صريحاً في القرآن حديث الغدير فإنه صريح في أن النبي صلى الله عليه وآله إنما نصب علياً بأمر الله ولو كان اسم علي مذكوراً في القرآن لم يحتج إلى ذلك النصب ولا إلى تهئية ذلك الاجتماع الحافل بالمسلمين في غدير خم وعلى الجملة:

فصحة حديث الغدير توجب الحكم بكذب هذه الروايات التي تقول: إن أسماء الأئمة مذكورة في القرآن وطرحها.

وثالثاً: ويعارض جميع هذه الروايات صحيحة أبي بصير المروية في الكافي والوافي ^(١).

قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: فقال «نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام» فقلت له إن الناس يقولون فما له لم يسم علياً وأهل بيته في كتاب الله؟ قال عليه السلام «فقولوا لهم إن رسول الله نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسر لهم ذلك».

فتكون هذه الصحيحة حاكمه على جميع تلك الروايات وأن ذكر أسم أمير المؤمنين في تلك الروايات قد كان بعنوان التفسير أو بعنوان التنزيل.

ورابعاً: ويضاف إلى ذلك أن المتخلفين عن بيعه أبي بكر لم يحتجوا بذكر اسم علي في القرآن صريحاً، ولو كان له ذكر في القرآن لكان ذلك أبلغ في الحجّة.

وهذا من الأدلة الواضحة على عدم ذكره في الآيات.

الطائفة الثالثة: هي الروايات التي دلت على وقوع التحريف في القرآن بالزيادة والتقصان.

وإن الأمة بعد النبي غيرت بعض الكلمات وجعلت مكانها كلمات أخرى.

فمنها:

١- ما رواه علي بن إبراهيم بإسناده عن حرير عن أبي عبد الله عليه السلام «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين»، ومنها:

٢- ما عن العياشي عن هشام بن سالم.

قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾.

قال «هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين فوضعوا اسماً مكان اسم. أي أنهم غيروا فجعلوا مكان آل محمد آل عمران»^(١).

(١) تفسير العياشي سورة.

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة بعد الإغماض عما في سندها من الضعف أنها مخالفة للكتاب والسنة ولإجماع المسلمين على عدم الزيادة في القرآن ولا حرفاً واحداً حتى من القائلين بالتحريف.

الطائفة الرابعة: هي الروايات التي دلت على التحريف في القرآن بالقبضة فقط.

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة أنه لا بد من حملها على ما تقدم في معنى الزيادة في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام.

وإن لم يمكن ذلك الحمل في جملة منها فلا بد من طرحها لأنها مخالفة للكتاب والسنة بالإضافة على أن أكثر هذه الروايات ضعيفة السند وبعضها لا يحتمل صدقه في نفسه وقد صرح جماعة من الأعلام بلزوم تأويل هذه الروايات أو لزوم طرحها وممن صرح ذلك الشيخ الصدوق وما نقله عنه صاحب الوسائل ^(١) بسنده الصحيح عن الصادق عليه السلام:

«الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة»... إلى أن قال
«فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فدعوه».

وعن المحقق البغدادي شرح الوافية فقد صرح بأن الروايات الدالة على القبضة لا بد من تأويلها أو طرحها.

البحث السابع:

شبهة جمع القرآن على عهد عثمان

قالوا: إن تدوين القرآن وجمعه قد تم على عهد عثمان بن عفان، ولم يتم على عهد النبي ﷺ.

والجواب يقع من وجوه:

الوجه الأول: يبدأ كتاب الله العظيم - القرآن الكريم - بسورة الحمد التي تعرف (بفاتحة الكتاب) وهذا العنوان يكشف عن أن للقرآن بداية ونهاية وإذا لم يكن تدوين القرآن وجمعه قد تم على عهد النبي ﷺ فلا محل ولا معنى لإطلاق هذه الصفة على سورة الحمد التي احتلت في عملية التدوين بداية هذا الكتاب السماوي، وأن يذكرها النبي ﷺ بهذا العنوان (الفاتحة).

الوجه الثاني: على أن القرآن الكريم جُمع وألف على عهد النبي ﷺ عموم الأحاديث النبوية التي أرجعت المسلمين إلى القرآن، مثل حديث الثقلين، والأحاديث التي أرشدت المسلمين وطالبتهم بعرض ما ينسب لرسول الله ﷺ على القرآن، ودلالاتها على وجود كتاب محدد يحوي بين دفتيه ما أنزل من القرآن الكريم، هناك روايات يتركز ظهورها في خصوص تأليف القرآن وجمعه ووجوده على عهد رسول الله ﷺ منها ما نقله المحقق الخوئي في تفسيره البيان.

روى الطبراني وابن عساكر والتقي الهندي عن الشعبي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، ستة من الأنصار: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عباد، وأبو زيد^(١).

وروى قتادة قال: سألت أنس بن مالك من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟

قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد^(٢).

وأخرج السيوطي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال: إقرأه في شهر^(٣).

ويذهب مؤلف تفسير البيان استناداً لهذه النصوص إلى أن القرآن جمع في عصر النبي ﷺ

وللمزيد من التفاصيل يُراجع هذا الكتاب^(٤).

— الوجه الثالث:

ويظهر من مفاد بعض الروايات أن الرسول ﷺ كان يحدّد لكتاب الوحي ومكان كل آية بعد نزولها، ويعيّن ترتيبها في السور وبين الآيات، فقد ورد في تفسير الدر المنثور: أخرج أحمد بن حنبل، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره ثم صوبه

(١) المعجم الكبير للطبراني (٢٦١/٢)، ح: ٢٠٩٢، كز العمال: (٥٨٩/٢)، ح: ٤٧٩٧.

(٢) صحيح البخاري: (١٢٥/٦)، باب القراءة من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) الإنفاق للسيوطي: (٧٢/١)، حلية الأولياء: (٢٨٥/١).

(٤) البيان في تفسير القرآن: (ص: ٢٦٩).

حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره، فقال: «أتاني جبرائيل عليه السلام، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾، إلى قوله تعالى: ﴿... تَذَكَّرُونَ﴾»^(١).

وروى جماعة منهم: أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس أن عثمان قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضموا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»^(٢). يتضح من هذين الحديثين أن القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان على شكل سور، والسورة عبارة عن مجموعة متتالية من الآيات تبدأ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وتمضي على ترتيب معين، ويتضح أيضاً أن الآيات المختلفة النازلة في مختلف السور إنما أخذت مواقعها الخاصة بناءً على أوامر من رسول الله صلى الله عليه وسلم عين فيها هذه المواقع وحددها، وعلى هذا فإن تحديد السور ومواضع الآيات وترتيبها كان مما تم وأنجز على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذان الأمران يشيران إلى أن تدوين الكتاب تم بإشراف النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه.

الوجه الرابع:

أضف إلى ذلك أن التاريخ والروايات تؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو في صلواته سوراً معينة، مما يعني أن هذه السور كانت قد أخذت شكلها

(١) مسند أحمد بن حنبل: (٢٧٢/٦)، الدر المشور: (١٦٧٤)، الميزان في تفسير القرآن: (٣٤٩/١٢).

(٢) كنز العمال: (٥٧٩/٢)، البيان في تفسير القرآن: (ص: ٢٦٨).

وإطارها التي تحددت فيه بدايتها ونهايتها وتوالي الآيات فيها، ويؤيد ذلك الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ في فضيلة قراءة السور^(١)، بل إن القرآن الكريم ذاته يذكر أحياناً هذا العنوان (سورة)، كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا...﴾^(٢)، والمقصود بها سورة النور، وفي معرض التحدي والإنجاز يقول عز من قائل: ﴿... فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ...﴾^(٣)، أو ﴿... فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ...﴾^(٤).

فإن لم تكن السورة معينة وآياتها وبداياتها ونهاياتها محددة ومشخصة، وكانت آيات مبثورة على جريد النخل والصحائف والعسب وصدور الرجال، كيف صح أن يقول القرآن: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ...﴾، أو ﴿بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾، وهناك شواهد كثيرة على هذه الحقيقة، وإذا ما أمعن النظر في الروايات وأقوال كبار المحققين لتبددت جميع الشكوك وقطع بأن هذا القرآن الموجود بين أيدينا الية/يوم هو ذاته المصحف الذي جمعه رسول الله ﷺ وألف بين آياته وسوره وكمثال على هذه الشواهد نقل كلام أحد كبار العلماء السيد المرتضى (علم الهدى^(عليه السلام)): يتقل الشيخ الطبرسي وهو من كبار علماء القرن السادس الهجري في مقدمة تفسيره (مجمع البيان) وهو من التفاسير القيحة، عن السيد المرتضى مقالة في جمع القرآن وتدوينه وذكر أن المقالة جاءت في جوابه المعروف عن المسائل الطرابلسيات ونحن نذكر منه هنا مقدار الحاجة مما يتعلق بموضوعنا فقال:

(١) راجع بحار الأنوار: (ج: ٩٢).

(٢) سورة النور: (الآية: ١).

(٣) سورة البقرة: (الآية: ٢٣).

(٤) سورة هود: (الآية: ١٣).

« إن القرآن الموجود بين ظهرائنا اليوم هو نفسه القرآن الذي كان على عهد رسول الله مجموعاً ومؤلفاً على ما هو عليه الآن، ودليل ذلك كان يدرّس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه، وأن جماعة من الصحابة مثل (عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما) ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات. وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور ولا مبثوث وقد دلت على ذلك روايات مقطوع بصحتها، ومن خالف في ذلك لا يعتد بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة، ظنّوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته^(١) ».

الوجه الخامس ويسمى بالوجه الاعتباري الذي يمكن تعقله وقبوله وهو: لا يمكن احتمال وتصور أن النبي ﷺ الذي كان يبذل غاية جهده ويولي كل اهتمامه للآيات القرآنية الشريفة سواء في نزولها أو حفظها، كان سلبياً تجاه تنظيم هذه الآيات القرآنية وجمعها، وأنه - والعياذ بالله - كان مهملًا لذلك وهو المعجزة الخالدة لبعثته والكتاب السماوي الخاتم وآخر رسالات الله للبشرية.

إن النبي ﷺ الذي قال: «إني تارك فيكم الثقلين»^(٢).

ثم اعتبر (الكتاب) الثقل الأكبر والأول، لا يمكن القول بأنه ﷺ كان يقصد بالثقل الأكبر تلك الآيات الماثورة في الصحائف أو المحمولة في

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، المقدمة: (ص ١٦١٥).

(٢) الكافي: (٢٣٣/١)، الخصال: (٦٥/١)، مسند أحمد: (٣٠/٤).

الصدور، وأنه أوكل جمعها وفوض تنظيمها في مصحف مرتب يعني تمام (الكتاب) إلى غيره، فيخضع الأمر للأمزجة والرغبات والاجتهادات الخاصة، إن لم نقل للميول والأهواء والأغراض والمصالح الخاصة، إن هذا التوكيل والتفويض يستلزم المساس بالقرآن والإخلال به مما يعني التفريط بأمر حيوي وأساسي يوقع الأمة في فوضى وضياع، ومنع ذلك وعدم وقوعه هو دور ومهمة المرسل بالكتاب، وحاشى أن يخُل النبي بواجباته ووظائفه، وعلى هذا فإن العقل يأبى بشدة فرضية عدم جمع وتدوين القرآن على عهد النبي ﷺ وأنه لم ينهض بهذا الدور بل أوكله إلى غيره، وإن قلت: بأن الرسول ﷺ أناط هذه المهمة بأمر المؤمنين ﷺ وهو ربيب بيت الرسالة والعليم بمواقع التنزيل ومواضع الآيات ومواقع السور وأن علماً نفسه كان يعلن أنه يحتفظ لديه بالقرآن النازل على رسول الله وأنه مودع عنده.

فقول: إن مقصود علي هو القرآن المحتوي على التفسير والتأويل، المشتمل على تحديد أسباب النزول وكشف الغوامض والأسرار وبيان حقائق ما أرادتها مجملات الآيات وتخصيص عموماتها مما خص النبي ﷺ ابن عمه وخليفته ووصيه من بعده من علوم، وبعبارة أخرى أن قرآن علي ﷺ ما هو إلا شرح للقرآن المؤلف المجموع على عهد النبي ﷺ.

ولبيان صحة ما ذهبنا إليه آنفاً، نحيل القارئ الكريم إلى كتاب الاحتجاج للطبرسي، وفيه حديث مفصل لحوار بين علي ﷺ وطلحة حول هذه الوديعة السماوية، نقل مختصراً منها مما نحن بصده، يقول علي ﷺ: «يا طلحة، إن كل آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ عندي بإملاء رسول الله ﷺ وخط يدي، وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد ﷺ»

وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شيءٍ نحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله وخط يدي حتى أرش الخدش».

قال طلحة: كل شيء من صغير وكبير أو خاص أو عام كان أو يكون إلى يوم القيامة فهو عنك مكتوب؟ قال علي عليه السلام: «نعم».

إذا فالكتاب الذي لدى علي عليه السلام يحمل مواصفات هي:

١- مدون فيه كل ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بخط علي عليه السلام.

٢- فيه تأويل كآية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم.

٣- فيه جميع الأحكام من الحلال والحرام والواجبات والمستحبات والحدود وكل ما يحتاجه الناس إلى يوم القيامة، وهو من الدقة والتفصيل بحيث فيه حتى أرش الخدش، وهو محتفظ به عند الإمام المهدي عليه السلام.

بعد بيان هذه الأوصاف لا يمكن لأحد الزعم بأن هذا الكتاب هو ذاته القرآن المنزّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن في كتاب علي عليه السلام تفصيل كل حكم وتأويل الآيات المنزلة على النبي صلى الله عليه وسلم، فالقرآن هو مجموع الآيات التي نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، بينما كتاب علي يحوي إضافة إلى ذلك تأويل الآيات وهو شيء آخر غير الآيات نفسها بطبيعة الحال والقرآن ينفي أن يكون في متناول عامة الناس، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه ويعلمه الناس كما أخبر القرآن نفسه بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١)، بينما يجب أن تبقى آيات الكتاب المستودع عند علي عليه السلام

(١) آل عمران، الآية: (١٦٤).

وأحكامه وتأويل آياته محفوظة لديه ولدى الأوصياء من ولده بعيدة عن تناول الناس، بينما القرآن هو كما قلنا: الآيات التي نزلت على قلب محمد ﷺ يجب أن تكون في متناول عامة الناس، وخلاصة القول إن كتاب الوحي (القرآن) منظم يبدأ بسورة الحمد وقد أنجز تدوينه وجمعه وتم تأليف آياته وسوره على عهد رسول الله ﷺ وأنه لم يتعرض لأي تلاعب، ومواضع الآيات في المصحف الحالي هي ذات المواضع ونفس المواقع التي رتبها ﷺ على عهده دون تغيير أو تبديل.

شبهة وتساؤل: إن الأدلة والبراهين التي ذكرناها آنفاً أثبتت أن القرآن جمع ودون على عهد رسول الله ﷺ وبإشرافه ورقابته ولكن يبقى هنا سؤال عن القرآن الموجود بين ظهرانينا اليوم، هل ذلك الذي جمعه النبي ﷺ؟

ألا يحتمل أن الأيدي عبثت وتصرفت في ترتيب آياته ومواقع سوره خلال هذه الفاصلة الزمنية الممتدة خصوصاً من بعده وأن المشهور اليوم هو أن عثمان بن عفان هو الذي جمع كتاب الله، حتى أصبح يشار ويقال (المصحف العثماني)؟ فإذا فرضنا أن عثمان بن عفان قام أيضاً بجمع القرآن، فمن أين نعلم أن القرآن الموجود بين أيدينا اليوم هو الذي جمعه النبي ﷺ، لا الذي جمعه عثمان؟

— ردّ الشبهة:

سالم المحققون ويتفقون على أن دور عثمان كان منحصرأ في معالجة قراءات القرآن المختلفة فيها، فهو جمع القرآن لا بمعنى جمع الآيات والسور في مصحف واحد بل جمع الناس على قراءة واحدة، وقد اختار عثمان القراءة المشهورة المتواترة بين المسلمين، وهي القراءة التي أخذوها

عن رسول الله فكتب القرآن على تلك الصورة.

إذن ما فعله عثمان هو أنه أتبع ونشر نفس الكتاب الذي ألف على عهد رسول الله ﷺ وفق القراءة المعروفة المتداولة.

— ويرجع سبب اختلاف القراءات إلى حد كبير إلى تفاوت اللهجات وبيئات القبائل -.

وقد كان أمير المؤمنين يحوط العملية بالرقابة اللازمة كما جاء في رواية سويد بن غفلة: أن علياً عليه السلام قال: «والله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف عن ملأ منّا»^(١).

إذن فعثمان لم يجمع المصحف على هواه ووفق رغبته وقد أقره الجميع على ذلك ولم يعترضوا عليه أو ينتقد فعلته أحد من المسلمين^(٢).

ولعمري ما كان عثمان ولا غيره قادر على مس القرآن وتبديل مواضع السور ومواقع الآيات فيه، إذ كان المسلمون يحوِّطون القرآن الذي جمعه ونظمه محمد ﷺ باهتمام وعناية ما كانت تسمح بإسقاط (واو)، أو تغيير مكانها في الآية ففي الدر المنثور أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا (الواو) التي في بداية الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، قال أبي بن كعب لعثمان: «لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقها»^(٣).

تم والحمد لله رب العالمين

(١) كثر العمال: (٥٨٣/٢)، الميزان في تفسير القرآن (١٢٣/١٢).

(٢) البيان في تفسير القرآن (ص: ٢٧٧).

(٣) الدر المنثور: (٣٣٢/٣)، الميزان في تفسير القرآن: (١٢٣/١٢).

الأسئلة:

- ١- يراد من التحريف عدة معان على سبيل الاشتراك عددها
- ٢- التحريف بالمعنى الذي وقع النزاع فيه غير واقع في القرآن أصلاً بالأدلة التالية، ما هي؟
- ٣- اشرح دعوى وقوع التحريف من بعض الخلفاء؟
- ٤- أذكر شبهتين من شبهات القائلين بالتحريف مع الجواب عنها؟
- ٥- ما هي الأدلة التي اعتمد القائلون عليها بالتحريف؟ أذكرها؟
- ٦- أن احتمال وقوع التحريف من عثمان هو أبعد من دعوى الأولى للأسباب التالية عدد ها وشرحها؟
- ٧- اذكر تقريب الاستدلال بالآية التالية (إنا نحن نزلنا الذكرى وإنا له لحافظون) ثم ناقشها مع ذكر الوجوه والجواب عليها؟
- ٨- أذكر تقريب الاستدلال بالآية التالية (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ثم الجواب عن هذا الدليل؟

الفصل السادس عشر

بحث في النبوة

* مسائل:

المسألة الأولى: ضرورة بعثة الأنبياء.

المسألة الثانية: في حسن البعثة ودليله.

المسألة الثالثة: في وجوب البعثة.

المسألة الرابعة: في وجوب العصمة وحقيقتها ومبدأ ظهورها.

المسألة الخامسة: العصمة اختيارية للنبي.

المسألة السادسة: الأدلة على عصمة الأنبياء.

- الأول: الأدلة العقلية على العصمة.

- الثاني: الأدلة النقلية على العصمة.

المسألة السابعة: شبهات حول عصمة الأنبياء وأجوبتها.

* المسألة الأولى: ضرورة بعثة الأنبياء:

وهذه المسألة المهمة يمكن إثباتها ببرهان مؤلف من ثلاث مقدمات^(١):

المقدمة الأولى: أن الهدف من خلق الإنسان هو السير في طريق تكامله من خلال ممارسة الأفعال الاختيارية من أجل التوصل إلى كماله النهائي، ولا يتوصل إلى هذا الكمال إلا باختياره.

المقدمة الثانية: أن الاختيار الواعي بالإضافة إلى احتياجه للقدرة على ممارسة العمل ووجود الميل والدافع الداخلي لها، يحتاج أيضاً إلى المعرفة الصحيحة حول الأعمال الحسنة والأعمال القبيحة وإنما يتمكن الإنسان من اختيار طريق تكامله بكل وعي فيما لو كان يعرف الهدف وطريق الوصول إليه.

أذن فمقتضى الحكمة الإلهية لا بد من توفر الوسائل الضرورية للحصول على مثل هذه المعارف وإلا فسيكون حاله كحال الشخص الذي يدعوضيفاً إلى داره، ثم لا يدل على موضعه، ومن البديهي أن مثل هذا العمل مخالف للحكمة

المقدمة الثالثة: أن معارف ومدركات البشر العادية والمتعارفة التي يحصل عليها نتيجة التعاون بين الحس والعقل وإن كان لها دورها الفاعل في توفير ما يحتاج إليه في حياته ولكنها لا تكفي في التعرف على طريق

(١) دروس في العقيدة الإسلامية للعلامة مصباح يزدي صفحة ٢٠٧.

الكمال والسعادة الحقيقية في جميع المجالات الدنيوية والأخروية، وإذا لم يوجد طريق آخر لسد النقائص فلن يتحقق الهدف الإلهي من خلق الإنسان. وبملاحظة هذه المقدمات نتوصل إلى أن الحكمة الإلهية تقتضي وضع طريق آخر للبشر - غير الحس والعقل - من أجل التعرف على طريق الكمال في جميع المجالات وهذا الطريق هو الوحي الذي وضعه الله للأنبياء ليتعلموا منه البشر كل ما يحتاجون إليه من أجل الوصول إلى السعادة والكمال النهائي. وبما أن الإنسان قاصر بالصورة الكاملة من معرفة مبدأ وجوده ومصيره وعلاقاته بسائر الموجودات والروابط التي يمكن له إقامتها وعقدتها مع بني نوعه وسائر المخلوقات وتأثير هذه الروابط في سعاده وشقائه وكذلك عليه أن يحدد نسب المنافع والمضار ودرجات المصالح والمفاسد المختلفة ومقاديرها والموازنة بينها لتحديد بذلك وظائف هذا العدد الكبير من البشر.

ولكن إلا حاطه بكل هذه الأمور لا تيسر وليس لفرد أو لجماعه معينه فحسب بل للآلاف من الجماعات المتخصصة في مختلف العلوم المرتبطة بالإنسان. لا يمكنهم اكتشاف مثل هذه المعايير والقواعد المعقدة وبيانها على شكل قوانين وأحكام دقيقة ومضبوطة ومحدده لتكليف كل المصالح الفردية والاجتماعية، الدنيوية والأخروية لكل البشر وهذا لا يتحقق إلا بطريق الوحي وهو الطريق الصحيح لمعرفة حقائق الحياة والوظائف الفردية والاجتماعية من اجل الوصول إلى سعادة الإنسان والذي به يتحقق هدف خلق الإنسان.

* المسألة الثانية: حسن البعثة وفوائدها:

اختلف الناس في ذلك فذهب المسلمون كافة وجميع أرباب الملل وجماعة من الفلاسفة إلى ذلك والدليل على حسن البعثة أنها قد اشتملت على فوائد وخلت عن المفاصد فكانت حسنة قطعاً.

* فوائد بعثة الأنبياء:

للأنبياء - إضافة إلى تعريف البشر وهدايتهم إلى طريق الصحيح للتكامل الحقيقي للإنسان وتلقي الوحي وأبلاغة للناس - فوائد وتأثيرات مهمة أخرى في مجال تكامل البشر نذكر منها.

الفائدة الأولى:

أن هناك الكثير من المعلومات التي يمكن للعقل الإنساني إدراكها ولكن ربما يغفل عنها، أما لاحتياجها لزمان طويل وتجارب كثيرة وأما نتيجة اهتمام الأفراد وأنهما كهم في الأمور المادية أو تغييب عن الناس نتيجة للتربية المنحرفة أو الإعلام السيئ أن مثل هذه المعلومات يبينها الأنبياء للناس ليمنعوا من نسيانها تماماً من خلال تذكيرهم وتأكيدهم الدائم عليها وليواجهوا المغالطات والتعليمات السيئة بتعليماتهم الصحيحة والمنطقية.

الفائدة الثانية: من أهم العوامل التي لها تأثيرها الفاعل في التربية وفي رشد الإنسان وتكامله وجود القدوة في العمل. فالقدوة يقوم بمهمة تربية الناس وتركيتهم. ففائدة النبي هي تربية الناس وتركيتهم وتكاملهم في الأخلاق لان مراتب الأخلاق وتفاوتها معلوم يحتاج إلى مكمل لتعليم الأخلاق.

الفائدة الثالثة: ومن معطيات وفوائد وجود الأنبياء بين الناس تولي القيادة في المجالات الاجتماعية والسياسية والقضائية حينما تتوفر الظروف اللازمة لذلك وبديهي أن القائد المعصوم من أعظم النعم الإلهية للمجتمع حيث تعالج بواسطته الكثير من المشاكل والمعضلات الاجتماعية ويتم إنقاذ الأمة من الاختلاف والتنازع والفوضى والانحراف ليقودها باتجاه كمالها المنشود.

الفائدة الرابعة: أن يعتضد العقل بالنقل فيما يدل العقل عليه من الأحكام كوحدة الصانع وغيرها وأن يستفاد الحكم من البعثة النبوية فيما لا يدل العقل عليه كالشرايع وغيرها من مسائل الأصول كالمعاد بيوم القيامة وتفصيله.

الفائدة الخامسة: أن بعض الأفعال حسنة وبعضها قبيحة ثم الحسنه منها ما يستقل العقل بمعرفة حسننها ومنها ما لا يستقل وكذا القبيحة ومع البعثة النبوية يحصل معرفة الأفعال الحسنة والقبيحة التي لا يستقل العقل بمعرفتها.

الفائدة السادسة: إن النوع الإنساني خلق لا كغيرة من الحيوانات فإنه مدني الطبع يحتاج إلى أمور كثيرة في معاشه ولا يتم نظامه إلا بها وهو عاجز عن فعل الأكثر منها إلا بمشاركة الجميع. ولكن نعلم التغلب موجود في طبائع البشر بحيث يحصل التنافر المضاد لحكم الاجتماع، فلا بد من جامع يقهرهم على الاجتماع وهو الشرع والسنة ولا بد للسنه من شارع يسنّها ويقرر ضوابطها ولا بد أن يتميز ذلك الشخص من غيرة من بني نوعه وهذا التمييز لا بد أن يتم من قبل الله تعالى بمعجزة يتقاد البشر إلى تصديق مدعيها ويخوفهم من مخالفته ويعدهم على متابعتة بحيث يتم النظام

وليستقر من اجل حفظ النوع الإنساني على كماله الممكن له^(١).

الفائدة السابعة: أن أشخاص البشر متفاوتة في إدراك الكلمات وتحصيل المعارف، وفائدة النبي ﷺ تكميل الناقص من أشخاص النوع بحسب استعداداتهم المختلفة في الزيادة والتقصان.

الفائدة الثامنة: أن الأنبياء يعرفون الثواب والعقاب على الطاعة وتركها فيحصل للمكلف اللطف ببعثتهم حتى يُعرفوا الناس الأوامر والنواهي وبهما يحصل الثواب والعقاب، فالنتيجة، تجب بعثتهم لهذه الفوائد وغيرها.

* المسألة الثالثة: في وجوب البعثة:

هي واجبة لاشتمالها على اللطف في التكاليف العقلية. أقول أختلف الناس هنا فقالت المعتزلة إن البعثة واجبة وقالت الأشاعرة: إنها غير واجبة، واحتجت المعتزلة بأن التكاليف السمعية أطفاف في التكاليف العقلية واللطف واجب فالتكليف السمعي واجب ولا يمكن معرفته إلا من جهة النبي فيكون وجود النبي واجبا لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب واستدلوا على كون التكليف السمعي لطفاً في العقلي بأن الإنسان إذا كان مواظباً على فعل الواجبات السمعية وترك المناهي الشرعية كان من فعل الواجبات العقلية وهي لطف ألهي واللطف واجب، فالبعثة واجبة.

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للمحقق عاوجه نصير الدين الطوسي صفحة ٣٧٤.

* المسألة الرابعة: في وجوب العصمة:

اختلف الناس في عصمة الأنبياء، فجماعة المعتزلة جوزوا الصغائر على الأنبياء أما على سبيل السهو أو على سبيل التأويل، وذهبت الأشاعرة إلى أنه يجوز عليهم الصغائر والكبائر إلا الكفر والكذب، وقالت الشيعة الإمامية: إنه يجب عصمتهم عن الذنوب كلها سواء أكانت صغيرة أم كبيرة من حين الولادة حتى الوفاة ولا تصدر منهم المعصية حتى سهواً ونسياناً، والبحث في العصمة عن الذنوب مطلقاً يقع في مقامات ثلاثة.

المقام الأول: - بيان حقيقة العصمة عن المعاصي والذنوب.

المقام الثاني: - بيان مبدأ ظهور فكرة العصمة.

المقام الثالث: - بيان الدليل على لزوم اتصاف الأنبياء بها.

المقام الأول: حقيقة العصمة عن المعاصي قال ابن فارس (عصم)

أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمه، والمعنى في ذلك كله واحد، فمثلاً أعتصم العبد بالله تعالى: إذا تمنع. واستعصم: التجأ وتقول العرب: أعصمت^(١) فلاناً، أي هيأت له شيئاً يلتجئ ويتمسك به وفي اصطلاح المتكلمين (العصمة قوة تمنع الإنسان عن اقتراف المعصية والوقوع في الخطأ)^(٢). وربما تُعرف أيضاً بأنها (لطف يفعله الله في المكلف بحيث لا يكون له مع ذلك داع إلى ترك الطاعة ولا إلى فعل المعصية مع قدرته على ذلك)^(٣).

(١) راجع المقاييس ٣٣١/٤، قاموس المحيط مادة عصم.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٤٢/٨.

(٣) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين صفحه ٣١٠.

ومن العجب تفسير الأشاعرة العصمة بأنها عبارة عن أنه سبحانه لا يخلق في المعصومين ذنباً^(١). فإنه تعريف سخيف على الأصول التي سلكتها من أن فاعل الذنب وموجده هو العبد مباشرة، نعم هو صحيح على أصولهم القائمة على إنكار السببية والعلية بين الأشياء.

* حقيقة العصمة:

أن حقيقة العصمة هي:

أولاً: هي فرع من دوحه التقوى في الناس العاديين فما بالك إذا ترقى التقوى في مدارجها وارتفعت في مراتبها تبلغ بصاحبها درجة العصمة الكاملة والامتناع المطلق عن ارتكاب القبائح بل يمتنع معها حتى عن التفكير في المعصية.

وثانياً: هي نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي الذي يخلق في نفس الإنسان وازعاً ودافعاً قوياً يصده عن ارتكابها وأمثاله في الحياة كثيرة، منها - لو علم الطبيب بماء أغتسل فيه مصاب بالجذام أو الجدري أو أنساء شرب منه مصاب بالسل لا يقدم على الاغتسال فيه أو شربه مهما اشتدت حاجته إليه لعلمه بما يجز عليه الشرب والاعتسال بذلك الماء الملوث بالجراثيم وقس على ذلك سائر العواقب الخطيرة.

فإذا كان العلم القطعي بالعواقب الدنيوية لبعض الأفعال يوجد تلك المصونية عن الارتكاب، في نفس العالم، فكيف بالعلم القطعي بالعواقب الأخروية للمعاصي ورتائل الأفعال ذلك العلم الذي قال تعالى فيه: ﴿كَلَّا لَوْ

(١) لبطال نهج الباطل للفضل بن روزبهان ٣٧٠/١.

تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿١﴾

فمثل هذا العلم يخلق من صاحبه إنساناً معصوماً لا يخالف أو امر به ولا يتعدى الحدود التي رسمها له في حياته.

وثالثاً: الاستشعار بعظمه الرب والتفاني في معرفته وحبّه وعشقه، فإذا عرف الإنسان خالقه وربه وأنجذب إلى حبه وعشقه أصبح كل ما يخالف أمره ورضاه منفوراً لديه، مقبوحاً في نظره أشد القبح، وتلك هي درجة العصمة الكاملة ولا ينالها إلا الأوحدي من الناس.

والى هذا يشير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، إنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» راجع نهج البلاغة لأبن أبي الحديد الجزء الرابع.

هذه البيانات: أو العوامل الثلاثة التي ذكرناها تعرب بمجموعها عن حقيقة العصمة التي هي قوة في النفس تعصم الإنسان عن مخالفة الرب سبحانه وتعالى.

المقام الثاني: مبدأ ظهور فكرة العصمة بين المسلمين:

فيقع السؤال في مبدأ ظهور هذه الفكرة بين المسلمين ومن يقف وراء طرحها في الأوساط الكلامية. لا ريب في أن علماء اليهود ليسوا هم المبدعين لهذه الفكرة لأنهم يصفون أنبياءهم بأقبح الذنوب وأفظع المعاصي وهذا العهد القديم يسجل لداود وسليمان وقبلهما يعقوب ما يندي له الجبين ويخجل القلم عن نقله^(١)، فكيف

(١) سورة التكاثر: الآية ٦، ٥.

(٢) راجع التوراة العهد القديم.

يمكن بعد هذا أن يكون أحبار اليهود المظهرين للإسلام هم المبدعون لهذه الفكرة.

ولا شك أيضاً أن علماء النصارى ليسوا هم كذلك فإنهم وإن كانوا ينزهون المسيح عن كل عيب إلا أن ذلك ليس بملاك أنه بشري أرسل لتعليم الإنسان وإرشاده بل بما هو إله متجسد أو ثالث ثلاثة وبعد هذا فأعلم أن بعض المستشرقين حار في تحديد زمن ومصدر نشوء فكرة عصمة الأنبياء في الإسلام، ذهب إلى أن هذه الفكرة مرجعها إلى تطور علم الكلام عند الشيعة وأنهم أول من تطرق إلى بحثها في العقائد^(١). هذا والحق أن العصمة بمفهومها العام قد وردت في أوساط المسلمين من خلال الإمعان في الآية القرآنية التي يصف فيها الله تعالى ملائكته بقوله ﴿عَلَيْنَا مَلَكِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢). ولن يجد الإنسان كلمة أوضح في العصمة من قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ كما أن الله سبحانه يصف منطق نبيه بالعصمة إذا يقول تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٣).

فالعصمة بمفهومها الواسع ذكرها القرآن الكريم في الملائكة والقرآن والنبى، فلا يحتاج معه علماء المسلمين إلى الأحبار والرهبان وإلى علم الكلام لا ثبات نشوء فكرة العصمة فهي نشأت منذ أن بعث الله النبى ولا يمكن لا حد إنكار عناية الشيعة بتنزيه الأنبياء عن وصمة الذنب والخطأ وهي اختيارية مع القدرة على المعصية

(١) عقيدة الشيعة، تأليف المستشرق رونالدسون صفحة ٣٢٨.

(٢) سورة النحر آية ٦.

(٣) سورة النجم الآيات ١، ٢، ٣.

المقام الثالث: الأدلة على عصمة الأنبياء.

المقدمة: الاعتقاد بعصمة الأنبياء من الذنوب والمعاصي العمدية والسهوية من المعتقدات القطعية والمعروفة عند الشيعة ويمكن تقسيم الأدلة التي ذُكرت لعصمة الأنبياء ﷺ إلى مجموعتين - احد هما الأدلة العقلية والثانية الأدلة النقلية.

* المسألة الخامسة: الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء:

أن العقل هو الذي يؤكد ضرورة عصمة الأنبياء بالأدلة التالية.

الدليل العقلي الأول: على لزوم عصمة الأنبياء: أن الهدف الأصلي من بعثتهم هو هداية البشر للحقائق والوظائف التي عينها تعالى للبشر وفي الواقع أنهم سفراء من الله للبشر يلزم عليهم هداية الآخرين للطريق المستقيم فإذا كان هؤلاء السفراء أنفسهم غير ملتزمين بالتعاليم الإلهية بل يعملون بما يخالف محتويات رسالتهم وهم أنفسهم يخالفون أقوالهم وتعاليمهم فإن الناس سوف لا يثقون بأقوالهم ونتيجة لذلك سوف لا يتحقق الهدف والغرض من بعثتهم. إذن فالحكمة واللفظ الإلهيان يقتضيان أن يكون الأنبياء معصومين عن المعاصي، بل لا يصدر منهم العمل غير الصالح حتى سهواً ونسياناً لئلا يحتمل الناس أنهم اتخذوا ادعاء السهو والنسيان مسوغاً لارتكابهم الذنب والمعصية ثم هنا إشكالات حول هذا الدليل نطرح أهمها.

الإشكال الأول:

يمكن أن يقال: يكفي في الاعتماد على قول النبي ﷺ مصونيته عن

معصية واحدة هي الكذب دون سائر المعاصي. والجواب: أن التفكيك بين المعاصي فرضية محضة لا تصح أن تقع أساساً للتربية العامة لما فيها من الإشكالات:

إما أولاً - فلأن المصونية عن المعاصي نتيجة احدي العوامل الثلاثة التي أوعزنا إليها عند البحث عن حقيقة العصمة فإن تم وجودها أو وجود بعضها حصلت المصونية عن المعاصي برمتها ولا يعقل معها التفكيك بين الكذب وسائر المعاصي، بأن يجتنب الكذب طيلة حياته بينما هو في الحين ذاته يرتكب سائر المعاصي، فإن العوامل التي تسوقه إلى اقترافها، تسوقه أيضا إلى اقتراف الكذب.

وأما ثانياً - فلأن التفكيك بينها لو صح في عالم الثبوت، فلا يمكن إثباته في حق مدعي النبوة بأن يثبت أنه لا يكذب أبداً مع ركوبة سائر المعاصي، فمن أين يحصل للأمة العلم بأن مدعي النبوة مع اقترافه لأنواع المعاصي لا يكذب أبداً، بل حتى لو صرح الداعي إلى الإصلاح بنفس هذا التفكيك لم يدعن له أحد، لسريان الريب إلى نفس هذا التصريح.

الإشكال الثاني:

أن أقصى ما يشته هذا الدليل هو لزوم نزاهة النبي عن ارتكاب المعاصي في الظاهر وبين الناس، وهذا لا يخالف عصيانه في الخلوات، فإن ذلك القدر من النزاهة كاف في جلب الثقة.

والجواب:

أن نسبة ركوب المعاصي في السر دون العلن إلى مدعي النبوة يهدم الثقة به من أساسها إذ حينذاك ما الذي يمنعه من أن يكذب ولا يعلم كذبه،

فإذا تطرق هذا الاحتمال إلى جميع أقواله انتفت الثقة فيه بالكلية.

أضف إلى ذلك، أن من كانت هذه حاله وإن أمكنه خداع الناس بتزيين الظاهر مدة من الزمن، إلا أنه لن يتمكن من البقاء على ذلك أبداً، بل لن ينقض زمان إلا وترتفع الأستار فيبدو عيبه وتنتفي الثقة فيه مطلقاً.

الإشكال الثالث:

أن هذا الدليل لا يثبت أزيد من عصمة الأنبياء بعد البعثة لحصول الوثوق في تلك الفترة، ولا يثبت لزوم عصمتهم قبلها.

والجواب: من وجهين:

الأول: أن العصمة كما عرفت غصن من دوحة التقوى ونتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي، واستشعار عظمة الرب، وهذه ليست وليدة ساعتها فينقلب غير المعصوم معصوماً بنزول جبرائيل عليه، بل هي ملكة نفسانية لا تحصل إلا بعد مجاهدات فلا معنى حينئذ لجعل البعثة حداً في عصمة النبي ﷺ لأن العصمة ملكة نفسانية تمتد جذورها إلى ما قبل البعثة بزمن مديد.

الثاني: لو كانت سيرة النبي قبل بعثته مخالفة لما هو عليه بعدها لما سكنت إليه النفوس ولما حصل الوثوق بقوله وإن صار إنساناً مثالياً، بل يتسرب الريب إلى كل ما يتفوه به من أمر ونهي وإرشاد، بحجة أنه كان في طرف من حياته مرتكباً لقبائح الأعمال، فكيف أنقلب إلى رجل معصوم؟ لا شك أن لكل صفحة من صفحات عمر الإنسان الداعي تأثيراً في جلب ثقة الناس وانقيادهم إليه، ولو كانت ملطخة بالقبائح في بعضها لما حصلت الثقة فيه ولما اصطفاه واختاره الله تعالى، فالغرض الكامل من البعثة وهو

هداية البشر لا يتحقق إلا بالثقة فيه بالكلية وهذه رهن عصمته في جميع فترات عمره.

الدليل العقلي الثاني: على لزوم عصمة الأنبياء: أن الأنبياء كما أنهم مكلفون بإبلاغ الرسالة للناس وهذا يتهم كذلك هم مكلفون بالقيام بتزكية الناس وإصلاحهم وإيصال الناس إلى الكمال.

وبتعبير آخر: إضافة إلى تكفلهم مهمة التعليم والهداية مهمة التربية والقيادة ولا يستحق مثل هذا المقام الإصلاحى إلا أولئك الذين بلغوا أسمى درجات الكمال الإنسانى ويمتلكون المصونية عن المعاصى وعن كل انحراف في أقوالهم وأفعالهم^(١).

الدليل العقلي الثالث: على لزوم عصمة الأنبياء: إن النبي لو كان يفعل المعصية ويصدر منه الخطأ والنسيان والسهو، فإما أن نقول بوجوب إتباعه أولاً.

فإن قلنا بوجوب إتباعه ولو كان يفعل المعصية أو يخطئ أو ينسى، فمعناه أنه قد أجاز الله تعالى لنا المعصية وكذلك أجاز الله تعالى للناس إتباع من يذنب ويخطئ برخصة منه تعالى وهذا باطل بالضرورة والعقل لأنه من القبيح وغير المعقول أن يكلفنا المولى أتباع من يفعل المعصية ويخطئ وينسى وإن قلنا بأنه لا يجب إتباعه وطاعته مع هذا الحال أي حال المعصية وحال الخطأ والنسيان وهذا يعني أنه ليس بنبي وانتفت فائدة البعثة والنبوة. فيكون في ذلك خروج على الهدف من بعثة الأنبياء وهي هداية البشر كما أنه مع هذا الحال - وهو فعل المعصية - تنتفي الثقة في أفعاله ولا

يحصل التصديق في أقواله لاحتمال الخطاء والمعصية عندئذ ومعه تضييع الأحكام والتعاليم الإلهية وتتفني هداية البشر.

من هنا نقول بشكل قاطع جازم: إن النبي معصوم مطلقاً عن الذنب والخطأ والنسيان والسهو.

* الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء: وقد أستدل على عصمة الأنبياء والأئمة بآيات بيّنات محكمات من القرآن الكريم وبأحاديث معتبرة من السنّة.

أما الآيات فهي:

إذا كان غير معصوم وجاز عليه أن يفعل المعاصي الكبيرة والصغيرة منها، كان للشيطان عليه سبيل ويكون الشيطان قد أغراه، وهذا خلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وخلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف ٢٤]، فقد استثنى المخلصين في سورة ص آية ٨٣ بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْوِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. ولا شك في أن السبب في يأس الشيطان من إغوائهم إنما هو: ما يملكونه من تنزيه وحيانة من الضلال المعاصي والأثام ولو كان الشيطان قادراً على إغوائهم لما تخلى عن إغوائهم إذن فعنوان المخلص مساو للمعصوم.

الدليل الثاني النقلية: - المعصوم أسوة حسنة يقتدى بها لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١). وإذا جاز على المعصوم فعل المعاصي والسهو والخطأ كيف يجوز الإقتداء

به لأن فعله وقوله وتقريره ليس بحجة مع المعاصي والسهو والخطأ، وكيف يكون من يفعل المعاصي أسوة حسنة؟ وهذا قطعاً باطل بالنسبة للمعصوم فهو معصوم عصمة مطلقة^(١).

لقد فرض القرآن الكريم على البشر إطاعة الأنبياء بصورة مطلقة كما جاء في الآية ٦٤ من سورة النساء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وإنما تصح أطاعتهم المطلقة فيما لو كانت في مسار إطاعة الله وعلى امتدادها، بحيث لا تكون إطاعتهم منافية لإطاعة الله وإلا فإن الأمر بالإطاعة المطلقة لله تعالى والأمر بالطاعة المطلقة لمن هم معرضون للخطأ والانحراف سيكونان على طرفي نقيض.

الدليل الرابع النقلي من القرآن الكريم: وقد استدل على العصمة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

لقد خصص القرآن الكريم المناصب الإلهية لأولئك الذين لم يتلوثوا بالظلم.

يقول تعالى في جوابه لإبراهيم عليه السلام الذي طلب منصب الإمامة لأبنائه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ونحن نعلم أن كل معصية هي للنفس ظلم على الأقل وكل عاص ومذنب ظالم في غرف القرآن الكريم سواء أكان الظلم دائماً مستمراً أم كان لحظة من الزمن وسواء أكان متلبساً بظلم النفس أم

(١) الهداية والتربية الإيمانية للسيد العلامة علي مكي الجزء الأول ٢٢٩.

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٤.

متلبساً بظلم الآخرين أم متلبساً بظلم الرب إذن: فالأنبياء أصحاب المنصب الإلهي (هو النبوة والرسالة) لا بد وأن يكونوا منزهين عن كل ظلم ومعصية.

الدليل الخامس على عصمة الأنبياء: لو جاز عليه السهو والخطأ أو المعاصي في غير التبليغ لجاز عليه تعدي الحدود سهواً، وإذا صدر تعدي الحدود منه سهواً كان ظالماً وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

ومن كان ظالماً لنفسه فلا يمكن أن ينال عهد الله (الخلافه) لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٢٤]. فلا بد من العصمة المطلقة كما هو الحق ويمكن استفادة عصمة الأنبياء عليهم السلام من آيات عديدة وروايات كثيرة نعرض عن ذكرها، فراجع الكتب المختصة بذلك.

• المسألة السادسة: العصمة اختيارية للنبي:

ويلزم أن تكون العصمة اختيارية أي أن النبي في تركه للذنوب والمعاصي وعدم ارتكاب الموبقات يكون مختاراً وغير مجبر عليها لأننا عرفنا أن العصمة هي القوة والقدرة التي يمنحها الله تعالى للنبي مع العلم بحقيقة الذنوب، فإعمال وتطبيق ما يعلم أمر اختياري له لأن العلم من مبادئ وأسس الاختيار، فهو إنما اختار لأنه يعلم باختياره وإرادته. وهذا نظير من يعلم أن في الماء سمّاً فهو لا يقربه ولا يشرب منه لأنه يعلم أن به موته ومثل مخترع الكهرباء الذي يعلم بوجود الطاقة الكهربائية في الأسلاك

(١) سورة الطلاق آية ١.

(٢) البقرة آية ٢٢٩.

فإنه لا يلزمها لكي يبتعد عن الخطر، وليس امتناعه إلا من جهة علمه الموجب لاختياره، فالنبي ﷺ يمتنع عن الذنوب بعلمه الحقيقي القطعي بآثارها السيئة، فالعصمة تحدث في نفسه امتناعاً اختيارياً تجعله لا يفكر في المعصية إطلاقاً فضلاً عن أن يقترفها أو يعملها.

* المسألة السابعة: شبهات حول عصمة الأنبياء

طرحت بعض الشبهات حول عصمة الأنبياء ﷺ نستعرضها في ما يلي ونُجيب عنها:

الشبهة الأولى:

أن الأنبياء معصومون في حال التبليغ وفي أمور التبليغ وتفارقه في غير حال التبليغ!

والجواب:

أن أحكام العقل غير قابلة للتجزئة فمتى ما ثبت بالدليل العقلي عصمة الأنبياء فهو حكم كلي غير قابل للتجزئة فإذا حكم العقل مثلاً وقال: إن اجتماع التقيضين أو التضدين محال فلا يمكن تجزئته كذلك حكمه بضرورة العصمة للمعصوم فهي ثابتة له لا تزول عنه ولا تفارقه في حال من الأحوال.

فهي ليست كما يقال: من أنها في حال التبليغ توجد وتفارقه في غير حال التبليغ بل هي ثابتة له ثبوتاً مطلقاً بنحو تكون من الأمور اللازمة التي لا تزول عنه أبداً ولا تتغير ولا تبدل في حال من الأحوال.

الشبهة الثانية:

إذا كان الله تعالى هو الذي قد عصم الأنبياء ونزَّههم عن ارتكاب المعاصي حيث يلزم من ذلك أنه ضمن ممارستهم للوظائف والتكاليف فإنه في هذه الحالة سوف لا تثبت لهم أية ميزة اختيارية ولا يثبت لهم أي ثواب لممارستهم الأعمال والتكاليف والاجتناب عن المعاصي!

والجواب عن هذه الشبهة:

أن العصمة لا تعني الجبر على القيام بالأعمال والتكاليف وترك المعاصي، بل هي تعني استناد الأفعال الاختيارية إليهم مع تسديد وتوفيق من عنده تعالى. فالأنبياء هم يختاروا طريقهم الواعي وبالإضافة إلى اختيارهم هذا من أجل وصول الناس إلى الكمال النهائي فهم يحتاجون إلى العناية التامة من قبل الله تعالى ومن هنا فكل من كان مقامه المعنوي أرفع كانت معرفته أعلى وأشد بالأعمال والأفعال الحسنة والقبیحة بمعنى كلما كانت مسؤوليته أثقل وأكثر خطورة من غيرهم كان أكثر على ومعرفة بالثواب على الأعمال الخيرة وبالعقاب على الأعمال السيئة ومن هنا لعلمه بعواقب الأمور وخوفه من الانزلاق فهو يختار طريقه فالنبي مختار لطريقه وهو يتمتع بنعمة خاصة وهي العناية والتسديد من قبله تعالى.

الشبهة الثالثة:

أن الأنبياء وسائر المعصومين عليهم السلام يعتبرون أنفسهم من المذنبين كما يُنقل عن أيديهم ومناجاتهم وينقل أيضاً استغفارهم من الذنوب ومع صدور مثل هذا الاعتراف والإقرار منهم فكيف يصح لنا أن نعتقد بعصمتهم^(١)؟

(١) دروس في العقيدة الإسلامية لمصباح يزدي صفحة ٢٤٢.

والجواب:

أن المعصومين عليهم السلام قد ارتفعوا إلى أسمى درجات الكمال والقرب الإلهي - مع ملاحظة اختلاف مراتبهم - لذلك يشعرون بأنهم مكلفون بوظائف تفوق وظائف الآخرين بل إنهم يعتبرون أي توجه والتفات منهم لغير معبود هم ومحبوبهم ذنباً كبيراً، ومن هنا يقفون موقف الاستغفار والاعتذار حسب القول المشهور «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ولا نعني أن يكون المعصوم منزهاً عن كل عمل يطلق عليه معصية بمفهومها الواسع، حتى اللغو بل نعني تنزيهه عن مخالفة التكاليف الإلزامية وعن ارتكاب المحرمات الشرعية لا كل ما يطلق عليه معصية حتى ترك الأولى فهو مباح وإن كان يسمى معصية باللغة والعرف، أو أن المعصوم يريد أنن يعلم الناس طريقة الدعاء وكيفية الاستغفار والوصول إلى الله لا أنه ارتكب ذنباً.

الشبهة الرابعة:

ذكرت بعض الآيات الكريمة الدالة على عصمة الأنبياء أنهم يعتبرون من المخلصين ولا يطعم الشيطان فيهم، مع أن القرآن الكريم نفسه يذكر بعض تصرفات وتأثيرات الشيطان في الأنبياء عليهم السلام منها ما ورد في الآية ٢٧ من سورة الأعراف: ﴿يَنْبِئُكَ آدَمُ لَا يَفْتِنُكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾. حيث تنسب للشيطان خداعة لآدم وحواء والذي أدى إلى خروجهما من الجنة وفي الآية ٤١ من سورة ص، على لسان أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَأْيِي مَسْنَى الشَّيْطَانِ يَنْصَبُ وَعَذَابٍ﴾. وفي الآية ٥٢ من سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّتِهِ﴾. حيث نسبت بعض من الوسوس الشيطانية لجميع الأنبياء كيف صح ذلك المس وغيره مع عصمتهم؟

والجواب:

لم يُلاحظ في هذه الآيات إيُّ تصرف أو تأثير شيطاني أدى إلى مخالفة الأنبياء للتكاليف الإلزامية أما الآية ٢٧ من سورة الأعراف فتشير إلى وسوسة الشيطان لا دم وحواء للأكل من الشجرة المنهية عنها فإنه لم يتعلق نهى تحريمي بالأكل، بل الوارد فحسب هو تذكير آدم وحواء وتنبيهما على أن الأكل منها سيؤدي إلى خروجهما من الجنة والهبوط إلى الأرض وأن وسوسة الشيطان سببت مخالفتها لهذا النهي الإرشادي ومن باب ترك الأولى والملاحظ أن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف ولم تنزل شريعة بعد وأما الآية ٤١ من سورة ص فإنها تشير إلى المتاعب والتحديات التي توجهت لأَيُوب عليه السلام من قبل الشيطان وليس فيها أية دلالة على مخالفته للتكاليف الإلزامية، وأما الآية ٥٢ من سورة الحج فهي مرتبطة بالعراقيل التي يضعها الشيطان في سبيل وصول الأنبياء إلى أهدافهم في طريق هداية الناس وأخيراً فإن الله تعالى يبطل مكر وخداع الشيطان ويثبت الدين الحق، على يد الأنبياء المخلصين الذي لا يستطيع الشيطان خداعهم وإغواءهم.

الشبهة الخامسة:

هي عن خطيئة آدم وغوايته وعصيانه ففي الآية ١٢١ من سورة طه نُسب العصيان لآدم عليه السلام: ﴿... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ أَجْبَنَهُ ۖ﴾ وفي الآية ١١٥ من السورة نفسها نسب النسيان له بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۚ﴾

والجواب عن هذه الشبهة:

هو نفس جواب الشبهة الرابعة، وباختصار: أن يكون النهي الإلهي هنا

هو نهى إرشادي^(١). أريد منه الإرشاد إلى الابتعاد عن الأكل من الشجرة وليس نهياً مولوياً يراد منه التحريك والطلب الجدّي، والمعصية المستحيلة على الأنبياء والتي توجب العقاب هي في الأوامر المولوية وليست في الإرشادية وكذلك النسيان لم يكن مرتبطاً بالتكليف الإلزامي بل النسيان معناه الترك نظير قوله تعالى في حق أهل النار ﴿الْيَوْمَ نُنَسِّئُكُمْ﴾ أي نترككم إذ لا يعقل في حقه تعالى النسيان.

الشبهة السادسة:

ورد في قصة موسى ﷺ أن قبطياً تشاجر مع رجل من بني إسرائيل، فقتله موسى ﷺ ولأجل ذلك هرب من مصر، وحين بعثه الله تعالى لدعوة الفراعنة قال حاكياً عنه تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء ١٤] وحينما ذكره فرعون بالقتل أجاب موسى ﷺ: ﴿فَعَلَيْهَا إِذَا وَاَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾. فمثل هذه الآيات التي تذكر الذنب والضلال فكيف تتلاءم وعصمة الأنبياء قبل بعثتهم؟

والجواب عن هذه الشبهة:

أولاً: إن الآية الكريمة: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ التي وردت على لسان موسى كانت وفق نظر الفراعنة، حيث يعتبرون موسى ﷺ قاتلاً ومذنباً وأخاف أن يقتلوني قصاصاً، وليس في نظر الشريعة ولا في نظر موسى ﷺ بل نظرهم.

(١) تقسم الأوامر والنواهي في الشريعة إلى قسمين: مولوي وإرشادي، والعماد من المولوي ما يصدر من المولى ويكون فيه إرادة للطلب الجدّي والتحريك نحو المطلوب أو الزجر عنه أو النهي عنه كما في أوامر الصلاة والصيام وغيرهما والنهي عن الزنا واللغية وغيرهما وأما الإرشادي هو الإرشاد لا للإلزام.

ثانياً: والجملة (وأنا من الضالين) أما أنه قالها مجازة للفراغة وتمشياً معهم، ووفقاً لنظرهم كنت ضالاً عندهم وعلى كل حال فلا تدل على مخالفة موسى للأوامر والنواهي الإلهية وأما قالها لأنه كان ضال الطريق فدخل مدينتهم فجأة وبعبارة أخرى لا تدل على مخالفته للتكاليف الإلزامية.

الشبهة السابعة:

في الآية ٩٤ من سورة يونس قال تعالى مخاطباً النبي يونس عليه السلام: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وفي الآية ١١٤ من سورة الأنعام: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وفي الآيات ١٤٧ من سورة البقرة و٦٠ من آل عمران و١٧ من سورة هود و٢٣ من سورة السجدة ينهى فيها الله تعالى نبيه عن الشك والترديد فكيف يمكن القول بأن إدراك الوحي لا يقبل الشك والترديد؟

والجواب:

أن هذه الآيات لا تدل على وقوع الشك والترديد فعلاً للنبي بل إنها في صدد التأكيد على هذه الملاحظة بأنه لا مجال للشك والترديد في رسالته. وفي الواقع أن مثل هذا الخطاب ليس المراد به النبي عليه السلام وإن كان هو المخاطب بل مراد به من باب: (إياك أعني واسمعي يا جارة) إذ المراد جعل التكاليف لسائر المؤمنين، وإن كان المخاطب النبي عليه السلام.

الشبهة الثامنة:

نُسبت في القرآن الكريم بعض الذنوب للنبي محمد ﷺ وقد غفرها الله له بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح ٢].

والآية الثانية: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد ١٩].

والآية الثالثة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر ٥٥] كيف تصح هذه النسبة مع القول بعصمتهم؟

والجواب:

أن المراد من الذنب في هذه الآيات الكريمات، ذلك الذي وجهه المشركون للنبي قبل الهجرة وبعدها، وهو إهانتة لأصنامهم وأوثانهم، بمعنى عندهم مذنب لتصديه لأصنامهم وعقائدهم الفاسدة، والمراد من المغفرة مواجهة الآثار التي يمكن ترتبها على ذلك وإزالتها والشاهد على هذا التفسير إنه اعتبر فتح مكة سبباً وعلّة لمغفرته^(١) حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

ولا يستقيم المعنى في الآيتين إلا إذا كانت اللام في (ليغفر) للتعليل. وهذا نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف هو ترك العقاب على المخالفة فالمراد بالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد

(١) راجع الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ٢٥٤/١٨.

استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيغفر له الله والمغفرة هي الستر على الشيء وهذا هو المراد منه في المقام وقيام النبي ﷺ بالدعوة ونهضته على الكفار والوثنية فيما تقدم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملا منه ذا تبعة سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما دامت لهم شوكة وقوه وما كانوا لينسوا مَنْ قتل صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه، غير أن الله سبحانه رزقه فتح مكة فذهب بشوكهم وقوتهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه من الذنب وفق نظرهم وحفظه وأمنه منهم فالمراد بالذنب في هذه الآيات هو التبعة السيئة التي لدعوته ﷺ عند الكفار والمشركين وهو ذنبٌ لهم عليه في نظرهم وعرفهم كما في قول موسى لربه: ﴿وَلَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(١). فيكون معنى ما تقدم من ذنبه هو ما كان منه بمكة قبل الهجرة من إهانة موجه إلى أصنامهم وأما ما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة أيضا من إهانة واحتقار وتحطيم لأصنامهم وأوثانهم، وأما المراد من مغفرته تعالى لذنبه هو ستره عليه بكسر شوكتهم وذهاب قوتهم.

الشبهة التاسعة:

هي شبهة نوم النبي عن الصلاة فقد روت بعض العامة وقالوا بإمكان النبي ﷺ أن ينام عن الصلاة؟ حيث نام ولم يستيقظ حتى آذاه حر الشمس ثم استيقظ والرسول يقول نمت بوادي الشيطان^(٢).

(١) سورة الشعراء: الآية ١٤.

(٢) الكامل في التاريخ ١٣٥/٣.

والجواب عن هذه الشبهة:

أن هذا الحديث قد روته الناصبة وبعض العامة بسند ضعيف عندنا وعندهم لأنهم يحدثون حديثاً «كشرت عليّ الكذّابة فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فخذوه وما خالفه فردوه». وقد رووا ما معناه أن الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وسيدهم النبي ﷺ، فحديثهم عن النبي (نمت بوادي الشيطان) مردود من عدّة وجوه:

الأول:

يخالف ما جاء في القرآن الكريم.

الثاني:

من حيث دلالة هذا الحديث لا يجتمع مع ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿ [النحل الآيتان ٩٩ و ١٠٠].

الثالث: أن النبي ﷺ لا يسهوا ولا ينسى ولا يغفل وقد ثبت بالدليل العقلي والنقلي كما مرّ.

أضف إلى أن النبي يرى في نومه وحي مُنزل فهو حجة شرعية لنا وهو بمثابة الأمر الإلهي، انظر رؤيا إبراهيم حيث عبر إسماعيل عنها بالأمر فكيف يكون للشيطان سلطان عليه في نومه؟

وهذا غير ممكن مع مقام النبي وعظمته أن يبقى نائماً وقت الصلاة الذي كان يحافظ عليها ويدعولها.

وهل تصدقون إذا نام عندكم عالم جليل ولم يستيقظ إلى صلاة الصبح ألا تعتبرونه عيباً ونقصاً فيه، فكيف بالنبي النائم عن الصلاة إذن فالغفلة وإلقاء الشيطان في قلب النبي غير ممكن حتى في حال النوم هذا هو اعتقادنا أن الأنبياء معصومون عن السهو والنسيان ونوم الغفلة فإن وقوعها منهم خلاف الحكمة وبه يفتح الباب أمام أصحاب الشبهات الواهية والضعيفة الذي يصطادون في الماء العكر وسيقولون انه إذا كان النبي يسهو في أكله وشربه ونومه وأموره الخاصة فكيف لا يخطأ في التبليغ وما ينزل عليه من وحي الله وآياته؟ وهذا خلاف الحكمة من جعل النبوة والإمامة^(١).

الشبهة العاشرة:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس ١]. وردت روايات من طرق أهل السنة ومن بعض الشيعة أن سورة عبس نزلت في قصه عبد الله بن أم مكتوم الأعمى^(٢) دخل على النبي ﷺ وعنده صنديد قريش يناجيه في أمر الإسلام فعبس النبي ﷺ عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات فكيف وهذا يتنافى مع العصمة والأخلاق؟

الجواب:

أولاً: في بعض الروايات أن العابس بوجه الفقير السائل هو رجل من بني أمية فنزلت الآيات توبيخاً له.

وثانياً: ويؤيده أن الضمير للغائب ولو كان المخاطب الرسول الأكرم لكان قوله تعالى بضمير المخاطب (عبست وتوليت).

(١) الأنوار الإلهية في المسائل والمقائد لأية الله العظمى العيرزا جواد التبريزي.
(٢) راجع تفسير الرازي ومجمع البيان والدر المنثور وغيرها في تفسير سورة عبس.

وثالثاً: أن العبوسية لا تناسب مقام النبوة لأن النبي قدوة يُقتدى به.

ورابعاً: يحصل تعارض بين قوله تعالى: (عبس وتولى) وبين قوله تعالى: (إنك لعلی خلق عظیم) تعارض بين الذم والمدح.

وخامساً: إن قوله تعالى (أما من استغنى فأنت له تصدى) ... إلى آخره لا يلام أن يكون المراد هو النبي والمتلبس بالغنى هو النبي فمن يتصدى له؟ فالتوبيخ شديد هنا في آية (أما من استغنى) وأن المراد بمن استغنى من تلبس بالغنى ولازمه العظمة في أعين الناس والاستكبار عن إتباع الحق وهو غيره ﷺ لأنه هو ﷺ المتصدي فالمحصل: أن الآية الكريمة نزلت في غير النبي الأكرم لما ذكرنا من الأدلة السابقة الذكر.

الشبهة الحادية عشرة:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِمْ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١). فهذه الآية ظاهرها يدل على أن النبي يوسف عليه السلام هم بها وما ل قلبه إليها وهذا يتنافى مع العصمة. وقالوا إن الشيطان وسوس له وأغواه؟

والجواب يقع من وجوه:

الوجه الأول: إذا كان قلبه عليه السلام مملوءاً بالمحبة الإلهية (بدليل لولا أن رأى برهان ربه) فالبرهان هو الإيمان بالله فقلبه كان مشغولاً ومشغولاً بحب الله فلم يكن فيه محل ولا موضع ذرة لغيره تعالى فمن أين وسوس له الشيطان ومن أين دخل حبها في قلبه ومن أين مال لها؟

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

الوجه الثاني: ليس للشيطان سلطاناً على المخلصين. فقد شهد تعالى أن يوسف عليه السلام من عباده المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شيء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزوين نفس أو داع يدعوهم دون الله سبحانه فلا يقتربون معصية ولا يهتمون بها حيث رأى برهان ربه وهذه هي العصمة.

الوجه الثالث: من لطيف الإشارة في الآية الكريمة في قوله تعالى (لنصرف عنه سوء الفحشاء) فأخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفاً عنهما لما في الثاني من الدلالة على أنه كان فيه ما يقتضي اقترافهما المحجوج إلى صرفه عن ذلك وهو بنافي شهادته تعالى بأنه من عبادة المخلصين فيكون معنى الآية والله قد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه فالأنا نسب أن يكون المراد بالسوء في الآية هو الهمم بها والميل إليها، كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو عليه السلام لم يفعل ولم يكذب بهم بها لرؤيته برهان ربه ويراد به السبب المفيد لليقين (هو حبه تعالى) لتسلطه على كل قلبه عليه السلام فلا يوجد مجال في قلبه عليه السلام حب غير الله تعالى.

الشبهة الثانية عشرة:

في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾^(١) فقد فسرهما البعض أنه يمكن أن يكون قوله تعالى: (إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) بمعنى ترك قومه مغاضباً لله تعالى وهو يظن أن الله سبحانه لن يقدر عليه (بمعنى لن يتمكن عليه) فكيف تقولون بعصمة الأنبياء وهذه الآية تخالف ما تقولون؟

والجواب:

هذا التفسير السابق مما يجعل ساحة الأنبياء الكرام عن ذلك قطعاً لما ثبتت عصمتهم بالأدلة العقلية والنقلية وأما التفسير الصحيح هو: وأذكر ذا النون (صاحب الحوت) هو يونس بن متي الذي بُعث إلى أهل نينوى فدعا هم فلم يؤمنوا فتركهم مغاضباً لقومه وهو يظن (هنا الظن المعبر وهو بمنزلة اليقين أي علم) علم أن مولاة تعالى لن يُضَيِّقَ عليه تعالى رزقه وهو في بطن الحوت.

الشبهة الثالثة عشر:

نُسب الكذب في القرآن الكريم لبعض الأنبياء ومن الآيات التي تدل على ذلك الآيات ٦٣ من سورة الأنبياء نقلاً عن إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَعَلُوهُمْ إِنَّ كَاثِبُوا يَنْطِقُونَ﴾ مع أنه هو الذي حطم أصنامهم والآية ٧٠ من سورة يوسف: ﴿ثُمَّ أَذُنٌ مُؤْدِنٌ آيْتُهَا الْعُيُورُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ مع أن إخوة يوسف لم يرتكبوا السرقة، فكيف لا تتعارض هذه الآيات مع قول القائلين بعصمة الأنبياء؟

والجواب:

عن مثل هذه الآيات التي ظاهرها الكذب من قبل الأنبياء هو أن هذه الأقوال إنما صدرت من باب التورية (أي إرادة معنى آخر) لأجل بعض المصالح الأكثر أهمية كما أشير إلى ذلك في بعض الروايات وعلى إي حال فلا يُعتبر مثل هذه التورية كذب ومعصية ولا يخالف العصمة ففي آية ٦٢ من سورة الأنبياء لم يكن إبراهيم كاذباً حيث علق إخباره بشرط النطق ومفهوم الآية فإن لم ينطقوا فما فعلوه ولذا رجعوا إلى أنفسهم فاستيقنوا

بأنهم ظالمون كما قال الله تعالى بعد آية ٦٢ من سورة الأنبياء في آية ٦٤ و ٦٥ ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَتُورًا يَنْطِقُونَ﴾ بعد ما اعترفوا أن هذه الأصنام لا تنطق ولا تنفع ولا تضر.

وأما في آية ٧٠ من سورة يوسف كان يوسف عليه السلام أمر المؤذن يخبر أخوته أنكم لسارقون وكان قصد المؤذن أنهم سرقوا يوسف من أبيه من قبل ولم يكن قصده أنهم سرقوا صواع الملك حتى يكون كذباً.

الشبهة الرابعة عشر:

سأل المأمون الإمام الرضا عليه السلام عن عصمة الأنبياء فأجابه أنهم معصومون واعترض عليه المأمون بهذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾^(١)، أنه كيف يقول للكوكب هذا ربي وهذا مما ينافي عصمة الأنبياء؟

والجواب:

فأجابه الإمام الرضا عليه السلام بما يلي: إن إبراهيم عليه السلام وقع نظره إلى ثلاثة أصناف: صنف يعبد الزهرة وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس فلما جنَّ عليه الليل رأى الزهرة، قال: هذا ربي على الإنكار والاستخبار، لا على الاعتقاد، فلما أفل الكوكب قال لا أحبُّ الأفلين لأن الأفول من صفات المحدث لا من صفات القديم. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، على الإنكار والاستخبار... إلى آخره ثم قال لعبدة الزهرة والقمر والشمس ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ عَلَىٰ بُرْيٍّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وإنما أراد إبراهيم بما قال: أن يبين لهم بطلان

(١) سورة الأنعام الآية ٧٦.

دينهم، وكان ما احتج به على قومه ما ألهمه الله عز وجل وآتاه كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فقال المأمون للإمام الله ذُرك يا بن رسول الله^(١).

الشبهة الخامسة عشر:

سأل المأمون الإمام الرضا عليه السلام السؤال التالي: فقال له: يا بن رسول الله ليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟

قال الإمام عليه السلام: بلى. قال المأمون: أخبرني عن قول الله: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي^(٢).

والجواب:

فأجابه الإمام الرضا عليه السلام عن تفسير الآية أن النبي موسى عليه السلام دخل مدينه من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء، فوجد رجلين يقتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فقضى على العدو الكافر بحكم الله تعالى فوكزه فمات، قال هذا من عمل الشيطان، يعني الاقتال الذي وقع بين الرجلين، لا ما فعله موسى من قتل الرجل، وطلق المأمون قائلاً: فما معنى قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ فأجابه الإمام عليه السلام عن معنى الآية الكريمة يقول النبي موسى عليه السلام: وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة فأغفر لي، أي استرني من أعدائك لثلا يظفروا بي فيقتلونني قال موسى ربِّ بما أنعمت عليّ من القوة حتى قتلت

(١) الميزان ٢٠٥/٧، حياة الإمام الرضا للقرشي ٣٠٧/١.

(٢) سورة القصص: الآيات ١٥ - ١٦.

رجلاً بوكزة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل أجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى، فقال المأمون: جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن^(١).

الشبهة السادسة عشر:

سأل المأمون الإمام الرضا عليه السلام السؤال التالي: أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟

قال الإمام: بلى، قال المأمون أخبرني عن تفسير هذه الآيات ﴿أَلَمْ نَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ و﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ و﴿وَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ﴾^(٢).

فأجاب الإمام الرضا عليه السلام فقال: قال الله تعالى لنيه محمد صلى الله عليه وآله: (ألم يجدك يتيمًا فآوى) يقول: ألم يجدك وحيداً فآوى إليك الناس (ووجدك ضالاً) يعني عند قومك فهدى بمعنى هداهم إلى معرفتك ودينك (ووجدك عاتلاً فآغنى) يقول: أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً.

فقال المأمون: بارك الله فيك يا بن رسول الله^(٣).

الشبهة السابعة عشر:

في سورة ص الآية ٣٢، ٣١، ٣٣. وردت قصة سليمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَمِيِّ الصَّافِيَّتُ الْيَتِيمَاتُ﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ تتحدث عن قصة خيله التي فسرها البعض بصورة سيئة وقال: إن سليمان كان غارقاً في مشاهدة الخيل، والشمس قد غربت واستترت خلف حجاب الأفق،

(١) الميزان ٢٢/١٦-٢٣.

(٢) سورة الضحى الآية ٨٦.

(٣) تفسير البرهان، راجع تفسير سورة الضحى، حياة الإمام الرضا للقرشي ٣٠٨/١.

فغضب سليمان كثيراً، لأنه لم يكن قد صل صلاة العصر، كما نسبوا أموراً سيئة ومحرمة أخرى إلى هذا النبي عندما قالوا: إن المقصود من جملة (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) أنه أمر بضرب وقطع سوق وأعناق الخيل بالسيف، لأنها شغلته عن ذكر الله والصلاة.

والجواب يقع من وجوه:

الأول: أن الغفلة عن الصلاة غير ممكنة، لأنها تتعارض مع مقام النبوة وعظمته، والنبي منزّه من كل عيب وقبيح كما ثبت في دليل العصمة المطلق.

الثاني: أن إرجاع الضمير في جملة ﴿...تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُذُومًا عَلَيَّ...﴾ بعيد جداً لأن فيه تكلف وخلاف الظاهر، وأما إرجاعه إلى الجياد هو الصحيح.

الثالث: أن التفسير الصحيح لجملة ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي كان يمسح أرجلها وأعناقها أو أمر بمسح أرجلها وأعناقها تكريماً لجهادها في سبيل الله، وأما تفسيرها «كان يضرب ويقطع أرجلها وأعناقها» خلاف الظاهر.

الرابع: لا يخفى على أحد أن الخيول لا ذنب لها كي يقتلها سليمان فكيف يصدر من نبي كبير عند الله؟

الفصل السابع عشر

الإمامة والخلافة

مقدمات الفصل:

- * المقدمة الأولى: تعريف الإمامة
- * المقدمة الثانية: هل الإمامة من الأصول أو الفروع؟
- * المقدمة الثالثة: ماهية الإمامة عند أهل السنة.
- * المقدمة الرابعة: مؤهلات الإمامة عند أهل السنة.
- * المقدمة الخامسة: بماذا تتعقد الإمامة عند أهل السنة؟
- * المقدمة السادسة: ماهية الإمامة عند الشيعة الإمامية.
- * المقدمة السابعة: المصالح العامة وصيغة الحكومة بعد النبي ﷺ.
- * المقدمة الثامنة: هل الشورى أساس للحكم والخلافة؟
- * المقدمة التاسعة: هل البيعة أساس للحكم والخلافة؟
- * المقدمة العاشرة: تصور النبي الأكرم للقيادة بعده.
- * المقدمة الحادية عشرة: تصور الصحابة للخلافة بعد النبي ﷺ.
- * المقدمة الثانية عشرة: صيغة القيادة في الشرائع السابقة.

البحوث في الإمامة:

- * البحث الأول: الأدلة العقلية لإثبات العصمة.
- * البحث الثاني: السنة النبوية وتنصيب علي عليه السلام للإمامة.
- * البحث الثالث: السنة النبوية والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام.
- * البحث الرابع: عصمة الإمام في القرآن.
- * البحث الخامس: الإمام أفضل الصحابة.
- * البحث السادس: في إمامة باقي الأئمة عليهم السلام.

الفصل السابع عشر:

الإمامة والخلافة^(١)

مقدمات الفصل

* المقدمة الأولى: في تعريف الإمامة

عرِّفت الإمامة بوجوده:

١- الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا^(٢).

٢- الإمامة خلافة الرسول في إقامة الدين، بحيث يجب إتباعه على كافة الأمة^(٣).

٣- الإمامة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا^(٤).

٤- الإمامة خلافة عن الرسول في إقامة الدين وحفظ المِلَّة بحيث يجب إتباعه على كافة الأمة^(٥).

(١) المقصود من الإمامة، إمامة الأمة جمعاء، خلافة عن الرسول الأعظم ﷺ.

(٢) الموافق: للقاضي عضد الدين الإيجي (م ٧٥٧هـ) ص ٣٤٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) مقدمة ابن خلدون: ص ١٩١.

(٥) دلائل الصدق: ٤/٢، والتعريف للفضل بن رزبهان الأشعري.

والتعريف الأول أليق على مذهب الإمامية، والبقية ألصق بمذهب أهل السنة في الإمام.
والأولى أن تُعرّف الإمامة بأنها رئاسة عامة إلهية في أمور الدين والدنيا^(١).

* المقدمة الثانية: هل الإمامة من الأصول أو الفروع؟

اتفقت كلمة أهل السنة أو أكثرهم، على أن الإمامة من فروع الدين.
قال الترمذي: واعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات^(٢).
وقال التفتازاني: لا نزاع في أن مباحث الإمامة يعلم الفروع أليق^(٣).
وقال الغزالي: (اعلم أن النظر في الإمامة أيضاً ليس من فن المعقولات بل من الفقهيات)^(٤) وأما الشيعة، فالاعتقاد بالإمامة عندهم أصل من أصول الدين، وسيظهر وجهه في الأبحاث التالية.

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو أنه إذا كانت الإمامة من الفروع، فأبي معنى لسُلّ السيف على هذا الحكم الفرعي، حتى قال الشهرستاني وأعظم خلاف بين الأمة، خلاف الإمامة إذ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإمامة في كل زمان^(٥)، فإذا كان الاعتقاد بإمامة شخص، تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ من الأحكام الفرعية، فإن

(١) الإلهيات للعلامة الشيخ سبحاني ١/ ٥١٠ - الدار الإسلامية.

(٢) غاية المرام في علم الكلام: ٣٦٣ لسيف الدين الأمدي.

(٣) شرح المقاصد: ٢٧١/٢.

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٢٣٤.

(٥) الملل والنحل للشهرستاني: ٢٤/١.

المخالفة فيه لا تستلزم تكفير المخالف أو تفسيقه أو إراقة دمه، إذا كان للمخالف حجة شرعية، كمخالفة المجتهد للمجتهد في مسائل الفروع مثلاً إن المسح على الخُفَّين أو جواز غسل الرجلين أو أية مسألة من مسائل الفروع الخلافية فهل ترى من نفسك تجويز تكفير المخالف أو تفسيقه؟!

نعم هذا الصراع بين القولين، أراق الدماء الطاهرة، وجرَّ على الأمة الويل والثبور وعظائم الأمور، وما هذا إلا لأنَّ الإمامة من الأصول وليست من الفروع ودليل آخر أن الإمامة من فن المعقولات حيث لولاها لما حصلت هداية البشر وخروجهم من الظلمات إلى النور، فالعقل يشترط على الإمام أن يكون قدوة لكي يصل الناس إلى الكمال المنشود.

* المقدمة الثالثة: ماهية الإمامة عند أهل السنة

إن حقيقة الإمامة تختلف عند السنة، عما هي عند الشيعة، فالسنة ينظرون إلى الإمام كرئيس دولة، ينتخبه الشعب أو نواب الأمة ومن المعلوم أن الاعتقاد برئاسة رئيس جمهورية أو رئيس وزراء، ليس من الأصول بحيث يُفَسِّقُ من لم يعتقد بإمامته ورئاسته وهذه هي البلاد الإسلامية لم تزل يسيطر عليها رئيس بعد آخر رغبة أو رهبة، ولم يرَ أحدُ الاعتقاد بإمامته من الأصول ولم يجعل فسقَه موجباً لخلعه.

وأما الشيعة الإمامية، فينظرون إلى الإمامة بأنها استمرار لوظائف الرسالة^(١)، ومن المعلوم أن ممارسة هذا المقام، يتوقف على توفر صلاحيات عالية لا ينالها الفرد إلا إذا وقع تحت عناية إلهية ربانية خاصة

(١) لا نفس الرسالة فإن الرسالة والنبوة مختومتان بالتحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

فيخلف النبي في علمه بالأصول والفروع وفي عدالته وعصمته وقيادته الحكيمة وغير ذلك من الشؤون:

وأما أهل السنة ينظرون إلى الإمامة كسياسة وقتية زمنية وإلى الإمام كسائنس عادي يقود أمتة في حياتهم الدنيوية ولأجل ذلك لا يكون الفسق والجور، وهتك الأستار والظلم قادحاً في إمامتهم، كما أن التسلط على الرقاب بالقهر والاستيلاء والنار والحرب أحد الطرق المسوغة للتربع على منصة الإمامة وإليك تصريحات، وأقوال بعض علماء وفقهاء السنة:

١- قال الطحاوي: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع بدأ من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة)^(١).

٢- قال الفتازاني: (ولا ينزع الإمام بالفسق أو بالخروج عن طاعة الله تعالى والجور والظلم على عباد الله)^(٢).

إلى غير ذلك من الكلمات التي ذكروها في وجوب إطاعة السلطان الجائر وحرمة الخروج عليه^(٣).

وإذا كانت هذه هي حقيقة الإمامة عندهم وكان هذا هو الإمام، فلا غرابة حيثئذ في جعلها من الأحكام الفرعية.

(١) متن شرح العقيدة الطحاوية: ص ٣٨٧.

(٢) شرح العقائد النسفية لسعد الدين الفتازاني. ص ١٨٥ طبعة استانبول.

(٣) لاحظ مقالات الإسلاميين للأشعري: ٣٢٣، أصول الدين لمحمد بن عبد الكريم اليزدي

* المقدمة الرابعة: مؤهلات الإمام عند أهل السنة:

إن أهل السنة لم يشترطوا في الإمام سوى عدة صفات ومؤهلات وصلاحيات، تشترط في عامة الرؤساء، وإليك نصوصهم:

أ - قال عبد القاهر البغدادي: قال أصحابنا إن الذي يصلح للإمامة ينبغي أن يكون فيه أربعة أوصاف: العلم، والعدالة، والاهتداء إلى وجوه السياسة وحسن التدبير، والنسب من قريش^(١).

ب - وقال أبو الحسن البغدادي الماوردي (م ٤٥٠هـ): الشروط المعتمدة في الإمامة سبعة^(٢): العدالة، والعلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، وسلامة الحواس، وسلامة الأعضاء، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، والشجاعة، والنسب من قريش.

ج - وقال ابن حزم (م ٤٥٦هـ): يشترط فيه أمور:

١- أن يكون صلبة من قريش.

٢- أن يكون بالغاً مميزاً.

٣- أن يكون رجلاً.

٤- أن يكون مسلماً^(٣).

٥ - أن يكون متقدماً لأمره.

٦- عالماً بما يلزمه من فرائض الدين.

(١) أصول الدين لأبي منصور البغدادي: ٢٧٧.

(٢) الأحكام السلطانية: ٦.

(٣) الفصل: ١٨٦٤.

٧- متقياً لله بالجملة، غير معلني الفساد في الأرض.

٨- لا يكون مولياً عليه، وغير هؤلاء يزيد أو ينقص من هذه الشروط.

ويلاحظ على هذه الشروط - صفات الإمام - ما يلي:

أولاً: إن اختلافهم في عدد الشرائط قلّة وكثرة ناشئ من افتقارهم النص الشرعي في مجال الإمامة واعتقادهم أن منصب الإمامة - مع عظمتها - لم يتكلم النبي الأكرم فيه، وإنما الموجود عندهم نصوص كلية لا تتكفل تبين صيغة الحكومة الإسلامية بعد النبي، وإنما المصدر لهذه الشروط عندهم هو الاستحسان والاعتبارات العقلانية وملاحظة الأهداف التي يمارسها الإمام والخليفة بعد النبي ﷺ.

وهذا مما يقضي منه العجب وهو أن النبي كيف ترك بيان هذا الأمر المهم، شرطاً وصفةً، مع أنه بيّن أبسط الأشياء وأدناها، من المكروهات والمستحبات.

وثانياً: إن اعتبار العدالة لا ينسجم مع ما ذهبوا إليه من أن الإمام لا ينخلع بفسقه وظلمه، وغيره مما نقلناه عنهم.

كما أنهم جعلوا القهر والاستيلاء، أحد الأمور التي تنعقد بها الإمامة، كما سيأتي وتجعل المستولي والقاتل ولي أمر، يشمل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء ٥٩].

ومن المعلوم أن المتسلط بالقوة والحرب والنار لا يهيمه إلا السلطة والحكم وسواءً اجتمعت فيه هذه الشروط أم لا، أ فهل يجب إطاعة مثل هذا؟ والجواب يقولون نعم كما مر في أقوالهم.

وثالثاً: إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن الخلفاء بعد علي عليه السلام كانوا يفقدون أكثر هذه الصفات ومع ذلك يمارسون الخلافة من تسلّم معاوية وخلفاء بني أمية السلطة إلى آخر خلفاء بني العباس، خضبوا وجه الأرض بدماء الأبرياء وقتلوا الصحابة والتابعين ونهبوا الديار والأموال.

وأما مؤهلات الإمام عند الشيعة هي:

١- أن يكون مُنصّباً من قبل الله تعالى.

٢- أن يكون متصفاً بملكة العصمة.

٣- ولا بد أن يملك الإمام العلم الموهوب من الله، بحيث يجعله أعلم

الناس.

* المقدمة الخامسة: بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنة؟

إن عقيدة أهل السنة في الإمامة، أنها عندهم أشبه بسياسة وقتية زمنية يقودها حاكم - إمام - يرجع تعيينه إلى نفس الأمة، لا إلى الله سبحانه ولا إلى رسوله وقد اختلفوا فيما تنعقد به الإمامة على أقوال أو نظريات شتى إليك بعضها:

١- قال الإسفرائيني (م ٤٠٦هـ): تنعقد الإمامة بالقهر والاستيلاء ولو كان فاسقاً أو جاهلاً أو عجمياً^(١).

٢- قال الماوردي (م ٤٠٥هـ): اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم، على مذاهب شتى، فقالت طائفة: لا تنعقد إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد.

(١) إحقاق الحق للسيد التنسري: ٣١٧/٢ نقله عن كتاب الجنائيات للإسفرائيني.

وقالت طائفة أخرى: أقل ما تنعقد به منهم الإمامة، خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة، استدلوا بأمرين أحدهما: أن بيعة أبي بكر انعقدت بخمسة هم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن خضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة، والأمر واستدلوا أيضاً بالأمر الثاني: أن عمر جعل الشورى في ستة لينعقد لأحدهم برضا الخمسة. وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة.

وقال آخرون من علماء الكوفة: تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكماً وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين^(١).

وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد، لأن العباس قال لعلي: أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس عم رسول الله ﷺ بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان^(٢) ولأنه حكم، وحكم الواحد نافذ

٣- قال القرطبي (م ٦٧١هـ): فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت، ويلزم الغير فعله، خلافاً لبعض الناس حيث قال: لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد، ودليلنا أن عمر عقد البيعة لأبي بكر، ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك^(٣).

٤- قال الفتازاني (م ٧٩١هـ): وتنعقد الإمامة بطرق:

أحدها: بيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس

(١) الأحكام السلطانية ص ٦ - ٧، طباعة الحلبي بمصر.

(٢) الأحكام السلطانية: ٧٢-٧٧.

(٣) ولعل القرطبي لم يقرأ مأساة السقيفة بين المهاجرين والأنصار وإلا فلا اعتراض والنزاع كان قائماً على قدم وساق راجع كتاب الإمامة والسياسة وتاريخ الطبري وغيرهما.

الذين يتيسر حضورهم من غير اشتراط عدد، بل لو تعلق الحل والعقد بواحد مطاع كفت بيعته.

الثاني: استخلاف الإمام وعهده لأخر، وجعله الأمر شورى بمنزلة الاستخلاف إلا أن المستخلف عليه غير متعين فيتشاورون ويتفقون على أحدهم وإذا خلع الإمام نفسه كان كموته، فينتقل الأمر إلى ولي العهد.

الثالث: القهر والاستيلاء، فإذا مات الإمام وتصدى للإمامة بالقهر والأسيتلاء من غير بيعة واستخلاف، انعقدت الخلافة له وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر^(١).

يلاحظ على هذه الأقوال والنظريات ما يلي:

أولاً: أن موقف أصحاب هذه الأقوال في المسألة، موقف من اعتقد بصحة خلافة الخلفاء، فاستدل به على ما يرتضيه من الرأي، من انعقادها بواحد أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر أو اتفاق من تيسر حضوره دون البعيدين من الصحابة، وغير ذلك.

والعجب من هؤلاء الأعلام كيف سكتوا عن الاعتراضات الهائلة التي توجهت من نفس الصحابة من الأنصار والمهاجرين على خلافة الخلفاء الذين تمت بيعتهم، بيعة الخمسة في السقيفة أو بيعة أبي بكر لعمر أو بشورى الستة، فكانت الاعتراضات حتى أن الزبير وقف في السقيفة أمام المبايعين لأبي بكر، شاهراً سيفه وهو يقول لا أغمده حتى يُبايع علي^(٢)، فالنزاع كان قائماً على قدم وساق ويكفي في ذلك مراجعة كتاب الإمامة

(١) شرح المقاصد للفتناني ٢/ ٢٧٢ طبعة استانبول

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١١/١.

والسياسة وتاريخ الطبري الذي يذكر قتل سعد بن عباد في السقيفة وخروج الحباب بن المنذر شاهراً سيفه معارضاً لأبي بكر^(١).

أفيصح بعد ذلك قول القرطبي! (ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك)، وكأن الحباب، وسعداً وابنه قيس، وعمامة الخزرج، وبني هاشم، والزيبر وعمار وسلمان والمقداد والعباس لم يكونوا من الصحابة!؟

وثانياً: أن هذا الاختلاف الفاحش في كيفية عقد الإمامة، يعرب عن بطلان نفس الأصل لأنه إذا كانت الإمامة مفوضة إلى الأمة، كان على النبي الأكرم بيان تفاصيلها وخصوصياتها، وأنه هل تنعقد بواحد أو اثنين أو أكثر من الصحابة؟

أو تنعقد بأهل الحل والعقد منهم؟ أو بالصحابة الحضور عند وفاة النبي أو وفاة الإمام السابق؟ أو باتفاق جميع المسلمين؟ وليس عقد الإمامة لرجل أقل أهمية من عقد النكاح بين الزوجين الذي اهتم القرآن والسنة ببيانه وتحديده والعجب أن عقد الإمامة الذي تتوقف عليه حياة الأمة، لم يطرح في النصوص لا كتاباً ولا سنة على زعم القوم ولم تُبيّن حدوده ولا شرائطه ولا سائر مسائله التي كان يواجهها المسلمون بعد وفاة النبي مباشرة.

وثالثاً: ونتيجة اختلافهم في شرائط الإمام وطرق تنصيبه جعل الخلافة وبالأعلى على المسلمين حتى أخذت الخلافة شكلاً يختلف كل الاختلاف عن الشكل الذي ينبغي أن تكون عليه فقد أصبحت الخلافة الإسلامية إمبراطورية وملكاً عضواً يتناقضها الفساق والفساد والظلمة وقد أعانهم في

(١) تاريخ الطبري: ٤٥٩/٢.

ذلك مرتزقة من رجال متظاهرين باسم الدين فبرروا أفعالهم وصححوا اتجاهاتهم السياسية، فخلقوا في ذلك أحاديث وسنن مفتعلة على صاحب الرسالة واصطنعوا لهذا وذاك فضائل لتدعيم مراكزهم السياسية، وإليك النموذج التالي من تلك الأحاديث المفتعلة لتقف على حقيقة تلك الأحاديث المفتراة. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس». قال الراوي: قلت كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال «تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع»^(١) أقول: كيف أمر الله سبحانه بطاعة الرسول ﷺ وهو يأمر بالظلم؟ حاشا لرسوله من هذا الافتراء.

* المقدمة السادسة: الإمامة عند الشيعة الإمامية:

بعدما تعرفنا على حقيقة الإمامة لدى أهل السنة والجماعة وعرفت أن ما يتبنونه لا يقتضي أزيد من الشرائط المتوفرة في رؤساء الدول غير أن الإمامة عند الشيعة تختلف في حقيقتها عما لدى إخوانهم، فهي رئاسة إلهية، واستمرار لوظائف النبوة كلها سوى تحمل الوحي الإلهي. ومقتضى هذا، اتصاف الإمام بنفس الشروط المشتركة في النبي، سوى كونه طرفاً للوحي.

وإليك التوضيح: إن النبي الأكرم ﷺ، كان يملأ فراغاً كبيراً وعظيماً في حياة الأمة الإسلامية، ولم تكن مسؤولياته وأعماله مقتصرة على تلقى الوحي الإلهي، وتبليغه إلى الناس فحسب بل كان يقوم بالأمر أو الوظائف التالية:

(١) صحيح مسلم: ٢٠/٦ - ٢٤ وفيه نظائر كثيرة لهذا الحديث.

١- يُفسر الكتاب العزيز ويشرح مقاصده وأهدافه، ويكشف رموزه وأسراره.

٢- يُبين أحكام الموضوعات التي كانت تحدث في زمن دعوته.

٣- يرد على الحملات التشكيكية والتساؤلات العويصة المريبة التي كان يثيرها أعداء الإسلام من يهود ونصارى ومشركين وغيرهم.

٤- يحفظ الدين من التحريف والدرس، ويراقب ما أخذه عنه المسلمون من أصول وفروع، حتى لا تزل فيه أقدامهم وهذه الأمور الأربعة كان يمارسها ويملاً بشخصيته الرسالية ثغراتها ولأجل جلاء الموقف نوضح كل واحد من هذه الأمور:

الأمر الأول: فيكفي فيه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١) والقرآن الكريم ليس كتاباً عادياً، على نسق واحد، حتى يستغني عن بيان وتفسير النبي بل فيه المحكم والمتشابه والعام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ.

الأمر الثاني: فهو بغنى عن التوضيح، فإن الأحكام الشرعية وصلت إلى الأمة عن طريق النبي، سواء أكانت من الكتاب أم من السنة.

الأمر الثالث: فيبانه أن الإسلام قد تعرض، منذ ظهوره لأعنف الحملات التشكيكية، وكانت تناول توحيده ورسالته وإمكان المعاد، وحشر الإنسان وغير ذلك وهذا هو النبي الأكرم، عندما قدم عليه جماعة من كبار النصارى لمناظرته استدلوا لاعتقادهم بنبوة المسيح، بتولده من غير أب،

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

فأجاب النبي بوحي من الله سبحانه، بأن أمر المسيح ليس أغرب من أمر آدم حيث ولد من غير أب ولا أم قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

الأمر الرابع: فواضح لمن لاحظ سيرة النبي الأكرم ﷺ، فقد كان هو القول الفصل وفصل الخطاب وكان بقيادته الحكيمة يرفع الخصومات والاختلافات ويصون الدين من التحريف والدس، هذه هي الأمور التي مارسها النبي الأكرم أيام حياته، ومن المعلوم أن غيابه صلوات الله عليه ورحلته إلى البرزخ يخلف فراغاً هائلاً في هذه المجالات الأربعة فيكون التشريع الإسلام حينئذٍ أمام محتملات ثلاث:

الأول: أن لا يبدي الشارع اهتماماً بسد هذه الفراغات الهائلة التي ستحدث بعد الرسول ﷺ ورأى ترك الأمور لتجري على عواهنها.

الثاني: أن تكون الأمة قد بلغت بفضل جهود صاحب الدعوة في إعدادها حداً تقدر معه بنفسها على سد ذلك الفراغ.

الثالث: أن يستودع صاحب الدعوة كل ما تلقاه من المعارف والأحكام بالوحي وكل ما ستحتاج إليه الأمة بعده، يستودعه شخصية لها كفاءة في تحمل وبيان هذه المعارف والأحكام فتقوم هي بسد هذا الفراغ بعد رحلته صلوات الله عليه.

أما الاحتمال الأول: فساقط جداً؛ لأنه لا ينسجم مع غرض البعثة، فإن في ترك سد هذه الفراغات ضياعاً للدين والشريعة وبالتالي قطع الطريق أمام رقي الأمة وتكاملها وهدايتها.

أما الاحتمال الثاني: فلا بد من دراسته في ضوء العقل والتاريخ...

هل كانت الأمة مؤهلة لسد تلك الفراغات؟

فلعل هناك من يزعم أن الأمة كانت قادرة على مليء هذه الفراغات. غير أن التاريخ والمحاسبات الاجتماعية يبطلان هذه النظرة ويضادانها ويثبتان أنه لم يُقدّر للأمة بلوغ تلك الذروة لتقوم بسد هذه الفراغات التي خلفها النبي الأكرم لا في جانب التفسير ولا في جانب التشريع ولا في جانب رد التشكيكات الهدامة ولا في جانب صيانة الدين عن الانحراف وإليك فيما يلي بيان فشل الأمة في سد هذه الثغرات، من دون أن نثبت للأمة تقصيراً بل المقصود استكشاف الحقيقة.

أما في جانب التفسير فيكفي وجود الاختلاف الفاحش في تفسير آيات الذكر الحكيم، وقبل كل شيء نضع أمامك كتب التفسير فلا ترى أية إلا ما شذ انفق في تفسيرها قول الأمة وإليك النماذج التالية:

أ - قال تعالى: ﴿فَاعْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة ٦].

فقد تضاربت الآراء في فهم هذه الآية فمن قائل يعطف الرجل على الرؤوس فتمسح ومن قائل يعطفه على الأيدي فتغسل، فأبي الرأيين هو الصحيح؟ وأي التفسيرين هو مراده تعالى؟.

ب - وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾ [المائدة

[٣٨]

فاختلفت الأمة في موضع القطع، فمن قائل بأن القطع من أصول الأصابع وعليه الإمامية، ومن قائل بأن القطع من المفصل بين الكف والذراع

وعليه أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، ومن قائل بأن القطع من المنكب، كما عليه الخوارج^(١).

وهناك آيات كثيرة وقع فيها الاختلاف بين المذاهب راجع الفقه المقارن والتفاسير.

وأما الآيات المحتاجة إلى التفسير في مجال المعارف فحدث عنها ولا حرج، ويكفيك ملاحظة اختلاف الأمة في الصفات التالية، كالعدل والجبر والاختيار والهداية والضلالة وكم من آيات في القرآن تضاربت الأفكار في تفسيرها،

وأما في مجال الإجابة على الموضوعات المستجدة فيكفي في ذلك الوقوف على ما حصل من أجوبة مختلفة في فقه الفضاء والبنوك وغيرها أما الآيات القرآنية في مجال الأحكام فهي لا تتجاوز ثلاثمائة آية وأما الأحاديث في هذا المجال فالذي ورثته الأمة من النبي لا يتجاوز الخمسمائة حديث، وهذا القدر من الأدلة غير واف بالإجابة على جميع الموضوعات المستجدة إجابة توافق حكم الله الواقعي، ولأجل إيقاف الباحث على نماذج من هذه المستجدات نذكر بعضها:

١- رفع رجل إلى أبي بكر وقد شرب الخمر، فأراد أن يقيم عليه الحد، فادعى أنه نشأ بين قوم يستحلونها، ولم يعلم بتحريمها إلى الآن، فتحير أبو بكر في حكمه^(٢).

(١) الخلاف، كتاب السرقة: ٢٠١٣.

(٢) الكافي: ٢٤٩/٧، كتاب الحدود، مناقب ابن شهر آشوب: ٤٨٩، الإرشاد للمفيد ص

٢- سئل عمر بن الخطاب عن رجل طلق امرأته في الجاهلية تطليقتين وفي الإسلام تطليقة، فهل تضم التطليقتان إلى الثالثة أولاً؟ فقال للسائل لا أمرك ولا أنهاك^(١).

هذا ولا نعني من ذلك أن الشريعة ناقصة في شمول المواضيع المستجدة أو المعاصرة، بل التشريع الإسلامي كان وافياً بالجميع ولا بد النبي ﷺ أن يستودع أحكام الشريعة من يخلفه ويقوم مقامه لإيفاء أغراضه التي لم يقدر له تحقيقها في حياته الكريمة والذي يكشف أن النصوص الشرعية لم تكن لتشمل تلك الحوادث المستجدة لذا اضطر صحابة النبي بعد وفاته إلى أعمال الرأي والاجتهاد والقياس والاستحسان في المسائل المستحدثة.

وأما في مجال رد الشبهات والتشكيكات وإجابة التساؤلات فقد حصل فراغ هائل بعد رحلة النبي من هذه الناحية فجاءت اليهود والنصارى، يطرحون الأسئلة ويشوشون بها أفكار الأمة، ليخربوا عقائدها ومبادئها ونذكر من ذلك:

١- وفود أسقف نجران على عمر وطرح بعض الأسئلة عليه وجواب علي عليه السلام عليها^(٢).

٢- وفود جماعة من اليهود على عمر وطرح بعض الشبهات^(٣) وجواب علي عليه السلام عليها.

(١) كنز العمال: ١١٦٧٥.

(٢) تذكرة الخواص لابن الجوزي: ص ١٤٤.

(٣) نفس المصدر، قضاء أمير المؤمنين ص ٦٤.

٣- سؤال عويص ورد من الروم على معاوية يلتمس الجواب عنه^(١).

وغير ذلك من الوفود والأسئلة التي لم يكن هدفها إلا التشكيك في الدين وإيجاد التزلزل في عقيدة المسلمين.

وأما في جانب صيانة المسلمين عن التفرقة والاختلاف والدين عن الانحراف، فقد كانت الأمة في أشد الحاجة بعد النبي الأكرم إلى من يصون دينها عن التحريف وأبناءها عن الاختلاف، فإن التاريخ يشهد دخول جماعات عديدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى والمجوس، ككعب الأحمار، وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه، وتميم الداري وبعدهم الزنادقة والملاحدة، فراحوا يفسدون الأحاديث الإسرائيلية والأساطير النصرانية والخرافات المجوسية بينهم وقد ظلت هذه الأحاديث المدسوسة، تُخَيِّم على أفكار المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن وتؤثر في حياتهم العلمية، ومما يوضح عدم تمكن الأمة من صيانة الدين الحنيف عن التحريف وأبنائها عن التشتت هو وجود الروايات الموضوعية والكاذبة الهائلة ويكفي ما كابده العلماء كالبخاري من مشاق وأسفار في مختلف أقطار الدولة الإسلامية وما رواه بعد ذلك، فإنه وجد ستمائة ألف حديث متداولة بين المحدثين، لم يصح لديه منها أكثر من أربعة الألف وأما أبو داود فلم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة^(٢).

هذا البحث الضافي يثبت حقيقة ناصعة وهي عدم تمكن الأمة مع ما لها من فضل من القيام بسد الفراغات الكثيرة التي خلقتها رحلة النبي فلا

(١) علي والخلفاء: ص ٣١٣.

(٢) لاحظ حياة محمد لمحمد حسين هيكل: ص ٤٩، وراجع طبقات الحفاظ للذهبي: ١٥٤/٢،

وتاريخ بغداد: ٥٧/٢.

مناص من تعيين الاحتمال الثالث وهو سد تلك الثغرات بفرد مثالي يمارس وظائف النبي في الأمور الأربعة السابقة بعلمه المستودع فيه، يقودهم إلى طريق الكمال ويحفظهم من الانقلاب على الأعقاب فهل يسوغ على الله سبحانه أن يهمل هذا العامل المهم، الهادي للبشرية إلى ذروة الكمال وما أجمل ما قاله أئمة أهل البيت في وجود هذا الخلف ومدى تأثيره في تكامل الأمة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة»^(١).

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله لم يدع الأرض بغير عالم ولولا ذلك لما يُعرف الحق من الباطل»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الأرض لا تخلو وفيها إمام، كي ما زاد المؤمنون شيئاً ردّهم وإذا نقصوا شيئاً أتمّه لهم»^(٣).

فهذه المأثورات من الأئمة عليهم السلام تُعرب عن أنّ الغرض الداعي إلى بعثة النبي، داعٍ إلى وجود إمام يخلف النبي في عامة صفاته سوى ما دل القرآن على انحصاره به ككونه نبياً ورسولاً وصاحب شريعة.

نعم، إن كثيراً ممن ليست لهم أقدام راسخة في أبواب المعارف يصعب عليهم تصور شخص مثالي يحمل علوم النبوة وليس بنبي ولا أجل ذلك يثيرون في وجهه إشكالين لا بد من ذكرهما والإجابة عنهما:

(١) نهج البلاغة قسم الحكم رقم الحكمة ١٤٧.

(٢) الكافي: ١٧٨/١.

(٣) الكافي: ١٧٨/١.

الإشكال الأول (الشبهة الأولى):

أن الفرد الجامع لهذه الخصائص، لا يفترق عن النبي، فتصبح الإمامة عندئذٍ مرادفة للنبوّة، مع أن أدلة الخاتمية قطعت طريق هذا الاحتمال^(١).

الجواب:

أن الفرق بين النبوّة، واحتضان علوم النبي الأكرم، واضح، لا يحتاج إلى البيان فإن مقوم النبوّة عبارة عن كون النبي طرفاً للوحي، يسمع كلام الله تعالى ويرى رسوله ويكون صاحب شريعة مستقلة، أو مروجاً لشريعة من قبله وأما الإمام فهو الخازن لعلوم النبوّة في كل ما تحتاج إليه الأمة، من دون أن يكون طرفاً للوحي أو سامعاً لكلامه سبحانه، أو رانياً المَلَك الحامل له.

فالإمام يأخذ علوم النبي منه ويتعلم غيبي، يفني بوظائف الرسالة بعد رحلته، والبعض يتعجب من بلوغ إنسان ذلك الحد من الكمال والعلم، من دون أن يدخل مدرسة أو يخضع أمام شيخ إلا أن يكون نبياً والحال يحدثنا القرآن الكريم عن أناس مثاليين نالوا الذروة من العلوم بتعليم غيبي مع أنهم لم يكونوا أنبياء كمصاحب موسى ﷺ الذي يقول سبحانه في شأنه:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(٢).

ولم يكن المصاحب نبياً، بل كان ولياً من أولياء الله سبحانه، بلغ الذروة من العلم، حتى قال له موسى ﷺ - وهو نبي مبعوث بشريعة -

﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا﴾ [الكهف ٦٦].

(١) المواقف: ص ٣٤٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٦٥.

وجلس سليمان عليه السلام، الذي يقول سبحانه في شأنه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاءَ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفَكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل ٤٠]، وهذا الجليس لم يكن نبياً ولكن كان صاحب علم من الكتاب، ومن المعلوم أن هذا العلم لم يحصل له من الطرق العادية وإنما هو علم إلهي احتضنه بلياقته وكفاءته.

فالذي عنده علم من الكتاب بلغ مرتبة مثالية من العلم الإلهي فكيف بالذي عنده علم الكتاب!؟

ودليله هذه الآية: ﴿... قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد ٤٣]، فلا بد من عنده علم الكتاب أعلم الناس بالكتاب وإنساناً مثالياً حتى يصح أن يجعل عدلاً آخر للشهادة في هذه الآية لا الذين أسلموا في المدينة كعبد الله بن سلام، وتميم الداري بل يكون هذا الإنسان من تربي في حجر النبوة وحضنها وتحمل علومها بتعليم غيبي إلهي هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

الإشكال الثاني (الشبهة الثانية):

إذا شهد التاريخ، والمحاسبات الاجتماعية، بعدم استيفاء النبي لمهمة التشريع فما معنى قوله سبحانه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة ٣].

الجواب:

أن السؤال مبني على تفسير الدين بالأحكام الشرعية، وحمل الإكمال على بيانها وذلك غير صحيح لوجوه:

الأول: أن كثيراً من المفسرين، فسروا اليوم بيوم عَرَفَةَ، من عام حجة الوداع^(١).

ومن المعلوم أن هناك روايات كثيرة لا يُستهان بها عدداً تدل على نزول أحكام وفرائض بعد ذلك اليوم منها أحكام الكلاله، ومنها آيات الربا^(٢)، حتى روى البخاري في صحيحه، عن ابن عباس: آخر آية أنزلها الله على رسوله، آية الربا^(٣)، وغير ذلك من الروايات.

الثاني: أن تفسير الدين بالأحكام وإكمالها بالبيان وإنه تحقق في يوم عرفة من عام حج الوداع، لا ينسجم مع سائر فقرات الآية، فإن الآية تخبر عن يوم تحققت فيه أمور ثلاثة: بأس الكفار من دين المسلمين، وإكمال الدين، وإتمام النعمة، فلا بد علينا أن نتفحص عن يوم تتحقق فيه هذه الأمور الثلاثة، ليس يوم عرفة كما سُنِّبَ.

الثالث: أن ما ذكر لا ينسجم مع ما رواه عدة من المحدثين من نزولها يوم الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة عندما نصب النبي ﷺ وسلم علياً عليه السلام للولاية، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه^(٤).

ويعرب عن صحة ذلك ما ذكره الرازي، قال: (قال أصحاب الآثار إنه لما نزلت هذه الآية (اليوم أكملت...) على النبي ﷺ لم يعمر بعد نزولها إلا أحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً، ولم يحصل بعدها زيادة ولا نسخ

(١) لاحظ تفسير الطبري: ٥٤/٦، وتفسير الرازي: ٣٦٧٣.

(٢) سورة البقرة الآيات: ٢٧٥، ٢٧٨، راجع تفسير الدر المنثور: ٣٦٥/١.

(٣) الدر المنثور للسيوطي: ٣٦٥/١، تفسير الرازي ٢/ ٣٧٤ طبعة مصر.

(٤) لاحظ الفدير: ٢٣٠/١ - ٢٣٨ لكي نقف على مصادر نزول الآية يوم الفدير منهم الطبري

والخطيب البغدادي والمغازلي والحسكاني وأبو نعيم الأصفهاني وغيرهم.

وتبديل البتة) وهذا يتفق مع ما ذهب إليه الجمهور من أن النبي توفي يوم الثاني عشر من ربيع الأول^(١) فيكون المراد من اليوم في آية إكمال الدين يوم الغدير.

وما ذكره يزيد كون النزول يوم الغدير، أعني يوم الثامن عشر من ذي الحجة.

والعجب أن الرازي غفل عن هذه الملازمة، وإنه لا يجتمع مع نزولها يوم عرفة.

فعلى ذلك لا يصح تفسير الدين بالأحكام، ولا الإكمال بالبيان وفي ضوء ذلك يمكن أن المراد من الدين هو أصوله والمراد من الإكمال تثبت أركانه، وترسيخ قواعده، وذلك أن الكفار، خصوصاً المستسلمين منهم، كانوا يتربصون بالنبي الدوائر فإنهم كانوا ينظرون إلى دعوته بأنها ملك في صورة النبوة، وسلطنة في ثوب الرسالة، فإن مات أو قتل ينقطع أثره ويموت ذكره كما هو المشهور عادةً من رجال السلاطين.

وكان الكفار يعيشون هذه الأحلام التي تعطيهم الرجاء في إطفاء نور الدين ومسح آثاره عبر الأيام، غير أن ظهور الإسلام تدريجياً، وغلبته على الكفار والمشركين، بدد أحلامهم الخيية، فلم يبق لهم إلا حلم واحد، وهو أنه لا عقب له يخلفه في أمره، فيموت دينه بموته، إلا أن الخيية عمتهم لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بشخص النبي الأكرم إلى مرحلة القيام بشخص آخر مثالي يقوم مقامه فعند ذلك تحققت الأمور الثلاثة الواردة في الآية وهي:

(١) تفسير الرازي ٣/ ٣٦٩.

يسوا من زوال الدين بعد موته وكَمُلَ الدين بتنصيب من يحمل وظائف النبي، وتمت نعمة الهداية إلى أهداف الرسالة بالوصي القائم مقامه.

فالمراد من إكمال الدين تحوله من وصف الحدوث إلى وصف البقاء هذه هي حقيقة الإمامة، والإمام عند الشيعة والمعرفة التامة بكتاب الله وسنة نبيه وقدرته على دفع الشبهات وصيانة الدين يكون كلامه هو القول الفصل بين الأمة، ولا تفترق هذه الشروط عن كونه معصوماً لا يضلّ في تعليم الأمة.

* المقدمة السابعة: المصالح العامة، وصيغة الحكومة بعد النبي ﷺ

يسود بين المسلمين، في صيغة الحكومة وقيادة الأمة بعد النبي، رأيان واتجاهان:

الأول: أنّ صيغة الحكومة صيغة التنصيب، وأنّ الإمام بعد النبي ﷺ وسلم يعين عن طريق الرسول بأمر من الله سبحانه.

الثاني: تفويض الأمر إلى اختيار الأمة، وانتخابها بشكل من الأشكال. والحق أنّ هنا أموراً تدل على أنّ مصلحة الأمة آنذاك كانت تتطلب تنصيب الإمام والقائد الذي يخلف النبي ﷺ وإليك بيان تلك الأمور:

الأمر الأول: الأمة الإسلامية والخطر الثلاثي

أنّ الدولة الإسلامية، التي أسسها النبي الأكرم كانت محاصرة حال وفاة النبي من جهتي الشمال والشرق بأكبر إمبراطوريتين كانتا على جانب كبير من القوة والبأس، وهما الروم والفرس هذا من الخارج وأما من الداخل،

فقد كان الإسلام والمسلمون يعانون من وطأة مؤامرات المنافقين الذين كانوا يشكلون جبهة عدوانية داخلية هؤلاء أسلموا بألسنتهم دون قلوبهم ولقد تصدى القرآن لفضح المنافقين والتشهير بنخطتهم ضد الدين والنبى ﷺ في العديد من السور القرآنية مثل البقر والأحزاب والمجادلة وغيرها، وإن اهتمام القرآن بالتعرض للمنافقين المعاصرين للنبي أدل دليل على أنهم قوة كبيرة، ويلعبون دوراً خبيثاً في تعكير الصف وإفساح المجال لأعداء الإسلام ويكفي في ذلك قوله سبحانه : ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾ [التوبة ٤٨]^(١).

وقد كان محتملاً أن يتحد الفرس والروم والمنافقون لاكتساح الإسلام واجتثاث جذوره بعد وفاة النبي ﷺ.

فمع هذا الخطر المحيى الداهم، ما هي وظيفة القائد الحكيم هل يترك دينه عرضة للاجتثاث من دون تنصيب قائد؟ وأن الأمر يترك للأمة أو المصلحة تقتضي تنصيب قائد حكيم عارف بأحكام القيادة ووظائفها حتى يجتمع المسلمون تحت رايته.

فلو ترك النبي الأمر إلى الأمة في ذلك الوقت الحرج لكان الشغب والاختلاف والتنافس الذي لم يكن لصالح الإسلام والمسلمين، في الوقت الذي يعانون فيه من وفاة النبي.

الأمر الثاني: الحياة القبلية تمنع من الاتفاق على قائد.

من أبرز ما كان يتميز به المجتمع العربي في حياة النبي هو النظام

(١) وكان المنافقون قد حاولوا اغتيال النبي الأكرم ﷺ في العبة وعند عودته من تبوك.

القبلي والتقسيمات العشائرية التي كانت تحتل مكانة كبرى، ويوم السقيفة من أدلة الاختلاف والتقسيمات بين الأمة وهذا ولم يقتصر اختلاف الأمة على ما جرى يوم السقيفة بل جرت بين الأنصار والمهاجرين مشاجرات كلامية وشعرية هجائية، هاجم كل فريق الآخر بأنواع الهجاء نقلها المؤرخون^(١). وما حدث في غزوة بني المصطلق أفضل شاهد حيث تنازع مهاجري مع أنصاري فصرخ الأنصاري يا معشر الأنصار فتجمعوا لمجرد الصرخة القبليّة وصرخ الآخر يا معشر المهاجرين. فتجمعوا أيضاً لذلك وأراد أن يحدث قتال بينهما لولا تدخل النبي الأكرم ﷺ^(٢).

الأمر الثالث: الصحابة ومدى الوعي الديني:

أن الأمة الإسلامية كما يدل عليه التاريخ لم تبلغ في القدرة على تدبير أمورها وإدارة شؤونها حد الاكتفاء الذاتي الذي لا تحتاج معه إلى نصب قائد لها من جانب الله تعالى، وقد كان عدم بلوغهم هذا الحد أمراً طبيعياً لأنه من غير الممكن تربية أمة كانت متوغلة في العادات الوحشية والعلاقات الجاهلية والنهوض بها إلى حدّ تصير أمة كاملة تدفع عن نفسها تلك الرواسب وتستغني عن نصب القائد المحنك والخليفة المدبر، بل هي تقوم على تشخيص مصالحها في هذا المجال.

إن إعداد مثل هذه الجماعة، ومثل هذه الأمة، لا تتم في العادة إلا بعد انقضاء جيل أو جيلين، وبعد مرور زمن طويل يكفي لتغلغل التربية الإسلامية إلى أعماق تلك الأمة بحيث تختلط مفاهيم الدين بدمها وعروقها

(١) لاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٧/٦ - ٣٨.

(٢) صحيح البخاري ١١٩/٥ باب غزوة بني المصطلق

وتتمكن منها العقيدة إلى درجة تحفظها من التذبذب والتراجع إلى الوراء. ويكفيك شاهداً على هذا، معركة أُحُد، فقد هرب المسلمون إلا قليل من ساحة المعركة عندما أذيع نبأ قتل النبي ﷺ من جانب الأعداء، ولاذ بعضهم بالجبل، حتى أتاهم أحد المقاتلين وبيخهم على فرارهم وتحاذلهم وتردهم قائلاً: «إن كان محمد قد مات فربّ محمد حي قوموا ودافعوا عن دينه»^(١)، وفي هذا نزل قوله سبحانه:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران ١٤٤]، ولم تكن واقعة أحد وحيدة في نسجها بل كانت غزوة حنين على منوالها في التقهقر والفرار عن ساحة الحرب^(٢)، والرسول يقول: أيها الناس هلموا إليّ، وغير ذلك من الأحداث والوقائع التي كشفت عن عدم تغلغل الإيمان والعقيدة في قلوب الأكثرية منهم نعم كان بينهم رجال صالحون يضحون في سبيل العقيدة بالأنفس والأموال، غير أن البحث مركز على دراسة وضع المجتمع الإسلامي كل، لا من حيث اشتماله على أفراد صالحين.

ولعل البعض يتخيل أنهم انقلبوا بعد رحلة الرسول إلى مجتمع ديني ملتزم بتعاليمه وأحكامه ولكن ما ورد في الصحاح والمساند من ارتداد أمة كبيرة من الصحابة، يؤيد ما ذكرناه من عدم رسوخ العقيدة والإيمان في قلوبهم ولا مجال للذكر لجميع الروايات، إنما نكتفي بواحدة:

روى البخاري في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ

(١) سيرة ابن هشام: ٨٣/٢

(٢) راجع سيرة ابن هشام: ٤٤٨/٢.

فِيهِمْ﴾ [المائدة ١١٧]، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «ألا وإنه يُجاء
برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي،
فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح:
﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾
[المائدة ١١٧]. فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم ما
فارقتهم^(١).

ومن خلال دراسة هذه الأمور الثلاثة، يرشدنا إلى أن القائد الحكيم الذي
يستخلف النبي في أمته لا بد أن يكون بالتنصيب قطعاً لدابر الاختلاف والانشقاق
الخطير هذا مع قطع النظر عن النصوص التي تعين الرأي الأول بوضوح كثيرة
وأنه ﷺ، قد قام بنصب الوصي علي عليه السلام خضوعاً لأمر الله أولاً، ورعاية
للمصالح التشريعية ثانياً واهتماماً بمصالح الإسلام والمسلمين ثالثاً.

* المقدمة الثامنة: هل الشورى أساس الحكم والخلافة؟

قد تعرفت على كيفية خلافة الخلفاء، وأن الأول منهم فاز بخمسة
أصوات^(٢)، وأن الثاني أخذ بزمام الحكم بتعيين الخليفة الأول، وأن الثالث
استتب له الأمر بشورى سداسية عينها نفس الخليفة الثاني. هذا هو واقع
الأمر ولم يكن في انتخاب هؤلاء ما يقتضيه طبع التشاور من عرض
الموضوع على أهل المشورة ومناقشة الآراء وانتخاب واحد في ضوء
الموازن العقلية والاجتماعية والشرعية وأحسن كلمة تعبر عن حقيقة هذا

(١) صحيح البخاري: ٨٥/٣، ومسنَد أحمد: ٢٣٥/١. وصحيح مسلم كتاب الجنة ونعيمها

(٢) راجع ما نقلناه في المقدمة الخامسة عن الماوردي حيث ذكر أقل ما تنعقد به منهم الإمامة
خمسة واستدل بخلافة أبي بكر حيث انعقدت بخمسة هم عمر، وأبو عبيدة، وأسيد، وبشر بن
سعد، وسالم مولى حذيفة.

النوع من الانتخاب ما ذكره الخليفة الثاني بقوله: (إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرّها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو، ولا الذي يبايعه، تغرّه أن يقتلا)^(١).

استدل القائلون بكون الشورى أساساً للحكم بأيتين:

الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران ١٥٩]، فالله سبحانه يأمر نبيه بالمشاورة، تعليماً للأمة، حتى يتشاوروا في مهام الأمور، ومنها الخلافة.

يلاحظ عليه:

أولاً: أن الخطاب في الآية متوجه إلى الحاكم الذي استقرت حكومته، فيأمره سبحانه أن يتفحص من آراء رعيته، فأقصى ما يمكن التجاوز به عن الآية، هو أن من وظائف كل الحكام التشاور مع الأمة، وأما أن الخلافة بنفس الشورى، فلا يمكن الاستدلال عليه بهذه الآية لأن النبي ﷺ ليس بحاجة إلى مشاورتهم وهنا تطرح شبهة إذا لم يكن بحاجة إلى مشاورتهم فلماذا يشاورهم؟

والجواب على هذه الشبهة يقع من وجوه:

الوجه الأول: أنه استغنى عن آرائهم بالوحي.

الوجه الثاني: لأنه قدوة بقوله تعالى في سورة الأحزاب، الآية: (٢١): ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والقدوة لا بد أن يكون كاملاً في

(١) صحيح البخاري: ١٦٧٨، ولاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٢٣/١.

العلم والأخلاق وغيرهما، إذاً كيف يحتاج إليهم؟، فإذا احتاج إليهم يكون ناقصاً، وفاقد الشيء لا يعطيه.

الوجه الثالث: من آية التشاور يستدل على عدم حاجته لرأيهم من جملة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾، أي إذا صممت وعقدت القلب على شيء تريد أن تفعله فتوكل على الله أي اعتمد عليه وفوض أمرك إليه.

— فوائد التشاور:

أحدها: أن ذلك على وجه التطيب لنفوسهم والرفع من أقدارهم واحترامهم.

وثانيها: أن ذلك لتقتدي به أمته.

وثالثها: أن ذلك لأمرين هما: إجلال صحابته واقتداء أمته به في المشاورة.

ورابعها: أن ذلك للامتحان من أجل تمييز الطيب من الخبيث الناصح من العاش.

والآية تريد أن تعلمهم المشورة فيما بينهم نظير قول علي عليه السلام: «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال في أمورها شاركها في عقولها»^(١).

وثانياً: إن المتبادر من الآية هو أن التشاور لا يوجب حكماً للحاكم، ولا يلزمه بشيء بل هو يقب وجوه الرأي ويستعرض الأفكار والآراء المختلفة ثم يأخذ بما هو المفيد في نظره وذلك لقوله سبحانه في نفس الآية: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران ١٥٩] المعرب عن أن العزم

(١) نهج البلاغة، قسم الحكم، الرقم: ١٦١.

والتصميم من الآراء والأخذ بما هو الأصلح راجع إلى نفس المشير وهو النبي ﷺ، وهذا يتحقق في ظرف يكون هناك مسؤول تام الاختيار في استحصال الأفكار والعمل بالنافع منها حتى يخاطب بقوله: (فإذا عزمتم) وأما إذا لم يكن ثمة رئيس فلا تنطبق عليه الآية، وكل ذلك يعرب عن أن الآية ترجع إلى غير مسألة الحكومة وما يشابهها ولأجل ذلك لم نرَ أحداً من الحاضرين في السقيفة احتج بهذه الآية.

الآية الثانية: قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى ٣٨].

بيان أن المصدر (أمر) أضيف إلى الضمير (هم) وهو يفيد العموم والشمول لكل أمر ومنه الخلافة، فيعود معنى الآية أن شأن المؤمنين في كل مورد شورى بينهم.

يلاحظ عليه:

أن الآية تأمر بالمشورة في الأمور المضافة إلى المؤمنين، وأما أن تعيين الخليفة من الأمور المضافة إليهم، فهو أول الكلام.

وبعبارة أخرى: إن الآية حثت على الشورى في شؤون وأمور المؤمنين، لا فيما هو خارج عن حوزة أمورهم، أما كون تعيين الإمام داخلاً في أمورهم فهو أول الكلام، إذ لا ندري هل هو من شؤونهم أو من شؤون الله تعالى؟

والجواب عن السؤال:

لو كان أساس الحكم هو الشورى لوجب على الرسول الأكرم التصريح به أولاً وبيان حدوده وخصوصياته وثانياً بأن يبين ﷺ من هم

الذين يشتركون في الشورى، هل هم القراء فقط أو السياسيون أو القادة العسكريون أو الجميع، وثالثاً بأن يبين ﷺ ما هي شرائط المنتخب وأنه لو حصل هناك اختلاف في الشورى فما هو المرجح هل هو كمية الآراء وكثرتها أو الرجحان بالكيفية وخصوصيات المرشحين وملكاتهم النفسية والمعنوية.

فهل يصح سكوت النبي عن الإجابة على هذه الأسئلة التي تتصل بجوهر مسألة الشورى وقد جعل الشورى طريقاً إلى تعيين الحاكم؟

هذا على فرض كون الشورى أساس الحكم ولكن ثبت في المقدمة السابعة بالتنصيب أي أن صيغة الحكومة صيغة التنصيب وأن الإمام يعين عن طريق الرسول بأمر الله سبحانه ولو كان بالشورى لما سكت النبي ﷺ عن الأسئلة السابقة ولرأينا لها جواباً في الكتاب والسنة بينما نرى أن الإمامة جعل وتنصيب من الله كما في إمامة إبراهيم عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة ١٢٤]. ويقول تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص ٢٦].

* المقدمة التاسعة: هل البيعة أساس الحكم؟

هل البيعة: هي العهد على الطاعة أو ميثاق بين شخصين على الالتزام بأمر معين أو مجرد اختيار وانتخاب القائد؟

البيعة قبل الإسلام وبعده:

كانت البيعة من تقاليد العرب قبل الإسلام وسنتهم، وليس من مبتكراته، بل أمضاها وجعلها من العقود اللازمة التي يجب العلم بها، ويحرم نقضها فقد بايع أهل المدينة النبي الأكرم ﷺ وسلم في السنة الحادية عشر

والثانية عشر من البعثة في العقبة (بمنى) بايعوه على عاداتهم قبل الإسلام^(١)، حيث كانوا يبايعون زعماءهم وأما بعد الهجرة فمرة بايعه الصحابة في غزوة الحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح ١٨].

وأخرى بايعته الصحابييات في مكة المكرمة بعد فتحها، وعنه يحكي تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُنْفِرْنَ بِإِلَهِ شَيْئًا...﴾^(٢). إذا عرفت ذلك فإليك الأمور التي يستدل بها أن البيعة طاعة وليست مجرد طريق للاختيار وهي:

الأول: أن بيعة المسلمين للنبي الأكرم ﷺ وسلم لم تغن الاعتراف بزعامة الرسول وراثته فضلاً عن تنصيبه وتعيينه بل إن المبايعين بعد أن آمنوا بنبوة النبي واعترفوا بقيادته وزعامته أرادوا أن يصبوا ما يلازم ذلك الإيمان من الالتزام بأوامر الرسول ﷺ: لقوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١]، في قالب البيعة فكانت البيعة صورة عملية للالتزام النفسي بأوامر النبي بعد الإقرار بنبوته وزعامته فكان النبي الأكرم ﷺ يقول: «فإن أمتهم فبايعوني على أن تطيعوني وتصلوا وتزكوا، وأن تدفعوا هني العدو حتى الموت ولا تفروا من الحرب».

والهدف عندئذ من البيعة لم يكن هو الاعتراف بمنصب المبايع وانتخابه وتعيينه لمقام الحكومة والولاية، بل كانت لأجل التأكيد العملي على الالتزام بلوازم الإيمان السابق عليه، وهذا بارز وظاهر في البيعة الثانية

(١) راجع سيرة ابن هشام: ٤٣١/١، ٤٣٨.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١٢.

للأنصار في منى وبيعة الصحابة في غزوة الحديبية.

الثانية: أن البيعة ميثاق بين شخصين تدرج تحت قوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(١)، وعقد بين المبايعين، فتدرج تحت قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآؤُفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة ١].

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من الحث على البيعة: «وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والتصيحة في المشهد والمنيب والإجابة حين أدهوكم والطاعة حين أمركم»^(٢).

الثالثة: أنه ليس هناك دليل شرعي على تعيين الخليفة بمعزل عن الصفات المنصوص عليها بل يؤكد أن الخليفة يكون متصفاً بصفات معينة للطاعة أن مجرد البيعة، بغض النظر عن المواصفات والضوابط الآتية، طريق إلى تعيين الخليفة والإمام، وإنما يتعين بها إذا كان المبايع واجداً للصفات اللازمة في الإمام.

الرابعة: الظاهر أن البيعة ليست طريقاً لتعيين الحاكم وانتخاب القائد بل هي تأكيد الالتزام بالطاعة وإنما يتعين الحاكم بالمقابلة وتصويت الجماعة الحاضرين، ثم يُصب ذلك الانتخاب في قالب الحس بالبيعة، وكأن البيعة تأكيداً لما التزموا، وتجسيداً لما أضمره أو تقاولوه، وعلى فرض كونها طريقاً لتعيين الحاكم فهي إحدى الطرق لا الطريق الوحيد، فلو علم رضا الأمة بحكومة فرد وزعامة شخص عن طريق البيعة وأبرزت رضاها بطريق من الطرق لكفى ذلك في كونه قائداً لازم الطاعة، لأنه أشبه بالعقد والعهد.

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم: ٣٤.

الخامسة: أن الاختيار الشعبي أو بيعة الجماعة الحاضرين، إنما يُعدُّ طريقاً لتعيين الحاكم إذا لم يكن هناك نص من الرسول على تنصيب الزعامة وإلا تكون البيعة رفضاً للنص واجتهاداً في مقابله.

السادسة: أن البيعة الكاملة من الصحابة الحاضرين في المدينة، لم تتحقق في واحد من الخلفاء الأربعة، إلا في علي عليه السلام، فقد بايعه المهاجرون والأنصار إلا نفر قليل لا يتجاوز خمسة أشخاص هم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وحسان بن ثابت، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، والباقي جميعاً أصفقوا على يده بالبيعة والطاعة، وإن نكث من نكث فيما بعد وشق عصا الأمة.

* المقدمة العاشرة: تصوّر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله للقيادة بعده

أن الكلمات المأثورة عن الرسول الأكرم تدل على أنه صلى الله عليه وآله كان يعتبر أمر القيادة بعده مسألة إلهية وحقاً خاصاً لله تعالى، فالله سبحانه هو الذي له أن يعين القائد وينصب خليفة الرسول ولانجد في كل ما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله ما يدل على إرجاء الأمر إلى التشاور أو اختيار أهل الحل والعقد أو بيعة الصحابة الحاضرين أو غير ذلك ويكفي في ذلك الشاهدين التاليين:

الشاهد الأول: لما دعا النبي الأكرم بني عامر إلى الإسلام وقد جازوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: رأيت إن نحن نبايعك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء»^(١)، فلو كان أمر الخلافة بيد الأمة لكان على النبي الأكرم أن يقول: الأمر إلى الأمة أو إلى أهل

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٢٤/٢.

الحل والعقد أو ما يشابه ذلك، فتفويض الأمر إلى الله سبحانه ظاهر في كونها كالنبوة يضعها سبحانه حيث شاء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

الشاهد الثاني: هو بعث النبي الأكرم ﷺ وسلم سليط بن عمرو العامري إلى ملك اليمامة (هوزة بن علي الحنفي) الذي كان نصرانياً يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً فقدم على ملك اليمامة فأنزله وجباه وكتب إلى النبي ﷺ، يقول: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر، أتبعك)، فقدم سليط على النبي بكتابه، فلما قرأ عليه، قال ﷺ: «لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلته»، وفي نقل آخر أرسل هوزة إلى النبي وقدأ يقول له: إن جعل له الأمر من بعده أسلم وصار إليه ونصره، وإلا قصد حربه، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولا كرامة اللهم إكفنيه.

فلو كانت القيادة بعد النبي قيادة دستورية انتخابية وكان للشعب المسلم منه حظ ونصيب، لكان على النبي إجابة السائل بشكل آخر، وهو أن الأمر من بعدي يرجع إلى أمتي والمؤمنين بي ولكنك ترى أنه وقف في وجهه بقوة وشدة كما هو ظاهر قوله ﷺ.

* المقدمة الحادية عشرة: تصور الصحابة للخلافة بعد النبي ﷺ

أن المتتبع في تاريخ الخلفاء الذين تعاقبوا على مسند الحكومة يرى بوضوح أنهم كانوا يتبعون الطريقة الإنتصافية لا الإنتخابية وإليك الشواهد:

١- إن خلافة عمر تمت بتعيين من أبي بكر وليس هذا خافياً على أحد، روى ابن قتيبة الدينوري، أن أبا بكر دعا عثمان بن عفان، فقال: اكتب

عهدي فكتب عثمان: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب.....)^(١).

وهذا يدل على أن التنصيب صدر من الخليفة الأول لا بالانتخاب عن طريق الأمة وتوضيحه.

٢- أن استخلاف عثمان تم عن طريق شورى عيّن أعضاها عمر بن الخطاب، يقول التاريخ: دعا عمر علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن والزبير وطلحة، فقال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس، فأنهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها واختاروا منكم رجلاً.....)^(٢).

فلو كانت صيغة الحكومة هي انتخاب القائد عن طريق المشورة باجتماع الأمة أو بالبيعة، فما معنى انتخاب الخليفين بهذين الطريقتين؟

٣- لما اغتيل عمر بن الخطاب، وأحس بالموت أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة واستأذن منها أن يدفن في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر، فأناها عبد الله، فأعلمها، فقالت: نعم وكرامة، ثم قالت يا بني، أبلغ عمر سلامي، وقل له: (لا تدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هُملاً فإني أخشى عليهم الفتنة، فأناه، فأعلمه)^(٣).

٤- أن عبد الله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته، فقال: (إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك، وزعموا أنك غير مستخلف، وأنه

(١) الإمامة والسياسة: ١٨/١، طبقات ابن سعد: ٢٠٠/٣، الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٩٢.

(٢) الكامل لابن الأثير: ٣٥ ٣.

(٣) الإمامة والسياسة: ٣٢/١.

لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءك وتركها، لرأيت أن قد ضيَع فرعاية الناس أشد^(١).

٥- قدم معاوية المدينة لأخذ البيعة من أهلها لابنه يزيد، فاجتمع مع عدة من الصحابة، وأرسل إلى عبد الله بن عمر، فأتاه، وخلا به وكلمه بكلام، وقال: (إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها)^(٢).

هذه النصوص التي حفظها التاريخ صدفة (وكم لها من نظائر) تدل على أن انتخاب الخليفة عن طريق التعيين لا عن طريق انتخاب الأمة للقائد فطريق الاستفتاء الشعبي لم يكن له أصل في منطق الصحابة، ثم إن هنا أمراً جميلاً يجب إلفات النظر إليه وهو إنه إذا كان ترك الأمة بلا راعي لها، أمراً غير صحيح في منطق العقل، أو كان ترك تعيين القائد كترك الضأن بلا راعي لها فكيف يجوز لهؤلاء أن ينسبوا إلى النبي الأكرم ﷺ أنه ترك الأمة بلا راعي فكأن هؤلاء كانوا أعطف وأرحم على الأمة من النبي الأكرم وأحسن على مصالحتها منه! إن هذا مما يقضي منه العجب.

* المقدمة الثانية عشرة: صيغة القيادة في الشرائع السابقة

المتبع بين الأنبياء السابقين هو تسليم أمر من قاموا بهدايتهم إلى خلفاء صالحين لاثقين ليتسنى لتلك الأمم في ظل الرعاية والتربية الصحيحة التي يتولاها الأوصياء، أن يستمروا في طريق التكامل والرشد.

نعم، كان كثير من الأوصياء أنبياء، ولكن بعضاً منهم كانوا أوصياء خاصين وهذا يعرب عن أن مسألة القيادة والزعامة كانت من الأهمية

(١) حلية الأولياء: ٤٤/١.

(٢) الإمامة والسياسة: ١٦٧١.

والخطورة إلى حد لم يترك أمرها إلى اختيار الناس بل كانت تُعهد على مدى التاريخ إلى رجال أكفاء يُعيّنون بالاسم والشخص، لأن تركه يؤدي إلى الإختلاف والفتنة هذه هي الطريقة المألوفة في الشرائع السابقة ولا دليل على الانحراف عنها، بل نجد في السنة ما يدل على أن كل ما جرى على الأمم السابقة يجري على هذه الأمة إلا ما استثنى.

ويدل على ذلك بصراحة لا تقبل جدلاً، ما رواه أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع»^(١).

وما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وسيكون بعدي خلفاء»^(٢).

وظاهر هذا الحديث أن استخلاف الخلفاء في الأمة الإسلامية كاستخلاف الأنبياء في الأمم السالفة ومن المعلوم أن الاستخلاف كان هناك بالتنصيب فيجب أن يكون هنا بالتنصيب كذلك، وإليك بيان نقاط مهمة في صياغة القيادة:

١- إذا تعرفت على هذه الأمور الاثني عشر، فاعلم أن هذه المقدمات تعرب عن كون صيغة الحكومة بعد النبي هي صيغة التنصيب على شخص له مؤهلات وكفاءات علمية توازن كفاءات النبي ومؤهلاته ويكون مستودعاً لعلوم النبي واقعاً تحت عناية الله تبارك وتعالى وكفالاته ومن المعلوم أن التعرف على هذا الفرد ليس ميسراً من طريق الانتخاب بالشورى أو بالبيعة

(١) مسند أحمد: ٤٤/٣، ورواه غيره من أصحاب الصحاح والنسب.

(٢) جامع الأصول لابن أثير الجزري: ص ٤٤٣، أخرجه البخاري ومسلم.

بل يُعرف بتعيين من الله سبحانه عن طريق النبي الأكرم نظير أوصياء سائر الأنبياء.

٢- كما عرفت أن الدولة الإسلامية الفتية كانت مهددة في أخريات أيام النبي ﷺ، حال وفاته، بأعداء داخليين هم المنافقون وخارجيين هم الروم والفرس، فمقتضى المصلحة العامة في تلك الظروف الحرجة تعيين الإمام والخليفة بعده، لئلا تترك الدولة بعد وفاته عرضة للاختلاف وبالتالي تمكّن أعداؤها منها.

٣- أضف إلى ذلك أنّ الوعي الديني لم يكن راسخاً في قلوب أكثر الصحابة بفرارهم في بعض الغزوات وإنّ كان القليل منهم قد بلغ القمة في الفضل والفضيلة والثبات.

٤- كما عرفت أنه لو كان أساس الحكم على غير وجه التنصيب، لكان على النبي الأكرم ﷺ وسلم بيان أسسه وأصوله وفروعه وشرائط الإمام، وما تنعقد به الإمامة مع أنّ النبي الأكرم ﷺ سكت عن ذلك، فهل يصح لنا أن نتهم النبي بأنه بلغ أبسط الأمور وأيسرها التي تقع في الدرجة الأخيرة من الأهمية في حياة الإنسان وسكت عن عظام الأمور ومهماتهما التي تتوقف عليها حياة الأمة.

٥- كما عرفت أنّ تصور النبي للخلافة في عصره هو إيكالها إلى الله سبحانه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١) وليس الاختيار للنبي أو الأمة.

٦- كما عرفت أنّ تصور الصحابة وسيرتهم في الخلافة هي سيرة التنصيب وقد كان ترك التنصيب في نظرهم إهمالاً لأمر الأمة وتركاً لها بلا

راع فريسة للأعداء وبذلك استتب الأمر لعمر بيد أبي بكر، ولعثمان بيد عمر، وهكذا توالى السيرة في الأمويين والعباسيين من الخلفاء، وشذت عنها خلافة علي حيث استتبت له بيعة المهاجرين والأنصار.

٧- كما عرفت أن صيغة القيادة في الشرائع السابقة كانت هي التنصيب وكان الأوصياء ينصبون من طريق الأنبياء وإليك بعض الآيات المشعرة بذلك:

قال تعالى مخاطباً إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) وليس المراد من الإمامة هنا النبوة كما زعمه بعض المفسرين، لأنه إنما جعله إماماً بعدما كان نبياً ورسولاً، بشهادة أنه يطلب هذا المقام لذريته.

وقال تعالى حاكياً عن موسى: ﴿وَأَجْعَلِ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ * هَارُونَ أَخِي﴾^(٢).

حينما طلب أخاه هارون أن يكون وزيراً ومساعداً له في القيادة. ويؤيد ذلك تاريخ الأنبياء فقد كانوا ينصّون على الخلفاء من بعدهم بصورة الوصايا^(٣).

٨- كما أنك عرفت أنه لا دليل على كون أساس الحكم هو الشورى أو البيعة لا من الكتاب ولا السنة ولا في نهج الصحابة. كل ذلك يُعرب عن أن القائد الحكيم بأمر من الله سبحانه.

وبعد هذه المقدمات نوافيك بالبحوث التالية:

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة طه: الآية ٢٩-٣٠.

(٣) راجع إثبات الوصية للمسعودي فقد ذكر أوصياء الأنبياء ص ٤٥.

البحث الأول:

الأدلة العقلية لإثبات العصمة

ودليل العقل على اعتبار العصمة للإمام لا يختلف عما استدل به على اعتبارها في النبي ﷺ لوحدة الملاك فيهما، وبخاصة إذا تذكرنا من أن الإمامة امتداد للنسبة فمن حيث وظائفها العامة، فالإمام والخليفة يخلف النبي ﷺ في الأمة بوظائفه العامة ولهذا صور العلامة المظفر في كتابه (دلائل الصدق) هذا الدليل بالصور الآتية:

الأولى: أن الإمام حافظ للشرع كالنبي ﷺ لأن حفظه من أظهر فوائده إمامته، فتجب عصمته لذلك لأن المراد حفظه علماً وعملاً، وبالضرورة لا يقدر على حفظه بتمامه إلا المعصوم.

والثانية: أن الحاجة إلى الإمام في إقامة الحدود وحفظ الفرائض يوجب عصمته، وإلا لافتقر إلى إمام آخر وتسلسل.

والثالثة: أن الإمام لو عصى لوجب الإنكار عليه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو مضاف لوجوب طاعته على الإطلاق من قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، [النساء ٥٩].

والرابعة: لو صدرت المعصية منه لسقط محله من القلوب فلا تنقاد لطاعته، فتتفي فائدة النصب.

والخامسة: أنه لو عصى لكان أدون حالاً من أقل آحاد الأمة، لأن أصغر الكبائر من أعلى الأمة أقيح وأعظم من أكبر الكبائر من أدنى الأمة، لأن القائد أعلم وأعرف الناس بمناقب الطاعات ومسالب المعاصي.

البحث الثاني

السنة النبوية وتنصيب علي للإمامة:

إن من أحاط علماً بسيرة النبي الأكرم يجد نصوصاً متواترة متوالية في تنصيب علي عليه السلام قائداً وحاكماً وإليك بعض الأحاديث المتواترة:

أ - حديث الإنذار: (حديث بدء الدعوة)

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢١٤]، دعاني رسول الله ﷺ، وقال لي: «يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين...» إلى آخر الحديث، فقال ﷺ «فأيكم يؤازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي وأجلسني، ثم قال ﷺ: «أيكم يؤازرنني على هذا الأمر» أعادها ثلاث مرات ثم قال ﷺ: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوه»^(١).

ودلالة الحديث على الخلافة لعلي عليه السلام والوصاية له لا تحتاج إلى بيان.

ب - حديث المنزلة:

روى أهل السير والتاريخ أن رسول الله ﷺ خلف علياً بن أبي طالب عليه السلام على أهل المدينة، عند توجهه إلى تبوك، فأرجف به المنافقون،

(١) تاريخ الطبري: ٦٣/٢ - ٦٤، ومسنند أحمد: ١٥٩/١، الكامل لابن الأثير: ٢٤/٢، وتفسير الخازن:

وقالوا: ما خلفه إلا استقالاً له، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي عليه السلام سلاحه، ثم خرج حتى أتى الرسول وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استقلتني، فقال: كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ فرجع علي عليه السلام إلى المدينة المنورة ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سفره ^(١).

وأما دلالة الحديث فيكيفك فيها أن كلمة منزلة اسم الجنس يقتضي العموم، فيدل على أن كل مقام ومنصب كان ثابتاً لـ هارون فهو أيضاً لعلي عليه السلام، إلا النبوة.

ج - حديث الغدير:

حديث الغدير، حديث الولاية الكبرى وحديث إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب تعالى وهو حديث نزل به كتاب الله المبين، وتواترت به السنة ورواه أكثر من مائة صحابياً، وذلك يوم الخميس في الثامن عشر من ذي الحجة، نزل جبرائيل الأمين عن الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة ٦٧]، فأمر رسول الله أن يُرَدَّ من تقدم منهم، قام خطيباً وسط القوم على أفتاب الإبل، فقال: الحمد لله ونستعينه..... إلى أن قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق... وأن الله يبعث من في القبور... إلى أن قال: إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٥١٩/٢، والبخاري في صحيحه: ٣/٦، وصحيح مسلم: ١٢٠٧، وابن

فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره واخذك من خذله وأدر الحق معه حيث دار^(١) ألا فليبلغ الشاهد الغائب» ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة ٣]، فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي من بعدي»^(٢).

ثم أخذ الناس يهشون علياً وممن هنا في مقدم الصحابة أبو بكر وعمر، كل يقول يخ يخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة^(٣).

فلا نجد حديثاً بلغ درجة التواتر والتضافر كحديث الغدير فقد رواه مائة وعشرة صحابياً وفهموا من لفظة المولى معنى الإمامة لا غيرها فالمولى هو الأولى بالشيء والمتصرف به وبدلالة قول الرسول ﷺ: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم أو قال ﷺ ألسنت أولى بكم منكم أو قال ﷺ ألسنت أولى بكم من أنفسكم^(٤)، فهو أولى من كل الناس بالطاعة والتصرف.

د - حديث الثقلين:

روى أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبي الأكرم أنه قال: «يا أيها الناس إني تركت فيكم خليفين ما إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدي،

(١) راجع الغدير للعلامة الأميني ١٥٢/١ - ١٥٧، صحيح البخاري ٢٤٠٧، معاني القرآن للفراء ١٣٤/٣.

(٢) مسند أحمد ٩٣/٢، العقد الفريد ٦١/٥.

(٣) صحيح مسلم: ١٢٢/٧، وسنن الترمذي: ٣٠٧/٢، ومسند أحمد: ١٧/٣.

(٤) مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ ١٧/٣، صحيح الترمذي ٣٢٩/٥.

كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(١)، وقال في موضع آخر: «إني تركت فيكم، ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، وقال في موضع آخر: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٢).

وقال في موضع آخر: «إني أوشك أن أدعى فأجيب وإنني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيها»^(٣).

ولا يشك في صحة الحديث المتواتر إلا الجاهل به أو المعاند فقد روي بطرق كثيرة عن نيف وعشرين صحابياً^(٤) إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في مواضع عدة اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.

وهذا التكرار من النبي ﷺ له في أكثر من موضع سر شهرته بل تواتره.

وقد استفيد هذا الحديث عدة أمور نعرضها بإيجاز:

الأول: أن الإيمان في الحديث يعرب عن عصمة العترة الطاهرة حيث

(١) الصواعق المحرقة ص ١٤٨ ط. المحمدية.

(٢) مسند أحمد ١٨٢/٥، الدر المنثور للسيوطي ٣٠٦٦.

(٣) مسند أحمد ٥٧٣/٣ الصواعق المحرقة ص ١٤٨ طبعه المحمدية.

(٤) صحيح مسلم باب فضائل الصحابة الحديث ٤٤٢٥، سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن، الحديث ٣١٨٢، خصائص النسائي ص ٣٥، تذكرة الخواص ص ٣٢٣، مسند أحمد: الحديث ١٠٦٨١، مستدرک الحاكم ١٤٨٣، ذخائر العقبه ص ١٦، الصواعق المحرقة ص ١٤٨.

قورنت بالقرآن الكريم، وأنهما لا يفترقان ومن المعلوم أن القرآن العظيم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكيف يمكن أن يكون قرناء القرآن خاطئين فيما يحكمون أو يقولون ويحدثون، فعدم الافتراق إلى يوم القيامة دليل كونهم معصومين فيما يقولون ويروون.

الثاني: لزوم التمسك بالكتاب والعترة معاً لا بواحد منهما، منعاً من الضلالة دائماً وأبداً كما هو مقتضى ما تفيده كلمة (لن) التأييدية، لقوله ﷺ فيه: «ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»، وأن من يقول حسبنا كتاب الله فقد خالف الحديث المذكور أعلاه، وذلك لأنه من فارق التمسك بهما فقد فارقهما.

الثالث: وجوب الأخذ منهما في - الأصول - والفروع.

الرابع: بقاء العترة إلى جنب الكتاب إلى يوم القيامة، أي لا يخلو منهما زمان من الأزمنة وهذا يدل على وجود المهدي المنتظر (عجل الله فرجه)، ودليله قوله ﷺ: «لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، مما يدل على وجود الحجة في كل عصر، ولا يخلو عصر من العصور من قائم بالحق. وهذا يدل على وجود المهدي المنتظر عجل الله فرجه.

الخامس: دلالة على تميزهم بالعلم بكل ما يتصل بالشريعة وغيره؛ كما يدل على ذلك اقترانهم بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ولقوله ﷺ: «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» وتعبيره ﷺ بالتقلين^(١)، بمعنى كل نفيس خطير مصون لقول ابن حجر في صواعقه

(١) راجع الامامة الإلهية للشيخ محمد سند ص ٣٩٩، الصواعق المحرقة ص ١٤٨، صحيح مسلم

المحرقة ص ١٤٩) إذ كل منهما معدن العلوم الدنيوية والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية) ولذا حث ﷺ على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم، فهم القرآن الناطق. وهم إمام لمن استهدى، وتميزوا بالعلم عم بقية العلماء لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

السادس: المعية في الحجية بين الكتاب والعترة فلا يجوز الاكتفاء بأحدهما دون الآخر، وهو دليل على التنصيب والتعيين منه تعالى بواسطة الوحي.

السابع: لا يتم التمسك بالكتاب والعترة من دون الاعتقاد بتنصيبهما من قبل الله تعالى.

الثامن: «ما أن تمسكتم بهما» يقيد عدم الرجوع إلى غيرهما وأن الاحتجاج لا يجوز بغيرهما.

التاسع: «لن تضلوا أبداً» تأكيد الاطلاق بـ (أبداً) يدل على عدم الضلال المطلق (الحالي والمستقبل) وهو يعني غير مختص بالإرادة فقط بل يعمه إلى الهداية الإيصالية وهو يدل على ماهية الإمامة.

البحث الثالث:

السنة النبوية والأئمة الإثنا عشرية

إن النبي الأكرم لم يكتف بتنصيب علي منصب الإمامة والخلافة، كما لم يكتف بإرجاع الأمة الإسلامية إلى أهل بيته وعترته الطاهرة، بل قام ببيان عدد الأئمة الذين يتولون الخلافة بعده، واحداً بعد واحد، حتى لا يبقى لمرتاب ريب، ولا لشاك شك وقد جاء ذلك في الصحاح ولمسانيد بصور مختلفة نشير إليها.

١- كلهم من قريش:

روى البخاري عن جابر بن سمرة قال سمعت النبي يقول: «يكون إثنا عشر أميراً فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال كلهم من قريش»^(١).

٢- لا يزال الإسلام عزيزاً:

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة كلهم من قريش»^(٢).

٣- لا يزال الدين عزيزاً منيعاً:

وروي أيضاً عن جابر بن سمرة قال: انطلقت إلى رسول الله ومعى أبي فسمعته يقول ﷺ: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة كلهم من قريش»^(٣) وغيرها كثير.

(١) صحيح البخاري ٨١/٩، مستد أحمد ٩٠/٥.

(٢) صحيح مسلم ٣/٦، مستد أحمد ٩٧/٥.

(٣) صحيح مسلم ٣/٦، مستد أحمد ٩٧/٥.

منها: روى أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة عن أبيه قال جئت أنا وأبي إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «لا يزال الناس بخير إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش»^(١).

إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة.

إذ لا يمكن أن يحمل على الملوك الأمويين لزيادتهم على الإثني عشر وظلمهم الفاحش وكذلك لا يمكن حمله على العباسيين لزيادتهم على العدد المذكور وظلمهم الفاحش فلا بد من أن يُحمل على الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأورعهم وأتقاهم وأفضلهم حساباً هم: علي بن أبي طالب، فالحسن بن علي المجتبي، الحسين بن علي الشهيد، فعلي بن الحسين السجاد، فمحمد بن علي الباقر، فجعفر بن محمد الصادق، فموسى بن جعفر الكاظم، فعلي بن موسى الرضا، فمحمد بن علي الجواد، فعلي بن محمد الهادي، فالحسن بن علي العسكري، فمحمد بن الحسن المهدي المنتظر الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً^(٢). وقد تضافرت النصوص في تنصيب الإمام السابق على الإمام اللاحق، فمن أراد الوقوف على هذه النصوص، فعليه الرجوع إلى الكتب المعدة لإمامة الأئمة من أهل البيت^(٣).

(١) مسند أحمد ٩٨٥.

(٢) كفاية الأثر ص ٦٩-٧٣، مجمع الزوائد ١٩٧/٥، مسند أحمد ١٧٥/٢، البداية والنهاية ١٦٥/٧ عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ خلقني الله تعالى وأهل بيتي من نور واحد قبل أن يخلق الله آدم ﷺ بسبعة آلاف عام ثم نقلنا من صلبه في أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ثم بدأ يندمهم واحد بعد واحد حسب ما سر وقال الله تعالى لنيه محمد ﷺ عندما سأله ﷺ (هؤلاء الأئمة من بطنك المطهرون من صلبك

(٣) أصول الكافي - الجزء الأول - باب أسماء الأئمة ﷺ وكتاب الحجّة الإثبات الهداة للشيخ الحر العاملي وقد جمع فيه النصوص المتضاربة على إمامة كل واحد من الأئمة الإثني عشر.

البحث الرابع:

عصمة الإمام في القرآن

إن الشيعة الإمامية، فقد اتفقت على هذا الشرط من بين الشروط واستدلوا عليه بأدلة نكتفي ببعضها:

الدليل الأول: الإمامة استمرار لوظائف الرسالة:

إن حقيقة الإمامة التي تتبناه الشيعة الإمامية هي القيام بوظائف الرسول بعد رحلته، وقد تعرفنا على وظائفه الرسالية والفراغ الحاصل بموته، ومن المعلوم أن سد هذا الفراغ لا يتحقق إلا أن يكون الإمام عارفاً بكتاب الله والسنة على وفق الواقع وعالمياً بحكم الموضوعات المستجدة عرفاناً واقعياً، وذائباً عن الدين شبهات المشككين.

ومن المعلوم أن هذه الوظيفة تستدعي كون الإمام مصوناً من الخطأ فما دل على أن النبي يجب أن يكون مصوناً في مقام إبلاغ الرسالة، فإن الإمام يقوم بنفس تلك الوظيفة وإن لم يكن رسولاً ولا طرفاً للوحي ولكنه يكون عيبة لعلمه وحاملاً لشرعه وأحكامه، فإذا لم نجوز الخطأ على النبي في مقام الإبلاغ فليكن الأمر كذلك في مقام القيام بتلك الوظيفة لأنه حامل لشرعه وحافظ لأحكامه، فيكون الخليفة معصوماً لا يخطأ.

الدليل الثاني: آية ابتلاء إبراهيم عليه السلام:

قال سبحانه ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

إن تفسير الآية كما هو حقُّها يتوقف على دراسة النقاط التالية:

أ - ما هو الهدف من الابتلاء؟

ب - ما هو المراد من الكلمات؟

ج - ماذا يراد من الإتمام؟

د - ما هو المقصود من الإمام (إماماً)؟

هـ - كيف تكون الإمامة عهداً إلهياً؟

و- ما هو المراد من الظالمين؟

ولكن إفاضة الكلام في هذه الموضوعات، يُحوِّجنا إلى تأليف كتاب خاص فنكتفي بالتركيز على اثنين من هذه الموضوعات:

الأول: ما هو المقصود من الإمامة التي أنعم الله سبحانه بها على نبيه

الخليل؟

الثاني: ما هو المراد من الظالمين؟

الأول: ما هو المراد من الإمامة في الآية؟

ذهب بعض المفسرين منهم الرازي في مفاتيحه، إلى أن المراد من

الإمامة هنا النبوة^(١) وقال الشيخ محمد عبده: الإمامة هنا عبارة عن الرسالة وهي لا تنال بكسب الكاسب^(٢).

يلاحظ عليه: إن إبراهيم كان نبياً قبل الابتلاء بالكلمات وقبل تنصيبه

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٤٩٠/١.

(٢) تفسير المنار لمحمد عبده ج ٤٥٥/١.

إماماً، فكيف يصح أن تُفسر الإمامة بالنبوة على ما في لفظ الرازي أو بالرسالة على ما في لفظ تفسير المنار لمحمد عبده ودليلنا على ما ذكرنا أمران.

• الأمر الأول: إن نزول الوحي على إبراهيم وجعله طرفاً للخطاب بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أوضح دليل على أنه كان نبياً قبل نزول هذه الآية التي طلب فيها الإمامة لذريته.

• الأمر الثاني: إن إبراهيم الخليل طلب الإمامة لذريته ومن المعلوم إن إبراهيم كان نبياً قبل أن يرزق أي ولد من ولديه إسماعيل وإسحاق أما أولهما فقد رزقه بعد تحطيم الأصنام في بابل وإعداد العدة للخروج إلى فلسطين، حيث وافاه الوحي وبشره ﴿فَبَشِّرْنَهُ بِنُحْتِهِمْ حَلِيمٍ﴾^(١)، وأما ثانيهما، فقد بشرته به الملائكة عندما دخلوا عليه ضيوفاً، فقالوا ﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) وعلى ذلك يجب أن تكون الإمامة الموهوبة للخليل إبراهيم غير النبوة وإلا كان أشبه بتحصيل الحاصل.

والظاهر أن المراد من الإمامة القيادة الإلهية للمجتمع وتنفيذ الشريعة في المجتمع بقوة وقدرة.

وعرب عن كون المراد من الإمامة في المقام هو منصب القيادة وتنفيذ الشريعة قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبُوا أَنَّ النَّاسَ عَلَىٰ مَاءٍ أَنَّهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾^(٣).

(١) سورة الصافات الآية (٩١-١٠٢).

(٢) سورة الحجر: الآية ٥١.

(٣) سورة النساء الآية (٥٤).

فالإمامة هي الملك العظيم التي أنعم بها الله على الخليل وبعض ذريته كما نصت عليه النصوص الصحيحة والله سبحانه يوضح حقيقة هذا الملك في الآيات التالية:

١- يقول تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ومن المعلوم أن الملك الذي من به سبحانه على عبده يوسف ليس النبوة بل الحاكمية، لأن قوله ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(١) إشارة إلى نبوته، والملك إشارة إلى سلطته وقدرته.

٢- وقوله تعالى في داود عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَلْفَ أَلْفَ مَلَكٍ وَأَلْحَمْنَاهُ﴾^(٢) ومن المعلوم أن الملك الذي من به سبحانه على عبده داود ليس النبوة بل الحاكمية والسلطة والولاية^(٣)، فعندئذ عند ذلك يتضح أن مقام الإمامة وراء النبوة والرسالة.

الثاني: ما هو المراد من الظالمين.

الظلم في اللغة: هو وضع الشيء في غير موضعه ومجاوزه الحد الذي عينه العرف أو الشرع فالمعصية كبرها وصغيرها ظلم لأن مقترفهما يتجاوز عن الحد والظلم بكل مراتبه وألوانه مانع عن نيل هذا المنصب الإلهي. وعلى ذلك فكل من ارتكب ظلماً وتجاوز حداً في يوم من أيام عمره أو عبد صنماً أو لاذ إلى وثن لا لا يصلح لمنصب الإمامة، وهذا يستلزم أن يكون المؤهل للإمامة طاهراً من الذنوب ومنها عبادة الأصنام وكافة أنواع الظلم، وهذا ما نسميه بالعصمة.

(١) سورة يوسف: ١٠١.

(٢) سورة البقرة: ٢٥١.

(٣) الميزان ٣٧٧/٤، تفسير الأمل ٢٧٤/٧.

فالمتصف بالظلم من بداية عمره إلى آخره أو المتصف به أيام تصديه للإمامة لا يصلح لأن يؤتمن عليها. وكذلك لا ينال عهده الظالم والظالم المتصف به من بداية عمره وكان تائباً حين تصديه للإمامة لا ينال الخلافة فالظاهر من صيغة الجمع المحلى باللام (الظالمين)، يشمل جميع الظلم بكل ألوانه وصورة مانع عن نيل هذا المنصب الإلهي، وبقي قسم واحد وهو من كان نقي الصحيفة طيلة عمره لم ير منه لا قبل التصدي ولا بعده أي انحراف عن جادة الحق ومجاوزة للصرات المستقيم فهذا هو الذي ينال الخلافة.

الدليل الثالث: آية التطهير وعصمة أهل البيت عليهم السلام بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

إن دلالة الآية الكريمة على العصمة تظهر إذا اطلعنا على أن المراد من الرجس هو القذارة المعنوية لا المادية، توضيح ذلك، إن الرجس في اللغة هو القدر^(٢)، وقد يعبر به عن الحرام، والفعل القبيح، والعذاب، واللعن والكفر، قال الزجاج: (الرجس في اللغة كل ما استقدر من عمل فبالغ الله في ذم أشياء وسماها رجساً). وقال ابن الكلبي: (رجس من عمل الشيطان، أي مأثم) والمتفحص في كلمات أئمة أهل اللغة والآيات الواردة فيها تلك اللفظة يصل إلى أنها موضوعة للقذارة التي تنفر منها النفوس، سواء أكانت مادية كما في قوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مَسْفُوحًا أَوْ لِحْمِ خِزْيِرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾^(٣)، أو معنوية كما في الكافر وعابد الوثن وصنمه قال

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) لسان العرب ٨/ ٩٤، مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٠.

(٣) سورة الأنعام الآية (١٤٥).

تعالى ﴿فَأَجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾^(١)، وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ نَجْعَلُ
اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

فلو وصف العمل القبيح بالرجس فلأنه عمل قذر، تنفر منه الطباع
السليمة وعلى ضوء هذا فالمراد من الرجس في الآية، كل عمل قبيح عرفاً
أو شرعاً لا تقبله الطباع ولذلك قال تعالى بعد تلك اللفظة (ويطهركم
تطهيراً) فليس المراد من التطهير إلا تطهيرهم من الرجس المعنوي الذي
تعدُّ المعاصي والمآثم من أظهر مصاديقه.

إلى هنا ظهر بوضوح أن العصمة شرط للإمام تم الاستدلال عليها
من هذه الآيات ومن غيرها من القرآن الكريم فمنها مثلاً لا على سبيل
الحصر قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

فلو كان أولو الأمر يحرّمون حلال الله والعكس بالعكس لما أمر
بطاعتهم ولما قرن طاعته تعالى بطاعتهم ولو لم يكن معصوماً عن الخطاء
لما أمر بطاعته وهذا هو معنى العصمة التي هي شرط للإمام بالإضافة إلى
شروط أخرى منها الأعلمية حيث ورد في السنة الشريفة أعلمكم علي،
أفضاكم علي وكما أن الناس والخلفاء احتاجوا إليه واحتكموا إليه وهو
استغنى عنهم فدلّل على أنه أفضلهم وأعلمهم. ومن أراد التفصيل فليراجع
الكتب المعدة للإمامة^(٣)، والنتيجة: أن تقريب الاستدلال بهذه الآية على

(١) سورة الحج الآية (٣٠).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٢٥).

(٣) لاحظ الشافعي للسيد المرتضى واحقاق الحق للتستري وكشف الصدق للعلامة الحلبي، ودلائل
الصدق للمظفر وتلخيص الشافعي للطوسي وغيرها.

عصمة أهل البيت عليهم السلام ما ورد فيها من حصر إرادة إذهاب الرجس (أي الذنوب) عنهم بكلمة (إنما) وهي في هذه الآية أقوى أدوات الحصر كما أن الإرادة التكوينية لله تعالى يستحيل فيها تخلف المراد عنها وهذا من البديهيات لمن آمن بالله عز وجل وإرادته وقرأ في كتابه العزيز من سورة يس، آية: ٨٢ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وتخريجها على أساس فلسفي من البديهيات أيضاً لمن يدرك أن إرادته تعالى هي العلة التامة بالنسبة لجميع مخلوقاته واستحالة تخلف المعلول عن علته من القضايا الأولية ولا أقل كونها من القضايا المسئلة لدا الطرفين وليس معنى العصمة إلا استحالة صدور الذنب والنقص عن صاحبها عادة.

شبهات حول آية التطهير

الشبهة الأولى: وقد يقال أن حملها على الإرادة التكوينية وإن دل على معنى العصمة فيهم لاستحالة تخلف المراد عن إرادته تعالى التكوينية، إلا أن ذلك يجزنا إلى الالتزام بالجبر وسلبهم الإرادة في ما يصدر عنهم من أفعال ما دامت الإرادة التكوينية هي المتحكمة في جميع تصرفاتهم ونتيجة ذلك حتما حرمانهم من الثواب والأجر.

والجواب عن هذه الشبهة: أن خلقه تعالى لأفعالهم إنما هو بتوسط إرادتهم الخاص وفي طولها، وهي مخلوقة لله تعالى حقيقة وهي صادرة عن إرادتهم حقيقة أيضاً، وبذلك صححوا الثواب والعقاب وذهبوا إلى الحل الوسط الذي أخذته الشيعة من أقوال أئمتهم (عليهم السلام): «لا جبر ولا تفويض وإنما هو أمر بين أمرين»^(١).

(١) أصول الكافي، ١/١٦٠، ١

وبناءً على هذه النظرية يكون مفاد الآية أن الله عز وجل لما علم أن إرادتهم تجري دائماً على وفق ما شرعه لهم من أحكام، بحكم ما زدوا به من إمكانات ذاتية ومواهب مكتسبة نتيجة تربيتهم على وفق مبادئ الإسلام تربية حوثتهم في سلوكهم إلى إسلام متجسد، ثم بحكم ما كانت لديهم من القدرات على أعمال إرادتهم وفق أحكامه التي استوعبها علما وخبرة، فقد صح له تعالى الإخبار عن ذاته المقدسة بأنه لا يريد لهم بإرادته التكوينية إلا إذهاب الرجس عنهم، ما داموا هم لا يريدون لأنفسهم إلا إذهاب الرجس عنهم، وتطهيرهم منه، فأرادتهم التكوينية تسير في طول إرادته التكوينية، والشبهة لا يمكن أن تحل إلا على مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في نظرية الأمرين.

الشبهة الثانية: وقد يقال أن علماء الأصول قسموا الإرادة إلى تكوينية وتشريعية، فإن كان متعلقها خصوص الأمور الواقعية من أفعال المكلفين وغيرها سميت تكوينية لاستحالة تخلف المراد عن إرادته تعالى، وأما إذا كان متعلقها الأمور المجعولة على أفعال المكلفين من قبل المشرع سميت إرادة تشريعية، ففي آية التطهير هي التشريعية.

والجواب عن هذه الشبهة: أن تفسير هذه الإرادة في آية التطهير بالإرادة التشريعية يتنافى مع نص الآية بالحصص المستفاد من كلمة (إنما) ذا لا خصوصية لأهل البيت في تشريع الأحكام لهم، وليست لهم أحكام مستقلة عن أحكام بقية المكلفين، والغاية من تشريعه للأحكام إذهاب الرجس عن الجميع لا عن خصوص أهل البيت عليهم السلام على أن حملها على الإرادة التشريعية يتنافى مع اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بأهل البيت وتطبيق الآية عليهم بالخصوص، كما ورد ذلك في الروايات المعتبرة بل المشهورة أو

المستفيضة بل المتواترة في أن النبي ﷺ كان يقرأ كل يوم على باب علي وفاطمة ولمدة ستة أشهر أو تسعة أشهر: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١)، وكذا عندما خرج ﷺ إلى المباهلة وليس معه غير علي وفاطمة وحسن وحسين (عليهم السلام) وهو يقول: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٢).

الشبهة الثالثة: أثارها عكرمة ومقاتل وهي أن المراد من أهل البيت (عليهم السلام) هم نساء النبي خاصة كما ذكرها الواحدي وأبدهما وقد استدل في أسباب النزول، (ص: ٢٦٨)، بوحدة السياق لأن الآية إنما وردت ضمن آيات نساء النبي ﷺ.

والجواب على هذه الشبهة يقع من وجوه:

الوجه الأول: أن لفظة الأهل لم تكن تطلق في السنة العرب على الأزواج، ففي صحيح مسلم، (١٢٩/٧)، كتاب فضائل الصحابة: (أن زيد بن أرقم سئل عن المراد بأهل البيت، هل هم النساء؟

قال: لا وأيم الله، أن المرأة تكون مع الرجل العصر من السدھر، ثم يطلقها فترجع على أبيها وقومها.

الوجه الثاني: وفي رواية أم سلمة، قالت: نزلت هذه الآية في بيتي ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وفي البيت علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وأنا على باب

(١) آية الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) صحيح مسلم، ١٢١/٧، وقد رواه كل من الحاكم والترمذي والبيهقي وغيرهم كما ذكره صاحب دلائل

البيت، قلت يا رسول الله: ألسنت من أهل البيت؟ قال: إنك إلى خير، إنك من أزواج النبي ﷺ^(١).

الوجه الثالث: وفي رواية أم سلمة الأخرى، وهي صحيحة على شرط البخاري في بيتي نزلت: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فأرسل رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة وحسن وحسين، فقال هؤلاء أهل بيتي^(٢).

الوجه الرابع: وحديث الكساء المتواتر المضمون لتعدد رواته لدى الشيعة والسنة في جميع الطبقات، وفي رواية عائشة تقول: جاء الحسن بن علي فأدخله النبي تحت الكساء، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال ﷺ: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٣).

الوجه الخامس: ودعوى نزولها غي نساء النبي ﷺ شرف لم تدعه لنفسها واحدة من نسائه، بل صرحت غير واحدة منهن بنزولها بي النبي وعلي وفاطمة وحسن وحسين كما مر أعلاه.

الوجه السادس: وأما دعوة وحدة السياق فهي غير تامة، لأن وحدة السياق تقتضي اتحاداً في نوع الضمائر ومقتضى التسلسل الطبيعي أن تكون الآية هكذا: «إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» لا عنكم، ولا يطهركم.

(١) الدر الثمور: ١٩٨٥.

(٢) المستدرک الحاكم: ١٤٦٣.

(٣) صحیح مسام، کتاب فضائل الصحابة: ١٣٠٧.

الوجه السابع: من حيث سند الرواية فهو ضعيف من جهة عكرمة الخارج على الإمام علي عليه السلام والمعادي له، فقد كذبه عبد الله ابن عباس، وأما مقاتل فحسابه من حيث العداء لأمير المؤمنين علي عليه السلام حساب عكرمة، وكذا أنه كذاب، حتى عده النسائي في جملة الكذابين المعروفين بوضع الحديث، (أنظر الكلمة الغراء ص: ٢١٢).

الدليل الرابع: وله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾^(١). وقد قرب الفخر الرازي دلالتها على عصمة أولي الأمر في تفسيره الكبير (١٤٤/١٠)، لهذه الآية بقوله: (إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله تعالى بمتابعته فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ)، ثم يذكر الرازي شبهات حول حمل الآية على الأئمة المعصومين في تفسيره الكبير^(٢) بقوله: (وأما حمل الآية على الأئمة المعصومين على ما تقوله الروافض ففي غاية البعد، لوجوه ونحن نذكر أهمها:

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ١٤٧١٠.

الوجه الأول (الشبهة الأولى):

أنه تعالى أمر بطاعة أولي الأمر، وأولوا الأمر جمع وعندهم لا يكون في الزمان الواحد إلا إمام واحد، وحمل الجمع على الفرد خلاف الظاهر. والجواب عن هذا الوجه بما يلي:

نعم إذا كانت استفادة الإجماع من كلمة (أولي الأمر) مبنية على إرادة العموم المجموعي، وحمله على الفرد خلاف الظاهر، ولكن الظاهر من هذا النوع من العمومات هو العموم الاستغراقي المنحل في واقعه إلى أحكام متعددة بتعدد أفرادها، ومَنْ استعرض أحكام الشارع التي استعمل فيها العمومات الاستغرافية يجدها مستوعبة لأكثر أحكامه، وما كان منها من قبيل العموم المجموعي نادرًا نسبيًا، فلو قال الشارع أعطوا زكواتكم لأولي الفقر والمسكنة - مثلاً - فهل معنى ذلك لزوم إعطائها لهم مجتمعين، وإعطاء الزكوات مجتمعة أم متفرقة؟ وعلى هذا فحمل (أولي الأمر) في الآية للكيفية على العموم المجموعي حمل على الفرد النادر من دون قرينة ملزمة، فيكون حملها على العموم الاستغراقي لجميع العصور وهذا هو الغالب في القرآن الكريم وفي لغة العرب.

الوجه الثاني (الشبهة الثانية):

أن إرادة خصوص الأئمة من هذه الآية بعيد، وقرب أن يكون المراد منها أهل الإجماع أي (أهل الحل والعقد)، واستدل على ذلك بقوله: (ثم نقول: ذلك المعصوم، إما مجموع أو بعض الأمة، لا جائز أن يكون بعض الأمة، لأننا بينا أن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم، قادرين على الوصول

إليهم، ونحن نعلم بالضرورة أننا في زماننا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، وعاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأمة ولا طائفة من طوائفهم، ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذب هو المراد بقوله (أولي الأمر) أهل الإجماع من الأمة وهم أهل الحل والعقد).

والجواب الحلّي عن هذا الوجه بما يلي:

يرد على الرازي في استفادته وجوب إطاعة أهل الحل والعقد وأنهم هم المراد من كونهم أولي الأمر لا أئمة أهل البيت عليهم السلام بناؤه هذه الاستفادة على اعتبار معرفة متعلق الحكم من شروط نفس التكليف، وبانتفاء هذا الشرط لتعذر معرفة الأئمة والوصول إليهم يتنفي المشروط وهذا النوع من الاستفادة غريب منه، إذ لازمه أن تتحول جميع القضايا المطلقة إلى قضايا مشروطة، لأنه ما من قضية إلا ويتوقف امتثالها على معرفة متعلقها، فلو اعتبرت معرفة المتعلق شرطاً فيها لزم أن تكون مشروطة وعلى هذا فوجوب معرفة المتعلق للتكاليف لا يمكن أخذها شرطاً فيها بما هو متعلق لها لتأخره رتبة عنها ويستحيل أخذ المتأخر في المتقدم للزوم الخلف أو الدور.

والجواب النقضي على هذا الوجه بما يلي:

نقول: إن إجماع أهل الحل والعقد هو نفسه مما يحتاج إلى معرفة وربما كانت معرفته أشق من معرفة فرد أو أفراد لاحتياجها إلى استيعاب جميع المجتهدين أي (جميع أهل الحل والعقد)، وليس من السهل استقراؤهم جميعاً والوصول إليهم والاطلاع على أرائهم، وعلى مناه يلزم

تقييد وجوب الإطاعة بمعرفتهم، ويعسر تحصيل هذا الشرط، والإشكال نفس الإشكال والغريب في دعواه بعد ذلك إدعاء العجز عن الوصول إلى الأئمة عليهم السلام ومعرفة أرائهم مع توفر أدلة معرفتهم وإمكان الوصول إلى ما يأتون به من أحكام بواسطة روايتهم الموثوقين.

الوجه الثالث (الشبهة الثالثة):

— أنه قال: ﴿... فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾^(١)، ولو كان المراد بأولي الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يقال: فإن تنازعتم في شيء فردوه على الإمام.

وهذا الإشكال أمره سهل لجواز الحذف اعتماداً على قرينة ذكرها الله تعالى سابقاً؛ وقد سبق في صدر الآية أن ساوى بينهم وبين الله والرسول في لزوم الطاعة، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الآية الثانية: ﴿... وَلَوْزَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ...﴾^(٢).

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

البحث الخامس:

الإمام يجب أن يكون أفضل من غيره

كان علي عليه السلام أكمل وأفضل من باقي الصحابة، والدليل على ذلك وجوه.

• الوجه الأول: إن علياً عليه السلام كان أفضلهم جهاداً.

إن علياً عليه السلام كان أكثر جهاداً وأعظم بلاء في غزوات النبي بأجمعها ولم يبلغ أحد درجته في ذلك ففي غزوة بدر قتل علي عليه السلام الوليد بن عتبة ثم شيبه ثم ابن ربيعة ثم العاص بن سعد بن العاص ثم حنظله بن أبي سفيان ثم طعمه بن عدي ثم نوفل بن خويلد ولم يزل يقاتل حتى قتل نصف قتلى المشركين^(١) وفي غزوة احد قتل علي عليه السلام طلحة بن أبي طلحة حامل راية المشركين ثم أخذ الراية غيره فقتله عليه السلام ولم يزل يقتل واحداً بعد واحد حتى قتل تسعة نفر فانهمز المشركون وفي يوم الأحزاب (الخنندق) قتل عمرو بن عبد ود العامري وكان بطل المشركين، لذا قال في حقه النبي ﷺ «الضربة علي خير من عبادة الثقلين» وفي خبر آخر عنه ﷺ: «الضربة علي يوم الخندق توازي عمل الثقلين إلى يوم القيامة» وفي خبر ثالث عنه ﷺ «الضربة علي يوم الخندق أفضل من عباد الثقلين»^(٢) راجع السير والتاريخ وغزوات النبي ﷺ.

(١) نهج البلاغة لأبي الحديد ٢٠٠/١، المغازي للواقدي ٢٩/١.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن الحنبل ٥٩٤/٢، مجمع الزوائد ١١٤/٦، تاريخ الطبري ٢٠٠٣/٢،

الكامل لأبن الأثير ١١٠/٢، المغازي للواقدي ٤٧٠/٢.

• الوجه الثاني:

كانت الصحابة ترجع إليه في أكثر الوقائع والمهمات والمعضلات ولم ينقل أنه عليه السلام راجع أحداً منهم في شيء البتة وذلك يدل على أنه أفضلهم^(١).

• الوجه الثالث:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه «أعلمكم علي»^(٢) وقال عليه السلام أيضاً في حقه «أفضاكم علي»^(٣) والقضاء يستلزم العلم لذا كان أفضلهم علماً وقضاء فهو رئيس الفضائل وينوعها.

• الوجه الرابع:

استناد العلماء بأجمعهم إليه فإن أصول النحو مستندة إليه وكذا أصول المعارف الإلهية وعلم الأصول وأهل التفسير رجعوا إلى ابن عباس فيه وهو تلميذ علي عليه السلام والعلماء والفقهاء ينتسبون إليه لقوله صلى الله عليه وسلم «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٤). وناهيك قول عمر غير مرة في حقه: (لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر) وقوله: لولا علي لهلك عمر^(٥).

• الوجه الخامس:

إنه أخبر بفضلته وعلمه في عدة مواضع كقوله عليه السلام: «سلوني قبل أن

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد صفحة (٤٠٩).

(٢) طبقات ابن سعد ١٣٥/٢، مسند أحمد ١١٣/٥، ذخائر العقبى ص ٨٣ مناقب الخوارزمي ص ٨١

(٣) الفضائل الخمسة من الصحاح السنة ٣٠٩/٢، مناقب ابن شهر آشوب ٣٦١/٢.

(٤) نفس المصدرين السابقين ٣٠٩/٢.

(٥) الفضائل الخمسة من الصحاح السنة ٣٠٩/٢، مناقب ابن شهر آشوب ٣٦١/٢.

تفقدوني، سلوني عن طرق السماء فإني أعرف بها من طرق الأرض»^(١) وقال «والله لو سئلت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم»^(٢) وذلك يدل على كمال معرفته بجميع هذه الشرائع. وبالجملة فلم ينقل عن أحد من الصحابة ولا عن غيرهم ما ينقل عنه في أصول العلم ما ينقل عنه في أصول العلم.

• الوجه السادس:

أقول: هذا هو الوجه السادس الدال على أنه ﷺ أفضل من غيره وهو قوله تعالى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٣).

واتفق المفسرون كافة أن الأبناء إشارة إلى الحسن والحسين ﷺ والنساء إشارة إلى فاطمة ﷺ والأنفس إشارة إلى علي ﷺ فهو المساوي لنفس النبي، ولا شك في أن رسول الله ﷺ أفضل الناس فمساويه كذلك أيضاً.

• الوجه السابع:

ولكثرة سخائه على غيره أنه كان أسخى الناس بعد رسول الله ﷺ حتى أنه جاد بقوته وقوت عياله وبنات طاوياً هو وإياهم ثلاثة أيام حتى أنزل الله تعالى في حقهم ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٤)

(١) نهج البلاغة لأبي أبي الحديد ٢٠/١، الفضائل الخمسة من الصحاح الستة ٣١٠/٢.

(٢) الفضائل الخمسة من الصحاح الستة ٣١٠/٢.

(٣) سورة آل عمران الآية (٦١)

(٤) سورة الإنسان: الآية ٨

وتصدق مرة أخرى بجميع ما يملكه وقد كان حيثئذ يملك أربعة دراهم لا غير فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية فانزل الله تعالى في حقه ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾^(١) وقال معاوية في حقه، لو ملك علي عليه السلام بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه^(٢).

• الوجه الثامن:

وكان أزهد الناس بعد النبي فيكون أفضل من غيره، فمثلاً كان أحسن الناس مأكلاً وملبساً ولم يشبع من طعام قط، وقال عليه السلام: «يا صفراء ويا بيضاء غُرِّي غيري»^(٣).

• الوجه التاسع:

وكان أعبد الناس بعد رسول الله ومنه تعلم الناس صلاة الليل واستفادوا منه ترتيب النوافل^(٤)، وكان يحافظ على الناقله حتى أنه بسط له بين الصفيين نطع في ليلة الهرير فصلى عليه الناقله والسهام تقع بين يديه والنصول إلى جوانبه وكانوا يستخرجون النصول من جسده في وقت الصلاة^(٥) لالتفافته بالكلية إلى الله تعالى.

• الوجه العاشر:

وكان أحلم الناس بعد رسول الله ولم يقابل أحداً بإساءة فعفى عن

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ٢٢١/١.

(٣) نهج البلاغة: شرح ابن أبي الحديد ج ٤، الإرشاد للمفيد ص ٢٥٥.

(٤) أعلام الورى ص ٢٥٥، الإرشاد للمفيد ص ٢٥٦.

(٥) أعلام الورى ٢٥٥.

مروان بن الحكم يوم الجمل وكان شديد العدواة لعلي عليه السلام وعفا عن عبد الله بن الزبير لما استأسره يوم الجمل وكان يشتم علياً^(١).

• الوجه الحادي عشر:

وكان أقدمهم إيماناً بعد رسول الله (وروى سلمان الفارسي عن النبي أنه قال أولكم وروداً علي الحوض وأولكم إسلاماً علي بن أبي طالب وقال أنس بعث الله النبي يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء. راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي في تفسير (السابقون السابقون أولئك المقربون) من سورة الواقعة.

• الوجه الثاني عشر:

وكان علي أبلغ الناس في الفصاحة وأعظمهم منزلة بعد رسول الله ﷺ حتى قال البلغاء كافة أن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق ومنه تعلم الناس أصناف البلاغة حتى قال معاوية ما سنّ الفصاحة لقريش غيره^(٢).

• الوجه الثالث عشر:

وكان علي أسدّ الناس رأياً بعد رسول وأجودهم تدبيراً وأعرفهم بمزايا الأمور ومواقعها وهو الذي أشار على عثمان بما فيه صلاحه وصلاح المسلمين فخالفه حتى قتل^(٣).

(١) مغازي الواقدي ٣٠/١.

(٢) أعلام الوري ص ٢٥٦.

(٣) نفس المصدر السابق.

• الوجه الرابع عشر:

وكان علي عليه السلام أكثر الناس حرصاً على إقامة حدود الله تعالى.

لم يراقب في ذلك أحد ولم يلتفت إلى قرابة بل كان شديد السياسة خشناً في ذات الله تعالى فالقريب والبعيد عنده سواء فيكون أفضل من غيره ^(١).

• الوجه الخامس عشر:

وكان علي عليه السلام أحفظ الناس لكتاب الله العزيز بعد رسول الله وهو أول من جمعه، وأن أئمة القراء يستندون في قرائتهم إليه كأبي عمرو بن أبي العلاء وعاصم وغيرهما.

• الوجه السادس عشر:

إن علياً عليه السلام كانت مودته ومحبه واجبة دون غيره فيكون أفضل منهم قطعاً لأنه من أولى القريب فتكون مودته واجبة لقوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وأما محبة الله فقد شهد بها الرسول الأكرم ﷺ في مواضع كثيرة منها: الموقف الذي لا ينكره أحد وهو يوم خيبر إذ قال النبي ﷺ: «لَأَعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» فأعطاهما علياً ^(٢). وروى الخوارزمي في كتابه المناقب

(١) الفضائل الخمسة من الصحاح الستة ٣١٠/٢.

(٢) تاريخ دمشق لأبن عساكر ٢٠٥/١، سنن الترمذي ٥٩٦٥، فرائد السمطين ٢٥٩/١، مسند أحمد ٢٨٤/٢، صحيح مسلم ١٨٧٨/٤، خصائص النسائي ص ٣٤، طبقات ابن سعد ١١٠/٢، مسند أبي داود ص ٣٢٠، تذكرة الخواص لأبن الجوزي ص ٢٤، صحيح البخاري ٢٢/٥، تاريخ الطبري

ص ٦٧، أن النبي ﷺ قال: «يا علي لو أن عبداً عبد الله عز وجل مثل ما قام نوح في قومه، وكان له مثل جبل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله، ومُدَّ في عمره حتى حج ألف حجة على قدميه ثم قُتل بين الصفا والمروة مظلوماً، ثم لم يوالك يا علي، لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها»^(١) وفي كتاب الخوارزمي المذكور أعلاه، قال رسول الله ﷺ: «لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لم يخلق الله النار»^(٢).

• الوجه السابع عشر:

إن علياً اختص بفضيلة النصرة لرسول الله دون غيره من الصحابة فيكون أفضل من الصحابة وبيانه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلْحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد اتفق المفسرون على أن المراد بصالح المؤمنين هو علي عليه السلام^(٣) والمولى هنا هو الناصر لأنه القدر المشترك بين الله تعالى وجبرئيل وجعله ثالثاً لهم وحصر المولى في الثلاثة بلفظة هو في قوله تعالى فإن الله هو مولاه..

(١) لسان الميزان ٢١٩/٥، ميزان الاعتدال ٥٧٩/٣.

(٢) المناقب للخوارزمي ص ٦٨.

(٣) تفسير الأمل ٢٤٤/٣، تفسير الميزان ٣٧٧/٤، تفسير الدر المشهور ج ٢ في تفسير قوله تعالى فإن الله هو مولاه وجبرئيل وصالح المؤمنين.

البحث السادس:

في إمامة باقي الأئمة الاثني عشرية

• السنة في إمامة باقي الأئمة عليهم السلام:

إن النقل المتواتر دل على أنّ الأئمة من أهل البيت هم اثنا عشر إماماً كما دلت الأدلة على وجوب العصمة لهم وانتفانها عن غيرهم ووجود الكمالات فيهم.

وبعد ما أثبتنا أنّ الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو علي بن أبي طالب عليه السلام شرعنا في بيان إمامة باقي الأئمة الأحد عشر وهم الحسن بن علي ثم أخوه الحسين بن علي ثم علي بن الحسين زين العابدين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضا ثم محمد بن علي الجواد ثم علي بن محمد الهادي ثم الحسن بن علي العسكري ثم الإمام المنتظر عليه السلام ^(١) ونستدل على ذلك بوجوه ثلاثة:

• الوجه الأول:

النقل المتواتر من الشيعة خلفاً عن سلف فإنه يدل على إمامة كل واحد من هؤلاء بالتنصيب.

وقد نقل المخالفون ذلك من طرق متعددة تارة على الإجمال وأخرى على التفصيل كما روي عنه عليه السلام متواتراً أنه صلى الله عليه وآله قال للحسين عليه السلام: «هذا ابني إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم» ^(٢) وغيره ذلك من الأخبار.

(١) مجمع الزوائد ١٧٩/٥ / مستند أحمد ١٧٥/٢.

(٢) البداية النهاية ١٦٥/٧.

• الوجه الثاني:

قد بينا أن الإمام يجب أن يكون معصوماً وغير هؤلاء ليسوا بمعصومين اجماعاً فتعينت العصمة لهم والا لزم خلو الزمان من المعصوم وهذا مستحيل حيث في كل زمان لا بد من معصوم يكون عدلاً للقرآن ومبيناً للأحكام هذا ما استفدناه من حديث الثقلين.

• الوجه الثالث:

إن الكمالات النفسانية والبدنية بأجمعها موجودة في كل واحد منهم كما هو كامل في نفسه كذلك هو مكمل لغيره وذلك يدل على استحقاقه الرياسة العامة لأنه أفضل من كل أحد في زمانه ويقبح عقلاً تقديم المفضول على الفاضل.

الأسئلة:

- ١- عرف الإمامة عند السنة والشيعة.
- ٢- أيهما أفضل مصلحة للأمة صيغة التنصيب أو الشورى؟ عزز قولك من العقل والكتاب والسنة والتاريخ، ولماذا؟
- ٣- ما هي مؤهلات الإمامة عند السنة؟
- ٤- ما هي مؤهلات الإمامة عند الشيعة؟
- ٥- بماذا تتعقد الإمامة عند السنة؟ أذكر قول التفتازاني في طرق إنعقادها ثم ناقش هذا القول.
- ٦- ما هي وظائف الإمامة عند الشيعة؟ معززاً إجابتك بالدليل لكل وظيفة.

- ٧- ما هي الاحتمالات الثلاثة لسد الفراغ الحاصل بعد وفاة النبي ﷺ؟
ثم ناقشها.
- ٨- ما هي الإشكالات التي تثار حول الإمامة، وكيف تجيب عنها؟
- ٩- كيف استدل القائلون بكون الشورى أساساً للحكم؟ ناقشها.
- ١٠- كيف استدل القائلون بالشورى بقوله تعالى وشاورهم في الأمر؟
ثم ماذا يلاحظ عليه.
- ١١- لو كان أساس الحكم هو الشورى ماذا يجب على الرسول الأكرم ﷺ؟
- ١٢- كيف يستدل على أن البيعة طاعة وليست مجرد طريق للاختيار؟
- ١٣- كيف كان النبي الأكرم ﷺ يتصور القيادة بعده؟ وما هما
الشاهدان على ذلك؟
- ١٤- ما هو تصور الصحابة للخلافة بعد النبي ﷺ، وما هي الأدلة على
ذلك؟
- ١٥- ما هي النقاط المهمة في صياغة القيادة؟ عددها.
- ١٦- كيف يستدل بالعقل والنقل أن الإمامة بالنص؟
- ١٧- كيف يستدل بالعقل والنقل على عصمة الإمام؟
- ١٨- ما هي الوجوه الثلاثة للاستدلال على إمامة باقي الأنمة؟
- ١٩- قال عكرمة: إن المراد من أهل البيت في آية التطهير نساء النبي
خاصة، ناقشها من حيث المتن وقيمة الرواية.

٢٠- ما هي الشبهات التي ذُكرت حول آية التطهير؟ اشرحها ثم

ناقشها.

٢١- ما هي الشبهات التي ذكرها الرازي بخصوص آية (وأطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر)؟ ناقشها بالتفصيل.

الفصل الثامن عشر

الإمام المنتظر عليه السلام

في العقل والكتاب والسنة

البحث الأول: فكرة المهدي وجذورها في التاريخ

البحث الثاني: المهدي عليه السلام من الفكرة إلى الواقع

البحث الثالث: الإمام المنتظر في العقل والكتاب والسنة

البحث الرابع: تساؤلات حول المهدي عليه السلام

البحث الخامس: ما هي علائم ظهوره؟

البحث الأول:

فكرة المهدي وجنورها في التاريخ:

ليس المهدي تجسيدا لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب بل هو عنوان لطموح اتجهت إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها وصياغة لإلهام فطري أدرك الناس من خلاله أن للإنسانية يوماً موعوداً على الأرض، تُحقق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير وهدفها النهائي، استقرارها وطمأنيتها بعد عناء طويل بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبي والمستقبل المتظر على المؤمنين دينياً بالغييب بل أمتد إلى غيرهم أيضاً وانعكس حتى أشد النظريات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغييب كالمادية الجدلية التي فسرت التاريخ على أساس التناقضات وأمنت بيوم موعود تُصفي فيه كل تلك التناقضات ويسود فيه الوثام والسلام وهكذا نجد أن التجربة النفسية لهذا الشعور التي مارسها الإنسانية على مر الزمن من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين أفراد الإنسان^(١).

وحينما يدعم الدين هذا الشعور النفسي العام ويؤكد أن الأرض في نهاية المطاف ستمتلئ قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً^(٢).

يعطي لذلك الشعور قيمته الموضوعية ويحوّله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية، وهذا الإيمان ليس مجرد للسلوه والعزاء مصدر

(١) بحث حول المهدي للشهيد السيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر صفحة ١٠.

(٢) سنن أبي دؤاد ٢٠٧/٢، التاج للجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف ٣٤٣/٥.

بل مصدر عطاء لأن الإيمان بالمهدي عليه السلام إيمان يرفض الظلم والجور وهو مصدر قوة أيضاً لأنه بصيص نور يقاوم اليأس في نفس الانسان ويحافظ على الأمل المشتعل في صدره مهما أظلمت الدنيا وازداد الظلم لأن اليوم الموعود يثبت أن بإمكان العدل أن يواجه عالماً مليئاً بالظلم والجور وان الظلم مهما امتد في العالم لا بد أن ينهزم.

البحث الثاني:

المهدي من الفكرة إلى الواقع:

وإذا كانت فكرة المهدي أقدم من الاسلام وأوسع منه فإن معالمها التفصيلية التي حددها الإسلام جاءت أكثر إشباعاً لكل الطموحات التي أنشئت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني، وأغنى عطاء وأقوى إثارة لأحاسيس المظلومين والمعذبين على مر التاريخ وذلك لأن السلام حول فكرة المهدي من الغيب إلى الواقع، ومن التطلع إلى متقد فعلاً، فلم يعد المهدي فكرة نتظر ولادتها بل واقعاً قائماً نتظر فاعليته وإنساناً يعيش بيننا بلحمه ودمه ويعيش مع آمالنا وآلامنا، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا، ويشهد كل ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعذبين وظلم الظالمين.

البحث الثالث

الإمام المنتظر في الكتاب والسنة:

إن الاعتقاد بالإمام المنتظر، مهدي هذه الأمة، لما كان أصلاً رصيناً في أبحاث الإمامة للشيعة وكان الاعتقاد به أمراً مشتركاً بين طوائف المسلمين، رجحنا إلقاء الضوء على هذا الأصل على وجه الإجمال في الكتاب والسنة فنقول: كل من كان له إمام بالحديث يقف على تواتر البشارة عن النبي وآله وأصحابه بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم والجور ونشر العدل وإعلاء كلمة الحق وإظهار الدين كله ولو كره المشركون فهو بإذن الله تعالى ينجي العالم من ذل الظلم ومن ذل العبودية لغير الله ويلغي الأخلاق والعادات السيئة ويقطع أواصر التعصبات القومية والعنصرية ويميت أسباب العداوة والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأمة وافتراق الكلمة واشتعال نيران الفتن والمنازعات، ويحقق الله تعالى بظهوره وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله:

١- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١)

٢- ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١).

٣- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢).

ويأتي عصر ذهبي لا يبقى فيه على الأرض بيت إلا دخلته كلمة الإسلام ولا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة (لا إله إلا الله) بكرة وعشياً. وهناك آيات كثيرة ولكن نكتفي بما ذكرناه وإليك بعض الأحاديث المتواترة في الإمام المنتظر عليه السلام:

١- وقد تضافر مضمون قول الرسول الأعظم ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي فيملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(٣).

٢- أخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجلٌ من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي»^(٤).

٣- أخرج أبو داود عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(٥).

(١) سورة القصص الآية (٥).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٥).

(٣) لاحظ مستند أحمد ٩٩/١ وراجع الإلهيات للسبحاني ١٣٤/٢.

(٤) جامع الأصول ٤٨٧١١.

(٥) جامع الأصول ٤٩/١١ والروايات التي تدل على أن المهدي من ولد فاطمة عددها ١٩٢ رواية، راجع

الكتب ومنها الإلهيات للسبحاني ١٣٣/٢.

البحث الرابع

أسئلة حول المهدي المنتظر عليه السلام

ذكروا أسئلة حول حياته وإمامته (عليه السلام)، نذكر أهمها:

١- الإمام المهدي وطول عمره:

إن الناس يتساءلون، إذا كان المهدي يعبر عن إنسان حي عاصر كل هذه الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون وسيظل يعاصر امتداداتها إلى أن يظهر على الساحة فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يعيش هذا العمر الطويل وينجو من قوانين الطبيعة التي تفرض على كل إنسان أن يمر بمرحلة الشيخوخة في وقت سابق على ذلك جداً.

٢- ويتساءلون أيضاً: لماذا كل هذا الحرص من الله سبحانه على هذا الإنسان بالذات؟ فهل عمقت البشرية عن إنتاج القادة الأكفاء؟

٢- ويتساءلون أيضاً: إذا كان المهدي اسماً لشخص محدد هو ابن الإمام الحادي عشر من أئمة أهل البيت الذي ولد سنة ٢٥٦هـ^(١).

وتوفي أبوه سنة ٢٦٠هـ^(٢) فهذا يعني أنه كان طفلاً صغيراً عند موت أبيه لا يتجاوز خمس سنوات وهي لا تكفي للمرور بمرحلة إعداد فكري وديني كامل على يد أبيه فكيف وبأي طريقة يكتمل إعداد هذا الشخص

(١) كمال الدين ٤٣٢.

(٢) أصول الكافي ١/٥١٤.

لممارسة دوره الكبير دينياً وعلمياً وفكرياً؟

٤- ويتساءلون أيضاً: إذا كان القائد جاهزاً فلماذا كل هذا الانتظار الطويل مئات السنين أو ليس في ما شهده العالم من المحن والكوارث الاجتماعية ما يبرر ظهوره على الساحة وإقامة العدل الأرض؟

٥- ويتساءلون أيضاً كيف نستطيع أن نؤمن بوجود المهدي حتى لو افترضنا أن هذا ممكن؟

٦- ويتساءلون أيضاً بالنسبة إلى ما أعد له هذا الفرد من دور في اليوم الموعود وبمعنى آخر هل للفرد كل هذا الدور؟

٧- ويتساءلون أيضاً: ما هي الطريقة التي يمكن أن نتصور من خلالها ما سيتم على يد ذلك الفرد من تحول هائل وانتصار حاسم للعدل ورسالة العدل؟

٧- ويتساءلون أيضاً: كيف يكون إماماً وهو غائب؟

٨- ويتساءلون أيضاً: لماذا غاب المهدي (عجل الله فرجه)؟

٩- ويتساءلون ما هي علائم ظهوره؟

١٠- ويتساءلون ما هي الأمور التمهيدية لظهوره؟

الأجوبة:

عن السؤال الأول:

١- كيف يمكن للإمام المهدي (عليه السلام) هذا العمر الطويل؟

* إمكانية العمر الطويل للإنسان:

ويتساءلون هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قروناً كثيرة كما هو المفترض في هذا القائد المنتظر الذي يبلغ عمره الشريف فعلاً أكثر من ألف ومئة وخمسين سنة؟ وكلمة الإمكان هنا تعني أحد ثلاثة معان: الإمكان العملي والإمكان العلمي والإمكان المنطقي أو الفلسفي. وأقصد بالإمكان العملي: أن يكون الشيء ممكناً على نحو يتاح لي أو لك أو لإنسان آخر فعلاً أن يحققه فالوصول إلى قاع البحر والصعود إلى القمر أصبح لها إمكان عملي ولا يوجد في الإمكان ما يرفض وقوعه.

وأقصد بالإمكان العلمي: أن هناك أشياء قد لا يكون بالإمكان عملياً لي أو لك أن نمارسها فعلاً بوسائل المدنية المعاصرة، ولكن لا يوجد لدى العلم ولا تشير اتجاهاته المتحركة إلى ما يبرر رفض إمكان هذه الأشياء ووقوعها وفقاً لظروف ووسائل خاصة، فصعود الإنسان على كوكب الزهرة لا يوجد في العلم ما يرفض وقوعه وأما يرفض وقوعه هو الصعود إلى قرص الشمس فإنه غير ممكن علمياً. إذ لا يتصور علمياً وتجريبياً إمكانية صنع ذلك الدرع الواقي من الاحتراق بحرارة الشمس.

وأما الإمكان المنطقي أو الفلسفي: أن لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين سابقة على التجربة - ما يبرر رفض الشيء والحكم باستحالته. فوجود ثلاثة برتقالات تنقسم بالتساوي وبدون كسر إلى نصفين

ليس له إمكان منطقي، لأن العقل يدرك أن الثلاثة عدد فردي وليس زوجاً فلا يمكن أن تنقسم بالتساوي لأن انقسامها بالتساوي يعني كونها زوجاً، فتكون فرداً وزوجاً في وقت واحد وهذا تناقض والتناقض مستحيل منطقياً ولكن دخول الإنسان في النار دون أن يحترق ليس مستحيلاً من الناحية المنطقية إذ لا تناقض في افتراض أن الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة وإنما هو مخالف للتجربة التي أثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى أن يتساوي الجسمان في الحرارة فيبدأ بالاحتراق وهكذا يكون الإمكان المنطقي أوسع دائرة من الامكان العلمي وهذا أوسع دائرة من الإمكان العملي. ولا شك في أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً. وأما الإمكان العلمي فلا يوجد عالمياً اليوم ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية ولكنه لا يزال غير ممكن عملياً، إلا أن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الامكان عبر طريق طويل.

وبعد توضيح معنى الامكان المنطقي والعلمي والعملي نعود إلى السؤال هل يمكن في منطق العلم أن يعيش المهدي (عج) هذا العمر الطويل.

والجواب من وجهين نقضاً وحلاً:

أما النقض، فقد دل الذكر الحكيم على أن شيخ الأنبياء نبي الله نوح عليه السلام عاش قرابة ألف سنة، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(١). وقد تضمنت التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الخامس

(١) سورة النكوت: الآية ١٤.

أسماء جماعة كثيرة من المعمرين منهم آدم وشيث ونوح وغيرهم، فأدم عاش ألفين وثلاثمائة وخمسين سنة، فلماذا نقبل آدم ونوحاً الذي ناهز ألف عام على أقل تقدير ولا نقبل المهدي؟

وأما الحل، فإن السؤال عن إمكان طول العمر يعرب عن عدم التعرف على سعة قدرة الله سبحانه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١) فإنه إذا كانت حياته وغيبته وسائر شؤونه، برعاية الله سبحانه فأى مشكلة في أن يمد الله سبحانه في عمره ما شاء ويدفع عنه عوادي المرض ويرزقه عيش الهناء؟

* المعجزة والعمر الطويل:

وقد عرفنا حتى الآن أن العمر الطويل ممكن منطقياً وعلمياً، ولكن لنفترض أنه غير ممكن علمياً، وأن قانون الشيخوخة والهرم قانون صارم لا يمكن للبشرية اليوم ولا على خطها الطويل أن تتغلب عليه، فماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أن إطالة عمر الإنسان كنوح أو كالمهدي - قروناً متعددة هي خلاف القوانين الطبيعية التي أثبتتها العلم بوسائل التجربة والاستقراء الحديثة وبذلك تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانوناً طبيعياً في حالة معينة للحفاظ على حياة الشخص الذي أنيط به الحفاظ على رسالة السماء وليست هذه المعجزة فريدة من نوعها أو غريبة على عقيدة المسلم المستمدة من نص القرآن والسنة فليس قانون الشيخوخة والهرم أشد صرامة من قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة، حتى يتساوى وقد عطل الله تعالى هذا القانون لحماية حياة إبراهيم حين كان الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه تعطيل ذلك القانون فقبل للنار

(١) سورة الانعام: الآية ٩١

حين ألقى فيها إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

فخرج منها كما دخل سليماً لم يصبه أذى إلى كثير من القوانين الطبيعية التي عطلت لحماية أشخاص من الأنبياء وحجج الله على الأرض، ففلق البحر لموسى^(٢)، وشبهه للرومان أنهم قبضوا على عيسى ولم يكونوا قد قبضوا عليه.

وخرج النبي محمد ﷺ من داره وهي محفوفة بحشود قريش التي ظلت ساعات تترصد به لتهاجم عليه، فستره الله تعالى عن عيونهم وهو يمشي بينهم^(٣) كل هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عطلت لحماية شخص كانت الحكمة الربانية تقتضي الحفاظ على حياته، فليكن قانون الشيخوخة والهزم من تلك القوانين المعطلة من قبله تعالى لأجل الحفاظ على حياة الإمام المهدي عليه السلام. وقد يمكن أن نخرج من ذلك بمفهوم عام. وهو أنه كلما توقف الحفاظ على حياة حجة الله في الأرض على تعطيل قانون طبيعي. وكانت إدامة حياة ذلك الشخص ضرورة لإنجاز مهمته التي أعد لها تدخلت العناية الربانية في تعطيل ذلك القانون لإنجاز ذلك.

وعلى العكس إذا كان الشخص قد انتهت مهمته التي أعد لها ربانياً، فإنه سيلقى حتفه ويموت أو يستشهد وفقاً لما تقرره القوانين الطبيعية.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

(٢) قال تعالى ﴿فَأَوْحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾

الشعراء: الآية (٣٣)

وقال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ النساء: ١٥٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١٢٧/٢.

الجواب عن السؤال الثاني

* لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره؟

ونتناول الآن السؤال الثاني وهو يقول: لماذا كل هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات فتعطل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟

ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل وتنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على الساحة ويمارس دوره المتظر؟

وبكلمة أخرى: ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة؟ وما المبرر لها؟

الجواب: يمكننا أن نعتبر هذا العمر الطويل لقائدها المدخر عاملاً من عوامل إنجاحها وتمكنه من ممارستها وقيادتها بدرجة أكبر وذلك لعدة أسباب منها ما يلي:

أولاً: العمر الطويل ودوره في إنجاح القائد:

إن عملية التغيير الكبرى تتطلب وضعاً نفسياً فريداً في القائد الممارس لها، مشحوناً بالشعور بالتفوق والإحساس بضالة الكيانات التي أُعد للبقاء عليها وتحويلها حضارياً إلى عالم جديد، ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم ملئ بالظلم وبالجور تغييراً شاملاً بكل قيمه الحضارية وكياناته المتنوعة، فمن الطبيعي أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر في شعوره النفسي من ذلك العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلك العالم، فالشخص الذي عاش الدنيا ورأى الحضارات الكبيرة التي سادت العالم الواحدة تلو الأخرى ثم تداعت وانهارت، رأى ذلك بعينه ولم يقرأه في

كتاب تاريخ. ثم رأى الحضارة التي يقدر لها أن تكون الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود، وأما وهي بذور صغيرة وقد بدأت تنمو وتزحف وتصاب بالنكسة تارة ويحالفها التوفيق تارة أخرى ثم واكبها وهي تزدهر وتسيطر بالتدريج على مقدرات عالم بكامله^(١)، فإن شخصاً من هذا القبيل عاش كل هذه المراحل بفطنه وانتباه أفضل من إنسان يولد جديد ليس له اطلاع وخبره بمعنى كلما تطول خبرته يكون أفضل من إنسان جديد.

ثانياً: الإعداد الفكري والقيادي لليوم الموعود:

أضف إلى ذلك أن التجربة التي تُتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوراتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود.

لأنها تضع الشخص المذخر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكل ما فيها من نقاط الضعف والقوة ومن ألوان الخطأ والصواب وتعطي لهذا الشخص قدرة أكبر على تقويم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها وكل ملابساتها التاريخية.

فلكي يُضمن عدم تأثر القائد المذخر بالحضارة التي أعد لاستبدالها لا بد أن تكون شخصيته قد بُنيت بناء كاملاً في مرحلة حضارية سابقة هي أقرب ما تكون في الروح العامة ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته.

(١) بحث حول المهدي للعلامة الشهيد السيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر رحمه الله ص ٣٢.

٣- كيف أكتمل إعداد القائم المنتظر (عجل الله فرجه)؟

ونأتي الآن إلى السؤال الثالث القائل: كيف أكتمل إعداد القائد المنتظر مع أنه لم يعاصر أباه الإمام العسكري إلا خمس سنوات تقريباً؟ وهي فترة الطفولة التي لا تكفي لإنضاج شخصية القائد فما هي الظروف التي تكامل من خلالها؟

• ظاهرة الإمامة المبكرة في حياة أهل البيت

والجواب: أن المهدي عليه السلام خلف أباه في إمامة المسلمين وهذا يعني أنه كان إماماً بكل ما في الإمامة من محتوى فكري وروحي في وقت مبكر جداً من حياته الشريفة.

والإمامة المبكرة ظاهرة سبقه إليها عدد من آبائه عليهم السلام فالإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام تولى الإمامة وهو في الثامنة من عمره والإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام تولى الإمامة وهو في التاسعة من عمره.

والإمام أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام تولى الإمامة وهو في الثانية والعشرين من عمره ^(١).

إن ظاهرة الإمامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية ولم تكن وهمياً من الأوهام لأن الإمام الذي يبرز على المسرح وهو صغير فيعلن عن نفسه إماماً روحياً وفكرياً للمسلمين ويدين له بالولاء والإمام في كل ذلك التيار الواسع، لا بد أن يكون على قدر واضح وملحوظ بل وكبير من العلم والمعرفة وسعة الافق والتمكن من الفقه والتفسير والعقائد لأنه لو لم يكن كذلك لما أمكن أن تقتنع تلك القواعد الشعبية بإمامته، فهل ترى أن صبياً

(١) راجع التتمة في تواريخ الأئمة ص ٩٨ و صفحة ١٠٢ و صفحة ١٠٦.

يدعوا إلى إمامة نفسه وينصب منها علماً للإسلام وهو على مرأى ومسمع من جماهير شعبية، فتؤمن به وتبذل في سبيل ذلك الغالي من أمنها وحياتها بدون أن تكلف نفسها اكتشاف حاله وبدون أن تهزها ظاهرة هذه الإمامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف وتقويم هذا الصبي الإمام؟ وهب أن الناس لم يتحركوا لاستطلاع المواقف، فهل يمكن أن تمر المسألة أياماً وشهوراً بل أعواماً دون أن تتكشف الحقيقة على الرغم من التفاعل الطبيعي المستمر بين الصبي الإمام وسائر الناس؟

وهل من المعقول أن يكون صبيّاً في فكره وعلمه حقاً ثم لا يبدو ذلك من خلال هذا التفاعل الطويل؟

وإذا افترضنا أن الجماهير الشعبية لإمامة أهل البيت لم يُتَح لها أن تكتشف واقع الأمر فلماذا سكت الخلافة القائمة ولم تعمل لكشف الحقيقة إذا كانت في صالحها؟ وما كان أيسر ذلك على السلطة القائمة لو كان الإمام الصبي صبيّاً في فكره وثقافته كما هو المعهود في الصبيان، وما كان أنجحه من أسلوب أن تقدم هذا الصبي إلى شيعته وغير شيعته على حقيقته، وتبرهن على عدم كفاءته للإمامة والزعامة الروحية والفكرية، فلئن كان من الصعب الإقناع بعدم كفاءة شخص في الأربعين أو الخمسين قد أحاط بقدر كبير من ثقافة عصره لتسلم الإمامة فليس هناك صعوبة في الإقناع بعدم كفاءة صبي اعتيادي مهما كان ذكياً وفطناً للإمامة بمعناها الذي يعرفه الشيعة وكان هذا أسهل وأيسر للقضاء عليه وعلى شيعته من الطرق المعقدة وأساليب القمع والمجازفة التي انتهجتها السلطات وقتئذٍ.

إن التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة عن اللعب بهذه الورقة هو أنها أدركت أن الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقته وليست شيئاً مصطنعاً. هذا

بالإضافة إلى أن التاريخ لم يحدثنا إطلاقاً عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة أو واجه فيه الصبي الإمام إخراجاً يفوق قدرته أو يززع ثقة الناس فيه وهذا معنى ما قلناه من أن الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية في حياة أهل البيت عليهم السلام وليست مجرد افتراض.

• الإمامة المبكرة في رسالات السماء:

كما أن هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها وحالاتها المماثلة في تراث السماء الذي امتد عبر الرسالات والزعامات الربانية ويكفي مثلاً لظاهرة الإمامة المبكرة في التراث الرباني لأهل البيت عليهم السلام يحيى عليه السلام إذ قال الله تعالى: ﴿يَنْبَغِي حِذِّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(١) ومتى ثبت أن الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية ومتواجدة فعلاً في حياة أهل البيت لم يُعد هناك اعتراض فيما يخص إمامة المهدي عليه السلام وخلافته لأبيه وهو صغير.

• كيف نؤمن بأن المهدي قد وُجد؟

٤- ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول:

هب أن فرضية القائد المتظر ممكنة بكل ما تستبطنه من عمر طويل وإمامة مبكرة وغيبية صامته فإن الإمكان لا يكفي للاقتناع بوجوده فعلاً فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي؟ وهل تكفي بضع روايات تُنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله للاقتناع الكامل بالإمام الثاني عشر على الرغم مما في هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المألوف؟ بل كيف يمكن أن نثبت أن للمهدي وجوداً تاريخياً حقاً وليس مجرد افتراض؟

(١) سورة مريم: الآية ١٢.

تصاهر الروايات على فكرة الإمام المهدي (عليه السلام):

والجواب: أن فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت في أحاديث الرسول الأعظم عموماً وفي روايات أئمة أهل البيت خصوصاً، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك، وقد أحصي أربعمئة حديث عن النبي من طريق إخواننا أهل السنة^(١) كما أحصي مجموع الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طرق الشيعة والسنة فكان أكثر من ستة آلاف رواية^(٢) وهذا رقم إحصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير من قضايا الإسلام البديهة التي لا يشك فيها مسلم عادةً.

الدليل على تجسيد الفكرة في الإمام الثاني عشر (عليه السلام):

وأما تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر^(عليه السلام) فهذا ما توجد مبررات كافية وواضحة للاقتناع به.

ويمكن تلخيص هذه المبررات في دليلين:

أحدهما إسلامي والآخر علمي.

فبالدليل الإسلامي ثبت وجود القائد المنتظر وبالدليل العلمي نبرهن على أن المهدي ليس مجرد أسطورة وافتراض، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية.

أما الدليل الإسلامي:

فيمثل في مئات الروايات الواردة عن الرسول الأكرم والأئمة من أهل

(١) للمهدي للسيد صدر الدين الصدر ص ١٥٤.

(٢) منتخب الأثر: ص ٥٨ - ٢٠٧.

البيت والتي تدل على تعيين المهدي وكونه من أهل البيت ومن ولد فاطمة ومن ذرية الحسين وأنه التاسع من ولد الحسين وأن الخلفاء اثنا عشر^(١).

وهذه الروايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار وليست الكثرة العددية للروايات هي الأساس الوحيد لقبولها بل هناك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها فالحديث النبوي الشريف على الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفة أو أميراً على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة - قد أحصى بعض المؤلفين رواياته: فبلغت أكثر من مائتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنة بما في ذلك البخاري^(٢) ومسلم^(٣) والترمذي^(٤) وأبي داود^(٥) ومسنده أحمد^(٦) ومستدرك الحاكم على الصحيحين^(٧) ويلاحظ هنا: أن البخاري الذي نقل الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري، وفي ذلك مغزى كبير: لأنه يبرهن على أن هذا الحديث قد تسجل عن النبي الأكرم قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الأئمة الاثني عشر فعلاً وهذا يعني أنه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاساً له. لأن الأحاديث المزيفة التي تنسب إلى النبي الأكرم وهي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق في

(١) منتخب الأثر: ص ٢٠٤-٢٠٧.

(٢) صحيح البخاري ٧٥/٤.

(٣) صحيح مسلم ١٩١/٢.

(٤) صحيح الترمذي ٤٥١/٢.

(٥) سنن أبي داود ٢٠٧/٢.

(٦) مسند أحمد ١٠٦٧٥.

(٧) مستدرك الحاكم ٦١٨/٣.

ظهورها وتسجيلها في كتب فما دمننا قد ملكنا الدليل المادي على أن الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخ للأئمة الاثني عشر، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري أمكننا أن نتأكد من أن هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى فقال عليه السلام: «إن الخلفاء بعدي اثنا عشر»^(١) وجاء الواقع الإمامي الاثني عشري ابتداء من الإمام علي وانتهاءً بالمهدي ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف.

وأما الدليل العملي: فهو يتكون من تجربة عاشتها أمة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً وهي فترة الغيبة الصغرى فهل تتصور بربك أن بإمكان أكذوبة أن تعيش سبعين عاماً ويمارسها أربعة نواب على سبيل الترتيب هم:

- ١- عثمان بن سعيد العمري (توفي سنة ٢٨٧ هـ).
- ٢- محمد بن عثمان بن سعيد العمري (توفي سنة ٣٠٥ هـ).
- ٣- أبو القاسم الحسين بن روح (توفي سنة ٣٢٦ هـ).
- ٤- أبو الحسن علي بن محمد السمري، توفي سنة ٣٢٩ هـ - أجمعت الشيعة على تقواهم، ويظنون يتعاملون على أساسها وكأنها قضية يعيشونها بأنفسهم ويرونها بأعينهم دون أن يصدر منهم أي شيء يثير الشك، ودون أن يكون بين الأربعة علاقة خاصة متميزة تُتيح لهم نحواً من التواطؤ ويكسبون من خلال ما يتصف به سلوكهم من واقعية ثقة الجميع وإيمانهم بواقعية القضية التي يدعون أنهم يحسّونها ويعيشون معها؟

وهكذا نعرف أن ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لاثبات ما لها من واقع موضوعي والتسليم بالإمام القائد بولادته وحياته وغيته وإعلانه عن الغيبة الكبرى.

لماذا لم يظهر القائد (عليه السلام) إذن؟

٥- ونصل إلى السؤال الخامس وهو يقول:

لماذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه الفترة؟

وإذا كان قد أعد نفسه للعمل الاجتماعي فما الذي منعه عن الظهور على المسرح في فترة الغيبة الصغرى أو في أعقابها بدلاً عن تحويلها إلى غيبة كبرى؟

• الظروف الموضوعية وأثرها في التغيير الاجتماعي:

والجواب: أن كل عملية تغيير اجتماعي يرتبط نجاحها بشروط وظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلا عندما تتوفر تلك الشروط والظروف. وتتميز عمليات التغيير الاجتماعي التي تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط في جانبها الرسالي بالظروف الموضوعية، لأن الرسالة التي تعتمدها عملية التغيير هنا ريبانية ومن صنع السماء، لا من صنع الظروف الموضوعية ولكنها في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلك الظروف. ومن أجل ذلك انتظرت السماء خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يد النبي محمد ﷺ لأن الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلك فمثلاً بالنسبة إلى عملية التغيير التي قادها (لينين) في روسيا بنجاح كانت ترتبط بعامل

من قبيل قيام الحرب العالمية الأولى وتضعف القيصرية وهذا ما يساهم في إيجاد المناخ المناسب لعملية التغيير وقد جرت سنة الله تعالى التي لا تجد لها تحويلاً - في عمليات التغيير الرباني على التقيد من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التي تحقق المناخ المناسب والجو العام لإنجاح عملية التغيير، ومن هنا لم يأت الإسلام إلا بعد فترة من الرسل وفراغ طويل استمر قروناً من الزمن.

فعلى الرغم من قدرة الله سبحانه وتعالى على تذليل كل العقبات والصعاب في وجه الرسالة الربانية وخلق المناخ المناسب لها سلفاً بالإعجاز لم يشأ أن يستعمل هذا الأسلوب، لأن الامتحان والمعاناة التي من خلالها يتكامل الإنسان يفرض على العمل التغيير الرباني أن يكون طبيعياً وموضوعياً من هذه الناحية، وهذا لا يمنع من تدخل الله سبحانه أحياناً فيما يخص بعض التفاصيل التي لا تكون المناخ المناسب وإنما قد يتطلب أحياناً التحرك ضمن ذلك المناخ المناسب وإمداداته وعناياته الغيبية التي يمنحها الله تعالى لأولياته في لحظات حرجه فيحمي بها الرسالة، وإذا بنار نمرود تصبح برداً وسلاماً على إبراهيم^(١) وإذا بيد اليهودي الغادر التي ارتفعت بالسيف على رأس النبي الأكرم تثل وتفقده قدرتها على الحركة^(٢)، وإذا بعاصفة قوية تجتاح مخيمات الكفار والمشركين الذين أحرقوا بالمدينة في يوم الخندق وتبعث في نفوسهم الرعب^(٣).

(١) انظر قوله تعالى (فلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) سورة الأنبياء آية (٦٩).

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣/٢، البحار للمجلسي ٤٧/١٨ - ٧٥ باب معجزات النبي ﷺ.

(٣) تاريخ الطبري ٢٤٤/٢، حوادث السنة الخامسة من الهجرة.

• موقف الإمام المهدي (عجل الله فرجه) من الظروف الموضوعية:

وعلى هذا الضوء ندرس موقف الإمام المهدي لنجد أن عملية التغيير التي أُعد لها ترتبط من الناحية التنفيذية بظروف موضوعية تساهم في توفير المناخ الملائم لها، ومن هنا كان من الطبيعي أن تحدد وفقاً لذلك، ومن المعلوم أن المهدي لم يكن قد أعد نفسه لعمل اجتماعي محدود ولا لعملية تغيير تقتصر على هذا الجزء من العالم أو ذلك، لأن رسالته تغيير العالم تغيير شاملاً، وإخراج البشرية من ظلمات الجور إلى نور العدل، وعملية التغيير الكبرى هذه لا يكفي في ممارستها مجرد وصول الرسالة والقائد الصالح وإلا لمتت شروطها في عصر النبوة بالذات، وإنما تتطلب مناخاً عالمياً مناسباً يحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالمية. فمن الناحية البشرية يعتبر شعور إنسان الحضارة بالنفاد عاملاً أساسياً في خلق ذلك المناخ المناسب لتقبل رسالة العدل الجديدة، وهذا الشعور بالنفاد يتكون ويترسخ من خلال التجارب الحضارية المتنوعة التي يخرج منها إنسان الحضارة مثقلاً بسلبيات ما بنى مدركاً حاجته إلى العون بتركها، متلفتاً بفطرته إلى الغيب ومن الناحية المادية يمكن أن تكون شروط الحياة المادية الحديثة أقدر من شروط الحياة القديمة في عصر كعصر الغيبة الصغرى على إنجاز الرسالة على صعيد العالم كله، وذلك بما تحققه من تقريب المسافات، والقدرة الكبيرة على التفاعل بين الشعوب، وتوفير الأدوات والوسائل التي يحتاجها جهاز مركزي لممارسة توعية لشعوب العالم وتثقيفها على أساس الرسالة الجديدة. فنتيجة عدم ظهور القائد مستلزم ملائمة الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير الكبرى من الناحية البشرية والمادية، إذن تتعلق بالظروف الاجتماعية ومناسبتها للتغيير والظهور.

• هل للفرد كل هذا الدور؟

٦- ونصل إلى السؤال السادس وهو السؤال الذي يقول هل للفرد مهما كان عظيماً القدرة على إنجاز هذا الدور العظيم؟ وهل الفرد العظيم إلا ذلك الإنسان الذي ترشحه الظروف ليكون واجهة لها في تحقيق حركتها؟ والفكرة في هذا السؤال ترتبط بوجهة نظر معينة للتأريخ تفسره على أساس أن الإنسان عامل ثانوي فيه، والقوى الموضوعية المحيطة به هي العامل الأساسي، وفي إطار ذلك لن يكون الفرد في أفضل الأحوال إلا التعبير الذكي عن اتجاه هذا العامل الأساسي.

إن التأريخ يحتوي على قطبين^(١):

أحدهما الإنسان والآخر القوى المادية المحيطة به، وكما تؤثر القوى المادية وظروف الانتاج في الإنسان، يؤثر الإنسان فيما حوله من قوى وظروف، فالإنسان والمادة يتفاعلان على مر الزمن، وفي هذه الاطار بإمكان الفرد أن يكون أكبر من القوى المادية في تيار التأريخ وبخاصة حين ندخل الحساب عامل الصلة بين هذا الفرد والسماء، فإن هذا الصلة تدخل حينئذ كقوة موجهة لحركة التأريخ وهذا ما تحقق في تأريخ النبوات وبوجه خاص في تأريخ نبوة خاتم الأنبياء، فإن النبي محمداً ﷺ بحكم صلته الرسالية بالسماء تسلم بنفسه زمام الحركة التأريخية. وأنشأ مبدءاً حضارياً لم يكن بإمكان الظروف الموضوعية التي كانت تحيط به أن تتمنخض عنه. بحال من الأحوال، وما أمكن أن يقع على يد الرسول الأعظم يمكن أن يقع على يد القائد المنتظر الذي بشر به وعن دوره العظيم.

(١) بحث حول المهدي (عج) للعلامة الشهيد محمد باقر الصدر صفحة ٤٣.

٧- طريقة التغيير في اليوم الموعود؟

ونصل إلى السؤال السابع وهو ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟

وبعبارة أخرى ما هي الطريقة التي يمكن أن نتصور من خلالها ما سيتم على يد ذلك الفرد من انتصار حاسم للعدل وقضاء على كيانات الظلم والجور.

والجواب: يرتبط بمعرفة الوقت والمرحلة التي يُقدَّر للإمام المهدي (عجل الله فرجه) أن يظهر فيها على المسرح وإمكان افتراض ما تتميز به تلك المرحلة من خصائص وملابسات وما دمنا نجعل المرحلة ولا نعرف شيئاً عن ملابساتها وظروفها فلا يمكن التنبؤ العلمي بما سيقع في اليوم الموعود. وهناك افتراض أساسي واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث التي تحدثت عنه والتجارب التي لوحظت لعمليات التغيير الكبرى في التاريخ وهو افتراض ظهور المهدي (عجل الله فرجه) في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة، وذلك الفراغ يُتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتد وهذه النكسة تهيب الجوانب النفسي لقبولها.

وليست هذه النكسة مجرد حادثة تقع صدفة في تأريخ الحضارة الإنسانية، وإنما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله تعالى التي لا تجد لها في نهاية المطاف حلاً حاسماً، فتشتعل النار التي لا تبقى ولا تذر، ويبرز النور في تلك اللحظة ليطفئ النار ويقيم على الأرض عدل السماء.

٨- ونصل إلى السؤال الثامن وهو:

السؤال الثامن: لماذا غاب المهدي (عج)؟

إن ظهور الإمام بين الناس، يترتب عليه من الفائدة ما لا يترتب عليه في زمان الغيبة فلماذا غاب عن الناس، حتى حرموا من الاستفادة من وجوده، وما هي المصلحة التي أخفته عن أعين الناس؟
الجواب: إن هذا السؤال يجاب عليه بالنقض والحل.

أما النقص: فإن قصور عقولنا عن إدراك أسباب غيبته، لا يجزنا إلى إنكار المتصافرات من الروايات، فالاعتراف بقصور إفهامنا أولى من رد الروايات المتواترة بل هو المتعين.

وأما الحل: فإن أسباب غيبته واضحة لمن أمعن النظر فيما ورد حولها من الروايات، فإن الإمام المهدي (عج) هو آخر الأئمة الاثني عشر الذين وعد بهم الرسول وجعل عزة الإسلام بهم، ومن المعلوم أن الحكومات الاسلامية لم تقدّرهم بل كانت لهم بالمرصاد، تلقّهم في السجون وتريق دماءهم الطاهرة بالسيف والسم، فلو كان ظاهراً لأقدموا على قتله، فلأجل ذلك اقتضت المصلحة أن يكون مستوراً عن أعين الناس، يراهم ويرونه ولكن لا يعرفونه إلى أن تقتضي إرادة الله تعالى ظهوره بعد حصول استعداد خاص في العالم لقبوله والانضواء تحت لواء طاعته حتى يحقق الله تعالى به ما وعد به الامم جمعاء من توريث الأرض للمستضعفين وقد ورد في بعض الروايات إشارة إلى هذه النكته، روى زرارة قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول:

إن للقائم غيبة قبل أن يقوم، قال: قلت ولم؟ قال: يخاف قال زرارة: يعني القتل وفي رواية أخرى يخاف على نفسه الذبح (انظر كمال الدين صفحة ٢٨١، الباب ٤٤) وليست غيبة الإمام المهدي (عج) بدعاً في تاريخ

الأولياء فهذا موسى بن عمران قد غاب عن قومه أربعين عاماً وكان نبياً وهذا يونس قد غاب عن قومه في الظلمات فغيبة الإمام لها فوائد بقوله (عليه السلام) إلى بعض نوابه: «وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي فالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأبصار السحاب»^(١).

٩- ونصل إلى السؤال التاسع وهو:

* ما هي علائم ظهوره؟

إذا كان للإمام الغائب ظهوراً بعد غيبة طويلة، فلا بد من أن يكون لظهوره علائم وشروط، تخبر عن ظهوره فما هي هذه العلائم؟

الجواب: إن ما جاء في كتب الأحاديث من الحوادث والفتن الواقعة في آخر الزمان على قسمين^(٢):

قسم هو من أشراط الساعة وعلامات دنو القيامة وقسم آخر ما يقع قبل ظهور المهدي المنتظر وهو عبارة عن أمور عدة منها:

١- النداء في السماء.

٢- الخسوف والكسوف في غير مواقعهما.

٣- الشقاق والنفاق في المجتمع.

٤- ذبوع الجور وشيوع الظلم والهرج والمرج في الأمة.

٥- ابتلاء الإنسان بالموت الأحمر والأبيض (بمعنى بالقتل والمرض).

(١) كمال الدين للصدوق صفحة ٤٨٥.

(٢) الغيبة للشيخ الطوسي، والفتية للسيد محمد الصدر ٢٠٤/١، والإلهيات للشيخ السجاني ج ٣ صفحة

٦- قتل النفس الزكية.

٧- خروج الدجال.

٨- خروج السفيناني.

وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الإسلامية^(١).

ما هي الأمور التمهيدية لظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه)؟

١٠- ونصل إلى السؤال العاشر وهو ما هي الأمور التمهيدية لظهوره

والتي تسهل تحقيق أهدافه؟

الجواب: نشير باختصار إلى أبرز هذه الأمور التمهيدية لظهوره والتي

تسهل تحقيق أهداف الإمام المنتظر

(راجع الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل للشيخ حسن

العالمي، تقريرات آية الله السبحاني ص ١٥٢)

أبرز وأهم هذه الأمور التمهيدية:-

١- الاستعداد العالمي: والمراد منه أن المجتمع الإنساني - بسبب

شروع الفساد - يصل إلى حد يقنط معه من تحقق الإصلاح بيد البشر،

وعن طريق المنظمات العالمية التي تحمل عناوين مختلفة، وأن ضغط

الظلم والجور على الإنسان يحمله على أن يذعن ويقر بأن الإصلاح لا

يتحقق إلا بظهور إعجاز إلهي وحضور قوة غيبية، تدمر كل تلك

المجتمعات البشرية الفاسدة.

(١) راجع كتاب المهدي للسيد صدر الدين الصدر، ومنتخب الأثر صفحة ٤٢٤ - ٤٦٢ وبحار الأنوار ج ٥٢

٢- تكامل العقول: إن الحكومة العالمية للإمام المهدي (عج) لا تحقق بالحروب والنيران والتدمير الشامل للأعداء، وإنما تحقق برغبة الناس إليها وتأييدهم لها، وهذا التأييد لهذه العملية والتغييرية الكبرى غلا بعد تكامل عقول أغلب الناس ومعرفتهم.

ويؤيد ذلك ما ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر (عج)، فيقول الإمام الباقر في حديث له يرشد فيه إلى أنه إذا كان ذلك الظرف، تجتمع عقول البشر وتكتمل أحلامهم: «إذا قام قائمنا، وضع الله يده على رؤوس العباد فيجمع بها عقولهم، تكتمل به أحلامهم»^(١).

فقوله (عج): يجمع بها عقولهم بمعنى أن التكامل الاجتماعي يبلغ بالبشر إلى الحد الذي يقبل فيه تلك الموهبة الإلهية، ولن يترصد للشورة على الإمام والانقلاب عليه.

٣- تكامل الصناعات: إن الحكومة العالمية الموحدة لا تتحقق إلا بتكامل الصناعات البشرية، بحيث يسمع العالم كله صوته ونداءه وتعاليمه وقوانينه في يوم واحد وزمن واحد.

قال الإمام الصادق (عج): «إن المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق، يرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق»^(٢).

٤- الجيش الثوري العالمي: إن حكومة المهدي (عج)، وإن كانت قائمة على تكامل العقول، ولكن الحكومة التي بقيادته لا تستغني عن جيش

(١) منتخب الأثر ص ٤٨٣.

(٢) منتخب الأثر ص ٤٨٣.

فدائي نائر وفعال، يُمهّد الطريق للإمام (عليه السلام)، ويواكبه بعد الظهور إلى تحقيق أهدافه وغاياته المتوخاة.

إلى هنا تم البحث عن الإمامة والإمام المهدي (عليه السلام) بالصورة التي تلائم العصر وكان التركيز فيه على أهم الموضوعات، وتركنا البحث عن غيرها إلى الكتب المُعدّة لها^(١).

(١) راجع كتاب النية للسيد محمد صادق الصدر.

الفصل التاسع عشر

إيمان أبي طالب سلام الله عليه

وفيه بحوث

البحث الأول:

الاستدلال على إيمانه ويمكن أن نستدل على إيمانه بأمور:

الدليل الأول: شعره الدال على إيمانه.

الدليل الثاني: سيرته وإخلاصه للرسول والرسالة.

الدليل الثالث: وصيته عند موته.

الدليل الرابع: ترحم النبي الأكرم عليه واستغفاره له.

الدليل الخامس: دعاء النبي الأكرم وشفاعته لأبي طالب عليه السلام.

الدليل السادس: حزن النبي الأكرم على أبي طالب.

الدليل السابع: عدم التفريق بين أبي طالب وزوجته.

الدليل الثامن: شهادة أئمة أهل البيت عليهم السلام له بالإيمان.

الفصل التاسع عشر

إيمان أبي طالب

• اسمه ومولده:

هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.. أمه فاطمة بنت عمرو وهي أم عبد الله والد الرسول ﷺ، ولد أبو طالب في مكة المكرمة في بيت ترفت فيه أنفاس الفضائل وكان ذلك قبل ولادة النبي ﷺ^(١).

• أخلاقه ولقبه:

كان سخيّاً حليماً عفيفاً شجاعاً وفياً حكيماً، كان بعد أبيه عبد المطلب ناصراً وكافلاً للنبي ﷺ.

كان يلقب بشيخ الأبطح ورئيس مكة وشيخ قريش وسيدها وشاعرها ويكنى بأبي طالب وهو أول من سنّ القسامة فأثبتها الإسلام^(٢).

• سيرته:

كان أبو طالب من أبطال بني هاشم الخطباء العقلاء الأباة^(٣) وكان أديباً وشاعراً.

(١) سيرة ابن هاشم الجزء الأول، صفحة ١٧٣ والمستدرك على الصحيحين ١٠٥/٣.

(٢) راجع سنن النسائي الجزء الثامن من شرح السيوطي كتاب القسامة.

(٣) راجع كتاب الاعلام للزر كلّي الجزء الرابع.

* زوجته:

هي فاطمة بنت أسد بن هاشم تجتمع في سلسلة النسب مع أبي طالب في هاشم، أسلمت فاطمة بنت أسد وهاجرت إلى المدينة المنورة وهي أول من هاجرت من مكة إلى المدينة ماشية^(١)، فكانت هي من السابقات إلى الإسلام، توفيت في السنة الرابعة للهجرة في المدينة المنورة فكفنها رسول الله ﷺ بميصره واضطجع في قبرها وقال: «اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجبها ووسع عليها مدخلها»^(٢).

* وفاته:

كانت وفاة أبي طالب في مكة المكرمة في السنة العاشرة للبعثة في النصف من شوال وكان له يوم مات بضع وثمانون سنة^(٣).

(١) تذكرة الخواص ص ١٣ ومقاتل الطالبين لأبي فرج الاصفهاني ص ٢٧.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ١٠٨٣.

(٣) الإصابة لابن حجر المسقلاني ص ٩٢ والاستيعاب لابن عبد البر ص ٣٥.

البحث الأول

(الاستدلال على إيمان أبي طالب)

• إيمان أبي طالب:

بعد أن عجزوا عن الواقعة في مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام فوجهوها إلى والده سيد الأبطح شيخ الأئمة أبي طالب عليه السلام ونسبوا إليه الكفر. وإليكم الأدلة التالية التي تثبت إيمان أبي طالب وإخلاصه للرسول والرسالة:

• الدليل الأول: شعره الدال على إيمانه:

إن مما يدل ويؤكد إيمان أبي طالب سيد الأباطح أشعاره التي ملأت الخافقين، والتي هي أكبر دليل على إيمانه وتوحيده. منها قوله سلام الله عليه:

حتى أوسد في التراب دفينا^(١) والله لن يصلوا إليك بجمعهم
وابشروا قرأ بذاك منك عيوننا فأصدع بما أمرك ما عليك غضاضة
ولقد نصحت وكنت قبل أمينا ودعوتني وذكرت أنك ناصحي
من خير أديان البرية دينا وذكرت ديناً قد علمت بأنه

وقوله عليه السلام:

(١) روى البخاري ومسلم ٢٥٢/١ عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة. ومن خلال أشعار وسيرة أبي طالب نعلم أنه كان يعلم أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأئده ربُّ العباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطل^(١)
 وقوله ﷺ أيضاً: الذي يعلن فيه إيمانه نبوة محمد ﷺ بكل صراحة:
 ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطّ في أول الكتب
 وقوله ﷺ:

ليعلم خيارُ الناس أن محمداً وزيرٌ لموسى والمسيح بن مريم
 وأشعاره كثيرة تشهد له الإيمان الراسخ واليقين الواضح فللكل
 ما جاء به مليءٌ بالإشراق والبيان. وهذه جملة من شعر أبي طالب الطافح
 من كل شطره الإيمان الخالص والإسلام الصحيح. (أنظر ديوان أبي
 طالب ﷺ)

ومما يستدل على إيمانه قوله ﷺ:

أنا يهدي مثل ما أتيا به فكلّ بأمر الله يهدي ويعصم
 وله قصيدة دالية ومنها قوله:

إذا قال قولاً لا يعاد لقوله كوحى كتاب في صفيح يُخلدُ
 نبي الإله والكريم بأصله وأخلاقه وهو الرشيد المؤيد^(٢)
 ومن شعره أيضاً دفاعه عن النبي ﷺ بقوله:

زعمتم بأنا مسلمون محمداً ولما نقاذف دونه ونزاحم^(٣)

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٦٨٠/٢ وسيرة ابن هشام ٣٧٧/١ وأسنى المطالب ص ٦ و١٣.

(٢) راجع ديوان أبي طالب صفحة ٨٤-٨٥ هذه أشعاره أيضاً مثبتة في السير والتاريخ وكتب الحديث
 ومنها سيره ابن هشام ٣٥٢/١ والبداية والنهاية ١٤٤/٣ وغيرهما.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ابن الحديد ٣١٧/٣.

• الدليل الثاني: سيرته وإخلاصه للرسول والرسالة

من سيرة شيخ الأبطح وكفالتة لصاحب الرسالة ودرثه عنه كل سوء وعادية وهتافه بدينه التويم وخضوعه لناموسه الإلهي في قوله وفعله وشعره ونثره ودفاعه عنه بكل ما يملكه من حول وطول حتى أشتهرت الأبيات الشعرية التالية:

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً وقاماً
فذاك بمكة أوى وحامى وهذا بيثرب جس الحماساً^(١)

وإليك شواهد من سيرته للدلالة على إيمانه الخالص الراسخ:

١- أبو طالب في بدء الدعوة الإسلامية:

قال النبي ﷺ:

«إن الله قد أمرني بإظهار أمري وقد انبأني واستبأني فما عندك؟ فنظر إليه أبو طالب وقال له: «أخرج يا بن أخي فإنك الرفيع كعباً والمنيع حزباً، والأعلى أباً والله لا يسلفك لسان إلا سلفته ألسن حداد واجتذبتة سيوف حداد، والله لتذكن لك العرب ذل البهم لحاضتها، ولقد كان أبي يقرأ الكتب جميعاً، ولقد قال: «إن من صلي لنيباً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فأمنت به، فمن أدركه من ولدي فليؤمن به»^(٢).

وقال أبو طالب للنبي: فوالله لا أسلمك لشيء أبداً أقول:

أترى أن أبا طالب يروي ذلك عن أبيه مطمئناً به؟ وبأمر النبي ﷺ

(١) شرح ابن الحديد ٣/٣١٧.

(٢) راجع نهاية الطلب وغاية السؤل في مناقب آل الرسول للدينوري ص ٣٠٢ والطرائف لابن طاروس

بإشهار أمره والإشادة بذكر الله، وهو مطمئن ومدع بأنه هو ذلك النبي الموعود بلسان أبيه والكتب السالفة.

أترأه سلام الله عليه يأتي بهذه كلها ثم لا يؤمن به؟ ما لكم كيف تحكمون؟

٢- أخرج الفقيه الحنبلي إبراهيم بن علي بن محمد الدينوري في كتابه نهاية الطلب صفحته ٣٠٣^(١).

قال: في يوم من الأيام فقد أبو طالب رسول الله ﷺ فظن أن بعض قريش اغتاله فقتله، فبعث إلى بني هاشم فقال: يا بني هاشم أظن أن بعض قريش اغتال محمد فقتله، فليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة وليجلس إلى جنب عظيم من عظماء قريش فإذا قلت: أبغي محمداً، قتل كل منكم الرجل الذي إلى جانبه، وبلغ رسول الله جمع أبي طالب وهو في بيت عند الصفا فأتى أبا طالب وهو في المسجد فلما رآه أبو طالب أخذ بيده ثم قال يا معشر قريش فقدت محمداً فظننت أن بعضكم اغتاله فأمرت كل فتى شهد من بني هاشم أن يأخذ حديدة ويجلس كل واحد منهم إلى عظيم منكم، فإذا قلت: أبغي محمداً قتل كل واحد منهم الرجل الذي إلى جنبه، فاكشفوا عما في أيديكم يا بني هاشم فكشف بنو هاشم عما في أيديهم فنظرت قريش إلى ذلك فعندها هابت قريش رسول الله ثم أنشأ أبو طالب:

(١) راجع الطرائف للسيد ابن طاووس ص ٨٥ نهاية الطلب للدينوري ص ٣٠٣.

وكل سرائر منها غرور
وما تتلوا السفاسرة^(١) الشهور
فإني والضوايح عاديات
ورود الصدر مني والضمير
لآل محمد راع حفـيظ
ولا أمـت رشاداً إذ تشير^(٢)
فلا وأبيك لا ظفرت قريش

أقول: هذا شيخ الأبطح يريد أن يضحّي كل قومه دون نبي الإسلام، وقد تأهب وأستعد لأن يطأ قريش بأخمص الدين والعقيدة فحيّاها الله من عاطفة إلهية وأصرة دينية هي فوق أوامر الرحم.

٣- دعاء أبو طالب على المشركين:

دفاعاً عن الرسول والمسلمين أثناء حصار الشعب بعد أن تبين لأبي طالب بغّي أبي سفيان ومن تبعه دخل مع أصحابه الكعبة وقال: «اللهم انصرفنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل منّا^(٣).

أنظر: فلماذا يدعوا أبو طالب على المشركين إذا كان هو مشركاً؟

٤- قول أبي طالب لعلي: إلزم ابن عمك.

ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لعلي «إلزم ابن عمك»^(٤). وفي شرح ابن أبي الحديد ٣/٣١٤: روي عن علي قال أبي: «يأبني إلزم ابن عمك فإنك

(١) السفاسرة: أصحاب الأسفار وهي الكتب، الشهور: هم العلماء.

(٢) تاج العروس ٣/٢٧٢، بحار الأنوار ١٤٩/٣٥ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٠٢.

(٣) راجع طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢١٠ وسيرة ابن دحلان ١/٢٦٣.

(٤) سيرة ابن هشام ١/٢٦٥ وتاريخ الطبري ٢/٢١٤.

تسلم به من كل بأس عاجل وأجل»، ثم أنشد بقوله:

إِنَّ الْوَيْثِقَةَ فِي لُزُومِ مُحَمَّدٍ فَاشْتَدَّ بِصَحْبَتِهِ عَلَى أَيْدِيكََا

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله:

إِنَّ عَلِيًّا وَجَعْفَرًا نَقَتِي عِنْدَ مَلْمُومِ الزَّمَانِ وَالتَّوْبِ

لَا تَخْذَلَا وَأَنْصُرَا ابْنَ عَمِّكَمَا أَخِي لِأُمِّي مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَبِي

وَاللَّهُ لَا أَخْذَلُ النَّبِيَّ وَلَا يَخْذَلُهُ مِنْ بَنِي ذُو حَسَبٍ

هذه الأبيات الثلاثة توجد في ديوان أبي طالب صفحته ٩٤ - ٩٥

وذكرها العسكري في كتابه الأوائل صفحته ٧٥.

أقول: من خلال قسمة بالله تعالى يُستدل أنه مؤمن.

٥- قول أبي طالب لأبنته جعفر سلام الله عليهما: (صَلِّ جَنَاحِ ابْنِ

عَمِّكَ).

أخرج ابن الأثير: أن أبا طالب رأى النبي ﷺ وعلياً يصليان وعليّ عليّ

يمينه فقال لجعفر سلام الله عليهما: صَلِّ جَنَاحِ ابْنِ عَمِّكَ وَصَلِّ عَنِ يَسَارِهِ

وكان إسلام جعفر بعد إسلام أخيه عليّ بقليل. وقال أبو طالب شعراً:

وَكُنْ مَظْهَرًا لِلدِّينِ وَقَفَّتْ صَابِرًا فَصَبِرًا أَبَا يَعْلَى عَلَى دِينِ أَحْمَدِ

بِصَدَقٍ وَعِزْمٍ لَا تَكُنْ حَمَزُ كَافِرًا وَحِطُّ مِنْ أَتَى بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ

فَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ فِي اللَّهِ نَاصِرًا فَقَدْ سَرَّتِي إِذْ قَلَّتْ إِنَّكَ مُؤْمِنٌ

وَقُلْ مَا كَانَ أَحْمَدُ سَاحِرًا^(١) وَبَادٍ قَرِيشًا بِالَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ جَهَارًا

(١) أسد الغابة ٢٨٧/١ والسيرة الحلبية ٢٨٦١ والإصابة ١١٦٤.

أقول: إن القرابة والرحم تبعثان إلى المحاماة إلى حد محدود، لكنّه إذا بلغت حد التضحية بولده علي فلا يستسهل الوالد أن يعرض ابنه على القتل كل ليلة فينيمه على فراش النبي ﷺ إلا أن يكون مندفعاً إلى ذلك بدافع ديني وهو معنى اعتناق أبي طالب للدين الحنيف^(١).

٦- أبو طالب وابن الزبيرى.

قال القرطبي في تفسيره^(٢) روى أهل السير قال: كان النبي ﷺ، قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلّي فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل (لعنة الله تعالى عليه): من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟ فقام ابن الزبيرى فأخذ فرناً ودماً فلطخ به وجه النبي ﷺ فانفتل النبي من صلاته ثم أتى أبا طالب عمه فقال «يا هم ألا ترى إلى ما فعل بي؟» فقال أبو طالب «من فعل هذا بك؟» فقال النبي ﷺ: «عبد الله بن الزبيرى» فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل لجللته بسيفي ففعدوا حتى دنا إليهم فقال: «يا بُني من الفاعل بك هذا؟» فقال: «عبد الله بن الزبيرى» فأخذ أبو طالب فرناً ودماً فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول. وفي مكان آخر قال أبو طالب أمام مجمع قريش حينما مضى رسول الله على أمر الله مظهراً لأمره:

(١) التفسير للعلامة الاميني ٤٨٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٦١/٨.

فعبدٌ مناف سرّها وصميمها
 ففي هاشمٍ أشرفها وقد يمها
 هو المصطفى من سرّها وكريمها^(١)
 علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
 إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لمفخر
 فإن حُصِّلتْ إشرافٌ عبدٍ منافيها
 وإن فخرت يوماً فإنّ محمداً
 نداعت قريشٌ غنّها وسمينها

* الدليل الثالث: وصيته عليه السلام:

فقد ذكر أصحاب السير والتاريخ أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش وأوصاهم فقال: «إني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصدّيق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به وقد جاءنا بأمر قبله الجّنان... إلى أن قال: وأيم الله كأنني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدّقوا أمره... إلى أن قال: ولو كان لنفسي مدة، وفي أجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدواهي»^(٢).

وأما وصيته لبني أبيه قال: «يا معشر بني هاشم لن تزالوا بخير ما سمعتم محمد، وما أتبعتم أمره، فأتبعوه وأعينوه ترشدوا»^(٣) وفي لفظ: يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا. فأنشأ يقول^(٤):

(١) سيرة ابن هاشم ٢٧٥/١ وتاريخ ابن كثير ١٢٧٢ وتاريخ أبي الفداء ١١٧/١ والسيرة الحلبيّة ٣٠٦١.

(٢) السيرة الدحلانيّة ٩٥/١ والمواهب اللدنيّة للقسطلاني ٧٢-٥٥/١ وتاريخ الخميس ٢٢٩/١ والسيرة الحلبيّة ٣٧٥/١ وأسنى المطالب صفحته ٥-١١.

(٣) السيرة الحلبيّة ٢٧٢/١ وطبقات ابن سعد ١٢٣/١ وسيرة زيني دحلان هامش الحلبيّة ٩٢/١ وتذكرة السبط صفحته ٥ والخصائص الكبرى ٨٧/١.

(٤) راجع الغدير ٤٩٠/٧، الخصائص الكبرى ٨٧/١ السيرة الحلبيّة ٣٧٢/١، سيرة زيني دحلان هامش الحلبيّة ٩٢/١-٢٩٣، أسنى المطالب ص ١٠، تذكرة السبط ص ٥.

علياً ابني وشيخ القوم عباساً أوصي بنصر بني الخير مشهده
وجعفرأ أن يذودا دونه الناساً وحمزة الأسد الحامي حقيقته
في نصر أحمد دون الناس أتراساً كونوا فدى لكم أمي وما ولدت

أقول: ليس في العقل السليم مساع للقول بأن هذه المواقف كلها لم تنبعث عن خضوع أبي طالب للدين الحنيف وتصديقه للنبي محمد ﷺ وإلا فماذا الذي كان يحدوه إلى مقاساة الأذى من قريش ومعاداتهم وتعكير الصفوف من حياته فكان هو والصفوة من بني هاشم لا حياة هنيئة ولا عيش رغداً ولا أمن يطمأن به، فماذا الذي أقدمه على هذه كلها؟ وماذا الذي حصره وجبسه في الشعب عدة سنين تجاه أمر لا يقول بصدقه ولا يخضع إلى حقيقته؟ لم يكن كل ذلك إلا عن إيمان ثابت وتصديق وتسليم بما جاء به نبي الإسلام ولم تكن القرابة بمفردها تدعوه إلى مقاساة تلك المشاق كما لم تدع أبا لهب أخاه فقد اقر بنبوته ومن قبل صرح بملء فمه بالرسالة عندما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

• للدليل الرابع: دعاء النبي له بالخير والمغفرة

الأحاديث والأدعية التي جاءت في حق أبي طالب شاهداً على إيمانه

١- روى ابن سعد في طبقاته بسند صحيح عن العباس قال: يا رسول الله أترجو لأبي طالب؟ قال كل الخير أرجوه من ربي^(١).

ووافقه زين الدين دحلان مفتي مكة^(٢) فقال: إن رجاء النبي ﷺ

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٥١ دار هادر.

(٢) أسنى المطالب صفح ٣٢ و٦٥.

محقق ولا يرجو كل الخير إلا لمؤمن. ولا يجوز أن يراد بهذا ما حصل له من تخفيف العذاب بل المراد أن يكون كل الخير كما جاء في الحديث السابق وإنما تخفيف العذاب هو تخفيف الشر (وليس هذا كل الخير) وحصول كل الخير إنما يكون بدخول الجنة.

٢- روى ابن سعد وابن عساكر عن علي عليه السلام قال أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب فبكى وقال إذهب ففسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه ^(١).

ولو كان أبو طالب مشركاً لما صح من النبي أن يدعوله بالمغفرة والرحمة.

٣- روى المجلسي في بحار الأنوار ^(٢) قال لما توفي أبو طالب قال صلى الله عليه وسلم وصلتك رحمٌ وجزيت خيراً يا عم. وفي نور الأبصار جزاك الله خيراً يا عم. وفي شرح نهج البلاغة قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً أبا طالب وهو محمول على رؤوس الرجال: «يا عم جزيت خيراً فلقد ربيت وكفلت صغيراً ونصرت وآزرت كبيراً، أما والله لأستغفرنَّ لك ولأشفرنَّ فيك شفاعةً يعجب لها الثقلان» ^(٣) ولو كان أبو طالب كافراً لما صح من النبي أن يشفع ويستغفر له ولما صح له أن يطلب له الخير.

٤- اخرج أبو تمام الرازي في فوائده بسند يعتقد به في المناقب عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي وأمي

(١) راجع طبقات ابن سعد ١/١٣٣.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي ١٥١/٣٥.

(٣) شرح نهج البلاغة لأبْن أبي الحديد ٧٧١٤.

وعمي أبي طالب»^(١) وأقول: طوبى لمن شفع له رسول الله يوم الشفاعة.

وخلاصة الدليل الرابع: مما يدل ويؤكد إيمان أبي طالب ترحم النبي عليه واستغفاره له وشفاعته له يوم القيامة وهو خارج عن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبٍ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. ولو كان كافراً لما صح من النبي أن يدعوله بالمغفرة والرحمة ويطلب له الشفاعة بدليل الآية الكريمة السابقة.

• الدليل الخامس: حزن النبي ﷺ عليه:

من المعلوم أن أبا طالب لما توفي وتوفيت معه زوجة النبي خديجة في عام واحد في السنة العاشرة للبعثة، سمي النبي ﷺ ذلك العام عام الحزن، ولو كان أبو طالب مشركاً لما صح للنبي ﷺ أن يحزن عليه أبداً^(٢) ولا يظهر له الود والحب ودليله القرآن الكريم ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ...﴾^(٣).

• الدليل السادس: التفريق بين المرأة المسلمة وزوجها الكافر.

إذا لم يُسلم فيجب التفريق بينه وبين زوجته المسلمة، ولكن لم يثبت أن رسول الله فرّق بين أبي طالب وزوجته فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنهما وفاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام وهي ثاني امرأة آمنت

(١) ذخائر العقبى للطبري صفحته ٧ وأسنى المطالب صفحته ٢٣، الدرر المنيفة للسيوطي ص ٧.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر والأصابع لابن حجر ١١٦٤ و ذخائر العقبى لمحج الدين الطبري صفحة

برسول الله ولو كان أبو طالب كافراً لما صح للنبي ﷺ أن يبقيا عنده بينما فرّق بين أبي العاص الكافر وزوجته زينب وبعد أسلامه أعادهما لبعضهما^(١). ومن الجدير بالذكر يقول ابن كثير في البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٥: إن القاعدة العامة عند علماء المسلمين أن المرأة إذا أسلمت وزوجها كافر تعجلت الفرقة وأنسخ نكاحها.

• **الدليل السابع: ما يروي عنه بنوهاشم وغيرهم من طرق العلماء والخاصة.**

١- قال ابن أبي الحديد في شرحه للنهج ٣١٢/٣: روي بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب وبعضها عن أبي بكر بن أبي قحافة: إن أبو طالب ما مات حتى قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله^(٢).

٢- قال ابن الأثير في جامع الأصول: وما أسلم من أعمام النبي غير حمزة والعباس وأبي طالب.

٣- أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: إن النبي ﷺ عاد من جنازة أبي طالب فقال «وصلتكم رحم، جزاك الله خيراً يا عم»^(٣).

٤- عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب قال: قال العباس يا رسول الله أترجو لأبي طالب؟ قال: كل الخير أرجو من ربي^(٤).

(١) في بحار الأنوار ١٥٧/٢٥ روي أن الأمام علي بن الحسين عليه السلام سئل عن إيمان أبي طالب فقال وأعجبا إن الله تعالى نهى رسول الله أن يقر مسلماً على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، كذا راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٥٢ وذخائر العقبى صفح ١٦٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٢٧/٢ ودلائل النبوة للبيهقي ٣٤٦٢ وتاريخ ابن كثير ١٢٣/٢ والإصابة لابن حجر ١١٦٤ والسيرة الحلبي ٣٧٢/١ والسيرة للدحلانية ٨٩/١.

(٣) تاريخ الخطيب البغدادي ١٩٦١٣، الإصابة ١١٦٧٤، تاريخ ابن كثير ١٢٥/٣.

(٤) طبقات ابن سعد ١٠٦/١، ابن عساكر في الخصائص الكبرى ٨٧/١.

٥- عن ابن عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب عن رسول الله أنه قال لعقيل بن أبي طالب: «يا أبا يزيد: إني أحبك حبين حباً لقربتك مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي أبي طالب إياك»^(١).

وهناك كثير من الأخبار في بطون كتب التاريخ والسير عن طرق العامة تثبت إيمان أبي طالب منها (كتاب إعلام النبوة للماوردي ص ١٣٠ وبدائع الصنائع ٢٨٢/١) والسيرة النبوية ٤٣/١ والسيرة الحلبية ١١٦١ وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ١٣٦ وغيرها.

* الدليل الثامن: شهادة الأئمة عليهم السلام في إيمان أبي طالب وإليك بعضها:

١- روي أن رجلاً من الشيعة كتب إلى الأمام الرضا عليه السلام جعلت فداك، إني شككت في إسلام أبي طالب. فكتب إليه: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار^(٢).

٢- وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فلما كان من الغد قام رسول الله ليتكلم فاعترضه أبو لهب قال فقال أبو طالب اسكت يا أعور ما أنت وهذا؟

قال ثم قال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قم يا سيدي فتكلم بما تحب وبلغ رسالة ربك فإنك الصادق المصدق^(٣) أقول فقد أقر بنبوته وأقر برسالته وهذا هو الإيمان الراسخ لأبي طالب عليه السلام.

(١) الاستيعاب ٥٠٩/٢، ذخائر العقبى للطبراني ص ٢٢٢، تاريخ الخميس ١/١٦٣.

(٢) بحار الأنوار ٣٥ - ١٤٥.

(٣) راجع بحار الأنوار ١٤٥/٣٥.

٣- كلمة الإمام الباقر: سُئل عما يقوله الناس: إن أبا طالب في ضحضاح من نار فقال عليه السلام: «لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه»^(١).

٤- كلمة الإمام علي بن الحسين السجاد: سُئل الإمام السجاد عن إيمان أبي طالب فقال «واعجباً إن الله تعالى نهى رسول الله أن يقسر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ١٥٦٣٥.

(٢) بحار الأنوار: ١٥٧ / ٢٥.

البحث الثاني:

الآيات والأحاديث التي استدلو بها على هدم إيمان أبي طالب

١- من الآيات التي استدلو بها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ قالوا نزلت في أبي طالب. والجواب إنه غلظ فاحش فإن الآية مدنية وأبو طالب توفي في مكة. قبل نزولها والآية عند التدقيق لو سلمنا كل الإيرادات فهي مدح لأبي طالب فهي تدل على إيمان لا على كفره، وذلك أن هداية أبي طالب كانت من الله تعالى. ومعنى الآية أن أبا طالب الذي تحبه يا محمد ذلك الحب الشديد كانت هدايته من الله سبحانه هذا أبو طالب سلام الله عليه كان وسيبقى منارة الهدى والعلم للحق والدين والمؤمن الذي نصر الله ونصر دينه فسبقت له من الله العُسنى، وتمت له الكلمة الخالدة بالخير والإيمان وما قول المفترين الأفاكين الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله وتسلطوا على دين الله بالباطل إلا كما قال الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

٢- ومن الأحاديث أهمها ما جاء في صحيح البخاري ومسلم منها عن أبي سعيد الخدري أن الرسول ذكر عنده عمه أبو طالب فقال ﷺ: «لعله تناله شفاعتي يوم القيامة فيجمل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»^(١).

والجواب عن هذا الحديث: أجمع أهل العلم والتحقيق على أن الشفاعة لا تنال كافرأ.

(١) صحيح البخاري ومسلم في فضائل الصحابة.

قال الإمام البرزنجي ووافقه مفتي مكة زين الدين دحلان وغيرهما من أصحاب العلوم الشرعية إضافة إلى أن هناك آيات كثيرة تشهد بعدم الشفاعة للكافرين منها قوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر ٤٨]، ﴿وَلَا تَخَفُوا عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر ٣٦]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر ١٨]، فإذا كان أبو طالب كافراً لما صح من النبي أن يطلب له الشفاعة!

وأما الضحضاح في اللغة: الماء القليل، يقال ضحضاح من ماء ولا يقال ضحضاح من نار راجع كتب اللغة كالمحيط ولسان العرب وهناك خبر آخر عن الضحضاح فهو خبر موضوع يرويه المغيرة بن شعبه، والمغيرة معروف بعداوته لبني هاشم وخاصة لعلي عليه السلام.

٣- إضافة إلى ما ورد عن الأمام الباقر عليه السلام عندما سئل عما يقوله الناس أن أبا طالب في ضحضاح من نار! فقال: «لو وُضِعَ إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه»^(١) إضافة لشهادة النبي له في الجنة قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»، إنما عني به أبا طالب.

والنتيجة من البحث أنه لا ريب عند أهل البيت عليه السلام وأتباعهم في إيمان أبي طالب وآباء الأنبياء وأمهاتهم أجمع وهذا ما نعتقده. عقيدة جازمة لا شك فيها ولا ارتياب وكما نعتقد من دون ريب كلما ترددت كلمه: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله على المآذن وفي كل مكان وأفق، إنها النعمة الكبرى التي أنعم الله سبحانه بها على أبي طالب أن يكون من أركان الدعوة إلى هذا الدين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل العشرون

نظرية عدالة الصحابة

وفيها بحوث:

- البحث الأول: معنى الصحابة لغةً واصطلاحاً.
- البحث الثاني: دليل أهل السنة على عدالة جميع الصحابة وجوابه.
 - أ - تساؤل واستنتاج.
 - ب - التفاضل سنة إلهية وقانون الحياة.
 - ج - نظام التفاضل في الإسلام.
 - د - أركان التفاضل.
- البحث الثالث: نقض نظرية كل الصحابة عدول.

وجوه النقض:

- ١- النظرية تتعارض مع النصوص القرآنية القاطعة.
- ٢- النظرية تتعارض مع السنة النبوية الشريفة، وفروعها الثلاثة: القول والفعل والتقرير.
- ٣- النظرية ينقدها واقع الحال.
- ٤- أنها تتعارض مع روح الإسلام العامة ومع الغاية من الحياة نفسها.

البحث الأول:

معنى الصحابة لغة واصطلاحاً

١- معنى الصحابة في اللغة:

الصحابة: من صحب يصحب صحبةً بالضم وصحابةً بالفتح، صاحب أي عاشر، وصحب: رافق، جالس، انقاد، شايع والصاحب هو المعاشر أو المتقاد أو المجالس أو المشايخ أو المرافق أو القائم على الشيء، أو الحافظ له ويطلق أيضاً على كل من تقلد مذهباً، فيقال: أصحاب الإمام جعفر عليه السلام، وأصحاب أبي حنيفة، وأصحاب الشافعي... إلخ ^(١).

٢- معنى الصحابة اصطلاحاً:

يقول ابن حجر العسقلاني بالحرف: «الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام» ^(٢).

* توضيح ابن حجر لهذا التعريف:

فيدخل فيمن لقيه ﷺ من طالت مجالسته أو قصرت، أو من روى عنه أو لم يرو، أو من غزا معه أو لم يغز، أو من رآه ولو لم يجالسه، أو من لم يره لعارض كالعمى. والصحابي أن يثبت بطريق التواتر أو بالاستفاضة أو الشهرة أو بخبر الأحاد أو أن يقول هو إذا كان ثابت العدالة أنا صحابي.

(١) لسان العرب ٩١٥/١، تاج اللغة للجوهرى ص ١٦١، وتاج العروس ١٨٦٣، المعجم الوسيط ٥٠٩/١.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ص ١٠.

* تقييم ابن حجر لهذا التعريف:

هذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل ومن تبعهما.

* الجميع صحابة:

من المتفق عليه أن الدعوة المحمدية تمخضت عن الدولة المحمدية التي قادها النبي ﷺ بنفسه بالمدينة قرابة عشر سنين أرسى خلالها قواعد النظام السياسي الإسلامي وبيّن عقيدة الإسلام بياناً كاملاً ومن خلال التعريف الذي أورده ابن حجر للصحابة فإن المعول أن ينال شرف الصُحبة ويكون صحابياً هو:

١- الالتقاء بالنبي ﷺ سواء أكان هذا للالتقاء عن طريق المجالسة أو المحادثة أو المشاهدة. فمن شاهد النبي أو شاهده النبي فهو صحابي حتى ولو كان طفلاً رضيعاً لأن المشاهدة لا تنسب له إنما تنسب للنبي نفسه^(١).

٢- الإيمان بالنبي أنه نبي، فلو أخذنا برأي ابن حجر العسقلاني لوجب علينا أن نتأكد من حقيقة هذا الإيمان، وهذا أمر خارج عن قدرة البشر، وكان على ابن حجر أن يقول: مؤمناً به أو متظاهراً بالإيمان به، فعبد الله بن أبي زعيم المنافقين هو من الصحابة بالإجماع. فقد قال النبي ﷺ لمن أشار بقتله: «فلمعري لنحسنن صحبته ما دام بين أظهرنا»^(٢)، وعبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ثم افترى على الله الكذب، وأباح الرسول ﷺ دمه ولو تعلق بأستار الكعبة. وعند فتح مكة تشفّع له عثمان ودخل في

(١) نفس المصدر ص ١١.

(٢) راجع الطبقات لأبن سعد ٥٦٧، النظام السياسي في الإسلام لأحمد حسن يعقوب ص ١٠٣.

الإسلام لينجو بروحه..... وهو صحابي شاء الناس أم أبوا^(١). ومثله الحكم بن العاص طريد رسول الله ﷺ إذ طرده الرسول وحرّم عليه دخول المدينة، وبوفاة الرسول راجع عثمان أبا بكر ليدخله لكن أبا بكر رفض، ولما مات أبو بكر راجع عثمان عمر ليدخله المدينة ولكن عمر رفض أيضاً أن يدخله المدينة في عهده، ولما تولى عثمان الخلافة أدخله معزراً مكرماً وأعطاه مائة ألف درهم لأنه صحابي^(٢). وباختصار فلا يشترط بالشخص حتى يكون صحابياً أن يكون مؤمناً حقيقة بالنبي بل يكفي أن يتظاهر بالإيمان وأن يموت على هذا الإيمان أو على هذا التظاهر به، ومن خلال بيعة الناس له ﷺ، والحج والعمرة وفتح مكة (حجة الوداع). ومن خلال سيطرة النبي على الجزيرة العربية أتيحت الفرصة للجميع للالتقاء به، لم يبق في مكة ولا الطائف أحد في السنة العاشرة إلا أسلم وكذلك لم يبق من الأوس والخزرج في عهد النبي إلا ودخل في الإسلام، وما مات النبي وواحد منهم يظهر الكفر^(٣) حتى الأطفال صاروا صحابة على سبيل الإلحاق لغلبة الظن على أنه ﷺ رأهم لتوفر دواعي أصحابه على إحضارهم أولاً وهم عند ولادتهم ليحنكهم ويسمّهم والأخبار بذلك كثيرة^(٤).

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٣١ - ١٤١.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٥٤ - ١٣١.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ص ١٦.

(٤) الإصابة لابن حجر ص ٧.

البحث الثاني:

نظرية عدالة الصحابة عند أهل السنة

أجمع أهل السنة على أن جميع الصحابة عدول، على حد تعبير ابن حجر العسقلاني، ويجب الاعتقاد بنزاهتهم، إذ ثبت أن الجميع من أهل الجنة وأنه لا يدخل أحد منهم النار^(١).

* ما هو دليلهم على ذلك؟

ذكر الخطيب البغدادي أن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن رضائه عنهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ لَبَدَّةٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ إِيْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها^(٢) منها «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(٣).

* مضمون عدالة الصحابة عند أهل السنة

تعني عدالة الصحابة فيما تعنيه، أن كل من عاصر الرسول أو ولد في عصره، لا يجوز عليه الكذب والتزوير، ولا يجوز تجريحه ولو قتل آلافاً، وفعل المنكرات وعلى أساس ذلك فجميع الطبقة الأولى من الأمويين كأبي

(١) الإصابة لابن حجر ص ٩ - ١٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ص ٩ - ١٠.

(٣) الإصابة لابن حجر ص ٩.

سفيان وأولاده وجميع المروانيين بما فيهم طريد رسول الله وأولاده والمغيرة بن أبي شعبة، وولده عبد الله الذي كان في حدود العاشرة من عمره حين وفاة النبي ﷺ ومع ذلك نسبوا إليه مجموعة من الأحاديث كتبها على النبي في صحيفة يسمونها الصادقة فجميع هؤلاء من العدول ومروياتهم من نوع الصحاح ولو كانت فيها تجريح الإمام علي عليه السلام وأهل البيت، وفي التقديس لعبد الرحمن بن ملجم قاتل علي عليه السلام هذه المرويات يجب قبولها.

ولا يجوز ردّها لأن رواتها من العدول والذين اتبعوا معاوية وسايروه طيلة ثلاثين عاماً من حكمه، هؤلاء كلهم على الحق والهدى، وحتى الذين سموا الحسن بن علي عليه السلام وقتلوا الحسين عليه السلام وأصحابه وفعلوا ما فعلوا من الجرائم في الكوفة وغيرها كانوا محقّين ومن المهتدين بحجة أن النبي ﷺ قد قال بزعمهم «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١)، وهذا الحديث ضعفه أئمة أهل الحديث فلا حجة فيه وطعن فيه ابن تيمية^(٢).

• الآثار المترتبة على هذا التعميم

المساواة العشوائية، فالصحابة حسب رأي أهل السنة متساوون بالعدالة فجميعهم عدول، فالقاعد كالمجاهد والعالم كالجاهل، ومن أسلم عن اقتناع تماماً كمن أسلم لينجو بروحه، والسابق كاللاحق والمنفق كالمقتري، والعاصي كالمطيع، والطفل كالراشد ومن قاتل الإسلام في كل المعارك تماماً كمن

(١) آراء علماء المسلمين في الصحابة ص ٨١، ٨٢

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩١ وقد نقل عن محب الدين الخطيب وعن المتقي للذهبي.

قاتل مع الإسلام، فعلي عليه السلام الذي قاتل مع الإسلام دفاعاً عنه وعن المسلمين كأبي سفيان الذي قاد كل الحروب ضد الإسلام وعبد الله بن أبي زعيم المنافقين تماماً كعمار بن ياسر..... إلخ.

كيف لا؟ فكلهم صحابة وكلهم عدول وكلهم في الجنة ولا يدخل أحد منهم النار أبداً كما نقلنا.

* تساؤل واستفهام

هل يُعقل أن يكون العالم كالجاهل والقاعد كالمجاهد ومن أسلم عن افتناع كمن أسلم خوفاً؟ هل من المعقول أن يتساوى القاتل والمقتول؟ وهل يتساوى السابق باللاحق، والمنفق بالمقتر والعاصي بالمطيع وصادق الإيمان بالمتظاهر، والمؤمن بالمنافق..... إلخ.

لا الشرع يقبل هذه المساواة ولا العقل ولا المنطق وهي ظلم صارخ وخلط فضيع ينفر منه العقل وتأبأها الفطرة الإنسانية السليمة^(١) والشريعة وضعت صفات موضوعية لأعمال البر والتقوى ولأعمال الفجور فمن توافرت فيه صفات معينة حشرته تلك الصفات بإحدى هاتين المجموعتين ثم أن التفضيل ضروري لمعرفة الأفضل ومن هو المستحق لملك الوظائف العامة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمْنَةَ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وقد فسرها الطبري بإسناد الولاية فمن هو جدير بها وكيف يمكن تأدية هذه الأمانات في هذا المجال دون اللجوء للتفاضل؟

فالتفاضل سنة إلهية ومنهج من مناهج الحياة وحافز من حوافز السموم بها تقتضيه طبيعة الحياة ويقتضيه التباين بين الخلق في القدرة والقوة والفهم

(١) النظام السياسي في الإسلام ص ١٠٦ وما فوق.

وتحقيق العدل السياسي والوظيفي من حيث وضع الشخص المناسب في المكان المناسب المؤدي لتحقيق الغاية الشرعية ووسيلة ذلك كله هو نظام التفاضل الشرعي في الإسلام.

* نظام التفاضل في الإسلام

تجنباً للخلاف والاختلاف واستبعاد لدور المزاج والهوى، فقد حدد الإسلام بنصوص قاطعة لا تحتمل الإنكار والتأويل الأركان الأساسية لنظام التفاضل في الإسلام وحصرها في خمسة أركان وهي بالتالي الطريق الأوحى لمعرفة الأعلّم والأفضل والأنسب من الصحابة فإذا كان الصحابة كلهم بلا استثناء عدول لا فرق بين واحد وآخر فما الداعي لإيجاد نظام التفاضل في الإسلام وما الداعي لتشريع الحدود ووضع الأحكام؟

* أركان التفاضل:

باستقراء أحكام الشريعة الإسلامية، يتبين لنا أن التفاضل يقوم على خمسة أركان وهذه الأركان بمثابة موازين تحدد حجم مقدار الاعتبار لكل مسلم وتبين مكانته.

• الركن الأول: القرابة الطاهرة، فهم قيادة الأمة بعد النبي ﷺ بالنص الشرعي القاطع، وهذه القرابة هي مركز الدائرة بالنص وهي سفينة النجاة بالنص، وهي نجوم الهدى بالنص وهم الأتقى والأعلم بالنص وهم المطهرون بالنص، ومحبتهم مفروضة على الجميع بالنص القرآني هو قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، هم أهل البيت ﷺ.

• الركن الثاني: السابقة في الإيمان.

• الركن الثالث: التقوى.

• الركن الرابع: العلم.

• الركن الخامس: تقييم الرسول القائد أو الإمام الشرعي المعين بالنص من قبل الله بواسطة النبي ﷺ.

• تساؤلات أخرى

فإذا كان الصحابة كلهم عدول وكلهم في الجنة ولا يدخل أحد منهم النار، وأن الله يساوي بينهم، فما الذي منع الأنصار من أن يتولوا الخلافة ولماذا اقتنعت أكثريتهم وأعطوا القيادة للمهاجرين عن قناعة؟ لماذا فرّق الخليفة عمر ولم يساو بينهم بالعطايا مع أنهم صحابة وكلهم عدول ولا فرق بين واحد وآخر؟ لماذا أقيمت الحدود على بعضهم؟ وهل يسرق العادل النزيه المضمون دخوله في الجنة؟ أنتم لستم أفقه من الشيخين، في الدين وكفى بفقههما عندكم حجة، ليجب كل واحد منكم على هذه التساؤلات، فمتى كان التقليد الأعمى طريقاً للهدى. وقد أنعم الله علينا بالعقل لنستثمره في طاعة ومعرفة مقاصد الشريعة.

البحث الثالث:

نقض نظرية كل الصحابة عدول من حيث الموضوع

يؤمن أهل السنة بالنظرية القائلة: (بأن كل الصحابة بلا استثناء عدول) تلك النظرية التي ابتدعها رجال السياسة الغالبون وأن هذه النظرية قد ابتدعت في العصر الأموي (عصر خلافة الطلقاء) كما سثبت ذلك إنشاء الله تعالى وهذه النظرية متقوضة من أساسها.

* وجوه النقض:

- ١- أنها تتعارض مع النصوص القرآنية القاطعة.
- ٢- أنها تتعارض مع السنة النبوية بفروعها الثلاثة: القول والفعل والتقريب.
- ٣- نظرية عدالة الصحابة ينقضها واقع الحال وأنها تتعارض مع روح الإسلام العامة ومع الغاية من الحياة نفسها.

* تفصيل وإثبات وجوه النقض

- ١- نظرية عدالة كل الصحابة تتعارض مع النصوص القرآنية القاطعة: منها

أولاً: ظاهرة النفاق في بعض الصحابة:

شاعت ظاهرة النفاق في زمن النبي، وبرز المنافقون كقوة حقيقية يحسب حسابها والمنافقون هم فئة آمنت بالظاهر، فهم بأفواههم يشهدون أن

لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ويرددون نفس الألفاظ والمصطلحات التي يرددوها المسلمون خداعاً واستهزاءً ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ... يُخٰدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾، ﴿وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ ولا تقتصر ظاهرة النفاق على القول بل تتعداها إلى العمل، فقد كانوا يصلّون وينفقون ويقدمون الأعذار إذا تخلفوا عن الخروج مع النبي فبدأت الآيات القرآنية تنزل وتكشف حقائق هذه الفئة المنافقة ومنها الآيات التالية:

﴿...وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخٰدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١)، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُصٰطِئِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ...﴾^(٢)، ﴿... وَلَا يَأْتُونَ الصَّلٰوةَ إِلَّا وَهُمْ كُسٰلَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كٰرِهُونَ...﴾^(٣)، ﴿لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خٰلِدِكُمْ يَبْتَغُونَ كُمْ الْفِتْنَةَ وَفِىكُمْ سَمْعُونَ هُمْ...﴾^(٤)، ﴿وَيُخٰلِفُونَ بِأَلْفِهِمْ لِمَنكُم وَمَا هُمْ بِمِنكُم وَلٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ...﴾^(٥).

• الحكم الإلهي القاطع في حق المنافقين

بعد أن كشف حقيقتهم، وعرى بواطنهم أصدر حكمه العادل الذي يتلاءم وجريماتهم بالكذب على الناس وعلى الله وكلف نبيه أن يبلغهم مضمون هذا القرار الإلهي ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَلَ مِنكُم﴾^(٦).

(١) سورة البقرة: الآية ٨٧

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٤

(٤) سورة التوبة: الآية ٤٧

(٥) سورة التوبة: الآية ٥٦

(٦) سورة التوبة: الآية ٥٣

لماذا لأنهم يخادعون الله والذين آمنوا وقد كفروا بالله ورسوله واليوم الآخر ذلك طلبوا من الرسول الأعظم أن يستغفر لهم، فكان يستغفر لهم ويسأل الله الهداية لهم فجاءه الرد الإلهي واضحاً ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

ثانياً: ظاهرة الفسق في بعض الصحابة:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾^(٢).

المؤمن هو علي بن أبي طالب والفاسق هو الوليد بن عقبة وقد تولى الكوفة لعثمان وتولى المدينة لعاوية ولابنه يزيد^(٣).

ثالثاً: ظاهرة الكذب في بعض الصحابة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي سرح وهو والي عثمان على مصر، فهو الذي افتري على الله الكذب، وحاول أن يحرف كتاب الله وأباح

(١) سورة التوبة: الآية: ٨٠

(٢) سورة السجدة: الآية ١٧ - ١٨.

(٣) شواهد التنزيل للحاكم ص ٤٤٥، تفسير الطبري ١٠٧/٢١، الكشاف للزمخشري ٥١٤/٣، ومصادر أخرى كثيرة راجع نظرية عدالة الصحابة ص ٣٦.

(٤) سورة الصف.

الرسول ﷺ دمه ولو تعلق بأستار الكعبة كما يروي صاحب السيرة الحلبية الشافعي في باب فتح مكة، وجاء به عثمان يوم الفتح يطلب الأمان له، وسكت الرسول على أمل أن يقتل خلال سكوته كما أوضح رسول الله، ولما لم يقتل أعطاه الأمان^(١)، فنظرية عدالة كل الصحابة تتعارض مع هذه النصوص القرآنية القاطعة.

٢- نظرية عدالة كل الصحابة تتعارض مع السنة النبوية

وإليك هذه الأمثلة:

• المثال الأول: ذو الثدية فقد كان من الصحابة المنتسكين وكان يُعجبُ الناس تعبه، وكان رسول الله يقول: إنه لرجل في وجهه لسعة من الشيطان. وأرسل النبي ﷺ أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلي رجع وأرسل عمر فلم يقتله، ثم أرسل علياً عليه السلام فلم يدركه^(٢) وهو الذي ترأس الخوارج وقتله علي عليه السلام في النهروان^(٣).

• المثال الثاني: كانت مجموعة من الصحابة يجتمعون في بيت أحدهم يشطون الناس عن رسول الله ﷺ فأمر ﷺ (أن يحرق عليهم هذا البيت)^(٤).

• المثال الثالث: قزمان بن الحرث قاتل في أحد مع رسول الله قتال الأبطال، فقال أصحاب النبي ما أجزأ عنا أحد كما أجزأ عنا قزمان فقال

(١) راجع السيرة الحلبية باب فتح مكة.

(٢) فضائل الخمسة، ٢٦٨/١، تذكرة الخواص للسيط الجوزي ص ٢٠٧، ينابيع المودة للقندوزي ص ٢٥٠، نظم در السمطين للزرندي ص ٩٢.

(٣) آراء علماء المسلمين لسيد مرتضى الرضوي ص ٢٤ - ١٢٨، سيرة ابن هشام ٢٠٥/٣.

(٤) سيرة ابن هشام ٢٣٥/٣.

النبي: أما إنه من أهل النار، ولما أصابته الجراح وسقط قيل له هنيئاً لك الجنة يا أبا الفيداق. قال جنة من حرمم الله ما قاتلنا إلا على الغنائم والأحساب^(١).

• المثال الرابع: الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس عم عثمان بن عفان ووالد مروان بن الحكم لعنه رسول الله^(٢) ولعن ما في صلبه وقال ويل لأمتي مما في صلب هذا ومن حديث عائشة أنها قالت لمروان أشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه فنغاه النبي إلى مرج قرب الطائف وحرّم عليه أن يدخل المدينة ولما مات رسول الله راجع عثمان أبا بكر ليدخله فرفض أبو بكر، ولما مات أبو بكر راجع عثمان عمر ليدخله المدينة فأبى عمر، ولما تولى عثمان الخلافة أدخله معزراً مكرماً وأعطاه مائة ألف درهم واتخذ مروان وابنه بطانة له وتسبب فيما بعد بقتل الخليفة وخراب الخلافة الراشدة.

• المثال الخامس: وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين وقالوا: إنهم بنوا هذا المسجد تقرباً لله تعالى وكانوا اثني عشر رجلاً من الصحابة المنافقين^(٣).

• المثال السادس: لعن رسول الله بعض الصحابة.

قال السيوطي وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم

(١) الإصابة ٢٣٥/٣، آراء علماء المسلمين للسيد مرتضى ص ١٢٧.

(٢) كنز العمال، مروج الذهب للمسعودي ٦٤/٣.

(٣) راجع سيرة ابن هشام ٢٠٥، ٢٣٥/٣.

المن أبا سفيان، اللهم المن الحرث بن هشام، اللهم المن سهيل بن عمرو، اللهم ألعن صفوان بن أمية»^(١).

وأخرج نصر بن مزاحم عن علي بن الأقرم قال: نظر رسول الله إلى أبي سفيان وهو راكب ومعاوية وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق قال ﷺ: «اللهم المن القائد والسائق والراكب»^(٢) وروى البخاري ومسلم^(٣) هذا الحديث..

• دعوة لتحليل هذه الأمثلة

الأمثلة الست التي سقناها عن رسول الله ﷺ تنقض نقضاً كاملاً القول (بأن كل الصحابة عدول). فمن يأمر الرسول بقتله ليس من العدول. ومن يحرق عليهم رسول الله البيت ليسوا من العدول. ومن يقل عن الجنة جنة من حرم، ويقا تل على الأحساب ليس من العدول. ومن يلعن الرسول ويلعن ما في صلبه ليس من العدول. والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ليسوا من العدول لأن القول بعد التهم يتعارض مع السنة الشريفة. نعم لا خلاف بعدالة أفاضل الصحابة ولكن الخلاف يكمن في التعميم بالقول بأن كل الصحابة عدول.

٣- نظرية عدالة كل الصحابة ينقضها واقع الحال

• المثال الأول: حصل معاوية على البيعة بالتقتيل والتدمير والتحريق ثم أخذ البيعة ليزيد بالقوة وأمره على الصحابة بالرغم من مجونه وقله دينه

(١) السيرة الحلبية ٢/٢٣٤، الدر المعثور ٧١/٨.

(٢) وقعة صفين ص ٢١٧ - ٢٢٠، مروج الذهب ٦٤/٣.

(٣) نظام الحكم للقاسمي ص ٢٨٣، النظام السياسي في الإسلام لأحمد حسين ص ١٨٢.

وسوء خلقه^(١) وهذا صدر من صحابي هو معاوية.

• المثال الثاني: أرسل معاوية الصحابي بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف سنة ٤٠هـ وقدم المدينة فصعد المنبر وهدد أهل المدينة بالقتل فأجابوه إلى بيعة معاوية ومضى بسر إلى مكة ثم سار إلى اليمن ولم يجد واليها عبيد الله بن العباس ووجد طفليه الصغيرين فقتلهم بسر وقتل معهما خالاً لهما من ثقيف وقتل بالمدينة خلقاً كثيراً^(٢).

• المثال الثالث: وممن سمهم معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وذلك عندما شاور أهل الشام فيمن يعقد له من بعده فقالوا: رضينا بعبد الرحمن، فشق ذلك على معاوية فسمه، وهذا ما فعله مع عبد الرحمن بن أبي بكر^(٣).

• المثال الرابع: تقدم الجيش الأموي بقيادة الصحابي عمر بن سعد بن أبي وقاص، ولما تكاثرت العساكر على الحسين عليه السلام فلم يزل يقاتل هو ومن معه قتال الأبطال حتى قتل الإمام الحسين عليه السلام وقتل من معه ولم يكتفي عمر بن سعد بقتله إنما أمر أن يواطئوا خيلهم جثة الحسين فوطئه بخيلهم ثم أخذوا النساء والأطفال سبايا ومنعهم من أن يشربوا من ماء الفرات^(٤).

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن النبي قال: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيمنعون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي، فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقري» (راجع مسند أحمد ٥٠/٥، ٢٣٥/١، نظام الحكم للقاسمي ص ٢٨٣).

(٢) راجع مروج الذهب للمسعودي ٢٦٣.

(٣) الاستيعاب - باب ترجمة عبد الرحمن بن خالد ص ١٧٥.

(٤) أنساب الإشراف للبلاذري - باب مقتل الحسين عليه السلام.

* تحليل هذه الأمثلة:

التقتيل والتدمير والتحرير وإبادة البدرين وقتل أعداد كبيرة من أهل المدينة وقتل الأطفال، وقتل الحسين عليه السلام والدوس على جثته الطاهرة بسنابك الخيل وإبادة آل محمد ومنعهم من أن يشربوا من ماء الفرات أمر يناقض الزعم بعدالة كل الصحابة ويناقض الشرع والعقل ويتعارض مع ما تقتضيه طبيعة الحياة في التفاضل ويقتضيه التباين بين الخلق في القدرة والقوة والفهم..

والنتيجة: من هم الصحابة عند الشيعة؟

الصحبة تشمل كل من صحب النبي صلى الله عليه وآله رآه أو سمع منه، فهي تشمل المؤمن والمنافق والعاقل والفاسق، فالصحبة ليست بمجرد ما عاصمة تلبس صاحبها إيراد العدالة وإنما تختلف منازلهم وتتفاوت درجاتهم بالأعمال. ونقطة الخلاف هي أن أهل السنة يقولون بعدالة كل الصحابة وأهل الشيعة يقولون بعدالة المتصف بها من الصحابة فقط.

الفصل الحادي والعشرون

شبهات متفرقة

مقدمة

مسألة الإرث والتوارث مسألة طبيعية منطقية جداً فكما أن الآباء والأمهات ينقلون قسماً من صفاتهم الجسمية والروحية إلى أبنائهم حسب قانون الوراثة الطبيعي - فلماذا يستثنى من ذلك أموالهم، فلا تنتقل إلى أبنائهم؟، هذا مضاف إلى أن الأموال المشروعة هي نتاج وسعي الإنسان وأتعبه، فهي في الحقيقة طاقاته المتجسدة في صورة المال وهيئة الثروة، ولهذا لا بد من الاعتراف أن كل شخص هو المالك الطبيعي لنتائج جهوده وثمرة أتعبه وهذا حكم فطري، لذا قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿... يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ...﴾^(١)، فمن حقنا نساء لماذا لا يكون لفاطمة ميراث بعد وفاة أبيها، فهل خرجت فاطمة عليها السلام عن الطبيعي الفطري؟

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

الشبهة الأولى: رواية "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"

نقل أهل السنة في كتبهم المختلفة حديثاً عن النبي ﷺ مضمونه أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» ونقل الحديث في بعض الكتب بحذف الجملة الأولى والاكتفاء بعبارة (ما تركناه صدقة). وسند هذا الحديث ينتهي في كتب أهل السنة المشهور إلى أبي بكر غالباً - إذا تولى بعد النبي ﷺ زمام أمور المسلمين وحين طلبت منه سيدة النساء فاطمة عليها السلام أو بعض أزواج النبي ميراثها منه امتنع عن دفع ميراث النبي ﷺ إليها استناداً إلى الحديث آنف الذكر.

وقد نقل هذا الحديث البخاري في صحيحه الجزء الثامن من كتاب الفرائض صفحة / ١٨٥ / ومسلم في صحيحه الجزء الثالث - كتاب الجهاد والسير صفحة / ١٣٧٩ / وجماعة آخرون في كتبهم^(١).

مما يلفت النظر أن البخاري نقل في صحيحه حديثاً عن عائشة أنها قالت: إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثها من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطلبان أرضيهما من فذك وسهمهما من خبير، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله يقول: لا نورث، ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال. قال أبو بكر: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته. قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت عليها السلام^(٢).

وبالطبع فإن هذا الحديث فيه مجال للنقد والظمن من جهات متعددة

(١) التفسير الكبير للرازي في تفسير الآية: ١١ من سورة النساء.

(٢) صحيح البخاري، ٨ / ١٨٥.

إلا أننا نقتصر على ذكر ما يلي:

الجهة الأولى: إن هذا الحديث فيه لا ينسجم مع نصوص القرآن. ووفقاً للقواعد الأصولية التي عندنا، أن كل حديث لا يوافق كتاب الله ساقط الاعتبار، ولا يمكن التعويل على أنه حديث شريف من أحاديث النبي ﷺ.

ففي قوله تعالى في الآيات التالية: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ...﴾^(١) والآية: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِي يَعْقُوبَ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾^(٣).

وظاهر الآيات الأتفة الذكر مطلق يشمل حتى الأموال ولا سيما ما يخص زكريا فإن كثيراً من المفسرين أكدوا على الأمور المالية، إضافة إلى ذلك فإن ظاهر آيات الإرث في القرآن المجيد في سورة النساء عام ويشمل جميع الموارد.

الجهة الثانية: أن احتجاج فاطمة عليها السلام بعموم قوله تعالى ﴿.. لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ وكأنها أشارت إلى أن عموم القرآن لا يجوز تخصيصه بخبر واحد، وإنما بالمتواتر.

الجهة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ...﴾ وقوله تعالى حكاية عن زكريا: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِي يَعْقُوبَ...﴾.

لا يمكن حمل ذلك على وراثه العلم والنبوة لأن ذلك لا يكون وراثه في الحقيقة، وإنما التوريث لا يتحقق إلا في المال على سبيل الحقيقة هذا

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١.

إذا كانت كلمة (يرثني) مجردة عن القرائن، وهنا مجردة عن القرائن هذا ما قاله الرازي في تفسير الآية / ١١ / من سورة النساء، إضافة إلى ذلك فإن النبوة اصطفاء وتعيين من قبل الله وليست ميراث وكذا العلم لا يورث وإنما يكتسب.

الجهة الرابعة: إن الراوية المتقدمة تعارض رواية أخرى تدل على أن أبو بكر صمم على إعادة فدك إلى فاطمة عليها السلام، إلا أن الآخرين مانعوه، كما نقرأ في سيرة الحلبي: إن فاطمة عليها السلام قالت له: من يرثك؟ قال: أهلي وولدي! فقالت: فما لي لا أرث أبي؟ وفي كلام سبط بن الجوزي! إنه كتب لها بفدك ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبه لفاطمة بميراثها من أبيها. فقال: فماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثم أخذ عمر الكتاب فشقّه ^(١).

ترى كيف يمنع النبي موضوع الإرث وينهى عنه بصراحة، ويجزؤ أبو بكر على مخالفتها؟ ولم يستند إلى الراوية، فلو كانت معروفة لذكرها عمر أمام أبي بكر.

إن التحقيق الدقيق في الراوية الأنفة الذكر - يدل على أن الموضوع لم يكن موضوع نهي النبي عن الإرث، كما أناره أبو بكر، بل المهم هنا المسائل السياسية آنذ، وهذه المسائل هي ما تدعونا إلى أن نتذكر مقالة ابن أبي الحديد المعتزلي إذ يقول: سألت أستاذي (علي بن الفارقي) أكانت فاطمة صادقة؟ يقول المعتزلي فتبسم أستاذي الفارقي ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا مع ناموسه وحرمة وقله دعابته، قال: لو أعطاهما اليوم فدكاً بمجرد

دعواها لجماعت إليه غداً وأدعت لزوجها الخلافة ولم يمكنه الاعتذار بشيء، لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة ولا شهود^(١).

الجهة الخامسة: اختلف المفسرون في معنى (يرثني ويرث من آل يعقوب) قيل يرثني مالي ومال من آل يعقوب عن أئمة أهل البيت وعن ابن عباس وكثير من المفسرين. وقيل يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب عن الحسن ومجاهد، واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة بأن قالوا: إن لفظ الميراث في اللغة العربية والشريعة لا يطلق إلا على ما يتقل من الموروث إلى الوارث كأموال ولا يستعمل في غير المال إلا على طريق المجاز ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة أيضاً، فإن زكريا عليه السلام قال في دعائه: واجعله ربي رضيعاً أي اجعل يا رب ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك ممثلاً لأمرك ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى وكان لغواً وعبثاً، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبياً واجعله عاقلاً مرضياً في أخلاقه لأنه إذا كان نبياً قد دخل الرضا. ويقوي ما قلناه أن زكريا عليه السلام صرح بأنه يخاف بني عمه بعده إذا كانوا من أهل الفساد بقوله: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي» وإنما يطلب وارثاً لأجل خوفه ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم، هذا لو سلمنا أن أرض فدك ميراث لفاطمة وإنما الصحيح من الأخبار هي نحلة (هدية) نحلها الرسول الأكرم ﷺ لفاطمة ولكنها حُرمت منها، كما حرمت من ميراثها بعد وفاة أبيها.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١٦ / ٢٨٤.

مصادر البحث

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي في مسألة الإرث وآياته.
- ٣- تفسير الأمثل لمحقق مكارم الشيرازي في آيات الإرث، (نشر دار إحياء التراث، بيروت)، وقد اقتبسنا منه نصوصاً.
- ٤- صحيح البخاري، (١٥٨/٨).
- ٥- التفسير الكبير للرازي في تفسير الآية (١١ من سورة النساء).
- ٦- سيرة الحلبي، ٣ / ٤٨٨.
- ٧- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١٦ / ٢٨٤.

الشبهة الثانية: فصل الدين عن السياسة والحكومة

مقدمة: من أجل قيادة العالم من قبل الاستكبار العالمي باسم العولمة، ولكي يصبح العالم قبضة حديدية للاستكبار العالمي على دول العالم، نشأت العولمة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبمساعدة الغرب في إدارة السيطرة العسكرية والاقتصادية والثقافية والتربوية والسياسية على العالم من أجل حرق العالم عن مساره الطبيعي وتحويله إلى أداة استكبارية جديدة باسم العولمة لقمع الإنسان والمجتمعات الإنسانية حتى صارت وجهاً جديداً للاستعمار الأمريكي بطريقته الخبيثة من أجل قبول هذا الاستكبار كأمر واقع على العالم والرضوخ له ولو بالمحاصرة والردع الشامل تحقيقاً لقيادة العالم والهيمنة على مقدراته الاقتصادية وتوجهاته التربوية والسياسية والثقافية.

إن الولايات المتحدة الأمريكية تعلم جيداً أن التحدي الحقيقي الذي تواجهه ليس تنظيم القاعدة المتلاشي، ولا نظام صدام الهزيل الذي أسقطته، وإنما الوعي الديني المتنامي للشعوب والمد الإسلامي الثوري، فهي تريد من قواتها في الشرق الأوسط أن تشكل حجر عثرة أساسية أمام أية محاولة من الحركة الإسلامية الثورية لإقامة كيان إسلامي في المنطقة على غرار نظام الجمهورية الإسلامية في إيران يهدد الوجود الغربي - الأمريكي - من هنا فإن أمريكا تعتقد أن مشكلتها الأساسية ليست مع القاعدة الهزيلة، ولا مع حكم صدام الديكتاتوري وإنما مع المد الإسلامي الثوري والصحة الإسلامية في العالم، ومن المهم السيطرة عليه عبر مجموعة إجراءات (وسائل) أهمها:

— الأول: القضاء على سيكولوجية النظام الإسلامي والوعي الديني المتنامي للشعوب، لذا احتلت أفغانستان والعراق لكي تبعث برسالة واضحة تماماً للتيار الإسلامي وحركته الثورية بأنها ما زالت القوة العظمى في العالم وأن قدراتها تفوق قوة التيار الإسلامي وحركته حسب اعتقادها.

— الثاني: اغتياالات رموز هذا المد الإسلامي ومنظماته الثورية، كما حصل في العراق من قتل رموز الحركة الإسلامية الثورية كالشهيد السعيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر رحمته الله والشهيد آية الله العظمى محمد صادق الصدر والشهيد آية الله محمد باقر الحكيم وغيرهم من شهداء الإسلام كآية الله العظمى محمد بهشتي ومطهري وغيرهما ولبنان وإيران وفلسطين وغيرها من دول العالم الإسلامي.

— الثالث: احتلال الدول الإسلامية والسيطرة عليها باستخدام ركائز القوة المتطورة كالتائرات والآلات العسكرية المتطورة لقمع المد الإسلامي في أفغانستان والعراق وغيرهما لغرض محاصرة الجمهورية الإسلامية في إيران رائدة المد الإسلامي، ولكننا نقول لها: إن الحركة الإسلامية الثورية لا تصبر على الظلم والجور ولا بد لها من ردود فعل أمام الاستكبار العالمي لكي تحجّم غرضه وسيطرته على العالم.

— الرابع: السيطرة باستخدام الهيمنة النفسية على الشعوب كوسائل الإعلام جميعها والمساعدات الاقتصادية والثقافية لإيجاد مبررات قناعة الشعوب بأهداف العولمة وتكريس الخضوع للولايات المتحدة الأمريكية ويستدعي ذلك استخدام أنماط علاقات منتظمة، كعلاقات الإغواء والاستدراج والإقناع للجهلاء مع إبقاء هامش فعال من الرعب والخوف والردع والقهر خصوصاً مع الأطراف الضعيفة، وبخلافه تنتقل طريقة

التعامل إلى استخدام ركائز القوة الصلبة لغرض السيطرة على من لا يرضى بالهيمنة النفسية الأمريكية طواعية، ولا يخفى ما في هذا السلوك من تجبر وتكبر وعلو.

— الخامس: استخدام الأساليب التربوية والثقافية والإعلامية التي تدعوا إلى مواصلة مخططات الهيمنة باسم العولمة، ابتداءً من إعداد الشخصيات العلمانية من بين أبناء المسلمين ليرثوا قيادة البلاد الإسلامية بعد خروج الاستكبار، ولمواصلة مخططاته على المدى البعيد وهذا يسمى بالعولمة التربوية والتعليمية، وقد ثبت لدى الاستكبار العالمي أن السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية في الفترات الماضية لا تعطى الثمار والفوائد المطلوبة لديه على المدى الطويل، فلذا قرر الاستكبار العالمي من تغيير فكرته العسكرية إلى وسائل التربية والثقافة والإعلام لقيادة العالم، إلا أن أمريكا وحلفاءها الغربيين وأذئابها الإقليميين والعلمانيين تغابوا كثيراً عندما تصوروا أنهم قادرون على صناعة هوية جديدة وفرضها على المجتمعات الإسلامية، وهي زهو صحتها وتجدد أصالتها الدينية ووعيتها لمهامها الرسالية الذي جسده بروح المقاومة العنيدة رغم كل ما تمارسه بعض أنظمتها الحاكمة من أساليب القمع للرأي ومحاصرة فكرها وثقافتها الإسلامية وردع حركتها الرسالية وأبرز نماذجها المعاصرة الجمهورية الإسلامية في إيران بتيارها الثوري شعباً وقيادة، ولبنان برمزه الرائد حزب الله والعراق برمزيه الرائدین المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة الإسلامية في العراق، وفلسطين بفصائلها الجهادية المقاومة.

— السادس: استخدام وسيلة فصل الدين عن السياسة والحكومة لما يتصوره أو ما يصوره أصحاب العولمة وأصحاب النظرة الضيقة للناس من

أن الدين مجموعة من النصائح والمواعظ، أو المسائل الخاصة بالحياة الشخصية للإنسان ومنها مسائل العبادة.....

والجواب عن هذه الشبهة وخلافاً لما يتصوره أو يصوره الاستكبار العالمي وأصحاب النظرة الضيقة من العلمانيين وغيرهم، من أن الدين عبارة عن مجموعة من الإرشادات والنصائح والمواعظ والحكم أو المسائل الخاصة بالحياة الشخصية للإنسان، ومنها مسألة العبادة وارتباطها بربها والمسجد.

بل هو مجموعة من القوانين والمناهج الحياتية والحيوية التي تستوعب جميع مسائل الحياة، حياة الإنسان الخاصة والعامّة، الخاصة مع نفسه أو مع ربه والعامّة مع مجتمعه أو مع المجتمعات الأخرى أو مع الدولة والحكومة ومنها المسائل الاجتماعية والسياسية والتربوية والثقافية والأخلاقية... و... و.....

وبعبارة أخرى أن الدين منهج كامل شامل للحياة من قبل الله تعالى للإنسان، ويستدل على أن الدين شامل للحياة، ولا يمكن فصله عن السياسة والحكومة بأدلة عديدة أهمها:

الدليل الأول: أن الأنبياء (عليهم السلام) بعثوا لإقامة القسط والعدل كما في الآية: (٢٥) من سورة الحديد إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿لِيُقْوَمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾، فمن ذا يستطيع أن يقيم العدل والقسط بين الناس بمجرد النصائح والإرشاد، من دون حكومة ودولة؟

الدليل الثاني: أن وظيفة الأنبياء (عليهم السلام) أن يضعوا الأغلال عن الناس التي كانت عليهم من قبل المستكبرين والظالمين فيتمتعوا

بالحرية، كما أشارت إلى ذلك الآية: (١٥٧) من سورة الأعراف ﴿.. وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ فمن ذا يستطيع أن يضع الإصر والأغلال عن أيدي الناس دون الاستناد إلى الحكومة والدولة والقدرة الشاملة؟

الدليل الثالث: أن الدين رحمة للعالمين ومنجاة للمستضعفين ومخلص لهم من نير المتكبرين الظالمين، فمن ذا يستطيع أن يقطع أيدي الظالمين عن المستضعفين من دون حكومة ودولة.

الدليل الرابع: أن وظيفة الأنبياء (عليهم السلام) إصلاح المجتمع من الفساد بمختلف أشكاله وأنواعه، وهذا لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المکر كما أشارت إليه الآية (١٥٧) من سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وهذا لا يتم بإقامة الحكومة والدولة.

الدليل الخامس: أن الدين مجموعة من التعاليم التربوية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية الصحيحة في مسيرة تربية الإنسان والراقي به نحو الكمال، كما أشارت إليه الآية: (٢) من سورة الجمعة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

الدليل السادس: أن إقامة الحدود والدييات والتعزيزات لا تتم إلا بإقامة الحكومة وبسط اليد عليها.

وبديهي أن هذه الأهداف الكبرى والوظائف العظمى لا يمكن أن

تتحقق دون إقامة الحكومة! فمن ذا يستطيع أن يقيم العدل والقسط بين الناس بمجرد النصائح والمواعظ والتوصيات الأخلاقية؟ أو أن يقطع أيدي الظالمين عن المستضعفين، وينشر الحرية والسلام والأمن والاطمئنان دون الاستناد إلى قدرة كاملة وحكومة شاملة؟ ومن ذا يستطيع أن يضع الإصر والأغلال عن أيدي الناس ورجليهم دون الاستناد إلى قدرة شاملة!

ومن يستطيع أن ينشر الثقافة الصحيحة والمسائل التربوية في مجتمع يشرف عليه المفسدون والظالمون فيمنح القلوب الملكات الأخلاقية؟ وهذا هو ما نقوله بأن الدين لا ينفصل عن السياسة والحكومة، فإذا انفصلت السياسة عن الدين تبدلت إلى عنصر مخرب يستغله أصحاب المنافع الشخصية! إضافة إلى هذه الأدلة أنفة الذكر دليل واقعي من السيرة النبوية هو أن النبي الأكرم ﷺ إنما وفق لنشر هذا الدين القيم السماوي في أرجاء العالم بسرعة لأنه أسس حكومته في المدينة المنورة، وتابع أهدافه الإلهية عن طريق الحكومة الإسلامية. وهناك بعض الأنبياء ممن نال مثل هذا التوفيق كيوسف وسليمان وموسى (عليهم السلام) فنشروا دعوتهم الحقّة إلى الله في الأرض بإقامة الحكومة، أما من لم تسمح لهم الفرصة بإقامة حكومة إلهية، فإنهم لم يحالفهم التوفيق كثيراً في نشر رسالتهم الإلهية، والحاصل أن الدين لا ينفصل عن السياسة والحكومة لا كما يصوره النظام الاستبدادي الأمريكي ورموزه لنا أن مجموعة طقوس عبادة يؤديها الإنسان في معبده وصومعته أو كنيسته أو مسجده ليتخذ التجهيل والتظليل سياسة له وغاية لاستعباد الأمة الإسلامية، وتطويع إرادتها لإرادته لیسود حتى يفرق ويفسد، وبهذا يتحقق ما يريد، وقد استطاعت السلطة الاستكبارية تسخير العلمانيين وبعض وعاظ وتجار الدين وتوظيفهم لتضليل الأمة وتعطيل

إرادتها بفصل الدين عن السياسة ويسبب دورهم الخطير في إسباغ الشرعية على نظام العولمة بقيادة الشيطان الأكبر وذلك بانتحال النصوص الشرعية بما يخدم سياسة الاستكبار العالمي ومن هذه النصوص والشعارات مناداتهم بفصل الدين عن السياسة ولكن بحمد الله تعالى وبوعي الأمة وامتداد الوعي الإسلامي وعمل العاملين تم منع تمرير أساليبه الشيطانية المفسدة والخيثة على الأمة الإسلامية، وقد أثبتنا أن الدين لا يفصل عن السياسة فهما متلازمان.

الشبهة الثالثة: في عصمة موسى ﷺ

قالوا: ألم يكن عمل موسى (قتل القبطي) هذا مخالفاً للعصمة؟

للمفسرين أبحاث كثيرة مذيبة وطويلة في شأن المشاجرة التي حدثت بين القبطي والإسرائيلي وقتل موسى للقبطي. وبالطبع فإن أصل هذا العمل ليس مسألة مهمة عند المفسرين، لأن الظلمة الأقباط والفراعنة المفسدين الذين قتلوا آلاف الأطفال من بني إسرائيل ولم يحجموا عن أية جريمة ضد بني إسرائيل، إنما المهم عند علماء التفسير هو تعبيرات موسى ﷺ التي وكّدت إشكالات عندهم. فهو تارة يقول: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، وفي مكان آخر يقول: ﴿.. رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي...﴾^(١) فكيف تنسجم أمثال هذه التعابير مع عصمة الأنبياء حتى قبل بعثتهم ورسالتهم؟. ولكن هذه الإشكالات تزول بالتوضيح المتقدم في تفسير الآية الأنفة، وهو أن ما صدر من موسى ﷺ هو من قبيل ترك الأولى (النهي الإرشادي)، إذ كان

(١) سورة القصص، الآية: ١٥-١٦.

عليه أن يحتاط قبل أن يضرب القبطي فلم يحتط، فأوقع نفسه في مشاكل جانية، لأن قتل القبطي لم يكن أمراً هيناً حتى يعفوعه الفراعنة.

ونعرف أن ترك الأولى لا يعني أنه عمل حراماً ذاتاً، بل يؤدي إلى ترك عمل أهم وأفضل، دون أن يصدر منه عمل مخالف للشرع. ونظير هذه التعبيرات ما ورد في بعض قصص الأنبياء ومن جملةهم آدم عليه السلام، راجع قصته في القرآن الكريم.

ونقرأ من حديث الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير الآيات المتقدمة في مجلس المأمون.

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾. يعني الاقتال الذي وقع بين الرجل القبطي والإسرائيلي لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله الرجل القبطي. «إنه» يعني الشيطان «عدو مضل مبین».

وأما المراد من جملة - ﴿.. رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي...﴾ يعني أن موسى عليه السلام يريد أن يقول: ربّ إنّي وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة ﴿.. فَاغْفِرْ لِي...﴾ «أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلونني...»^(١).

الشبهة الرابعة: التقية من النفاق

والجواب: أنّ التقية ليست من النفاق وإنما من الإيمان، لأن المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والمتقي يظهر الكفر ويبطن الإيمان ولذا سميت التقية

(١) راجع أخبار الرضا طبقاً كما ورد في تفسير نور الثقلين: ١١٩/٤.

بكتمان الاعتقاد أو بكتمان اعتقاد الإيمان كما في سورة غافر، الآية: (٢٨) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...﴾، والتقية ليست من الضعف والجبن أو الخوف كما يظن البعض بل غالباً ما توظف كأسلوب مؤثر في الإدارة مع الظالمين والجبارين والظغاة، إذ أن كشف أسرار العدو لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الأشخاص الذين يعملون بأسلوب التقية وكذلك الضربات الموجهة والمباغثة للعدو لا يتم إلا عن طريق التقية وكتمان الخطط وأساليب الصراع. لقد كانت تقية مؤمن آل فرعون من خدمة دين موسى ﷺ والدفاع عنه في اللحظات الصعبة، ثم هل هناك أفضل من أن يحظى الإنسان بشخص مؤمن بقضيته ودعوته يزرعه في جهاز عدوه بحيث يستطيع من موقعه أن ينفذ إلى أعماق تنظيمات العدو ويحصل على المعلومات والأسرار ليفيد بها قضيته ودعوته ويخبر بها أصحابه، وهذا ما يسمى في عصرنا بالأمن والمخابرات التي تستخدمها جميع الدول فإذن التقية في الحياة أداة مؤثر في الصراع بين الدول وفي الدين أداة مؤثرة في الصراع بين الحق والباطل.

ويستدل أصحابنا على أن التقية من الدين بالأدلة التالية:

الدليل الأول: من الآيات القرآنية منها: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِرْكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(١) وهذه الآية تعطينا درساً سياسياً واجتماعياً، فنحذرننا من اتخاذ الكافر وخاصة الحربي صديقاً أو عوناً في أي عمل من أعمالنا ولا ننخدع بكلامه المعسول وعروضه الجذابة وتظاهره بالمحبة الحميمة ﴿..إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً..﴾ هذا استثناء

من الحكم المذكور إذا اقتضت الظروف، فللمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾^(١).

الآية الأنفة الذكر تجيز للمسلم صراحة أن يمتنع عن إعلان الحق مؤقتاً وأن يؤدي واجبه في الخفاء حين يعرضه ذلك للخطر في النفس والمال والعرض وحين لا يكون للإعلان نتيجة مهمة وفائدة كبيرة، فلا بد من الإشارة إلى أن حكم التقية يختلف باختلاف الظروف، فهي قد تكون واجبة وقد تكون حراماً وقد تكون مباحة، تجب التقية حينما تتعرض حياة المؤمن للخطر، أما إذا كانت التقية سبباً في ترويح الباطل وضلالة الناس وإسناد الظالم فهي هنا حرام، ذكر المفسرون في شأن نزول الآية الأنفة الذكر، أنها نزلت في جماعة أكرهوا وهو عمار وأبوه ياسر وأمه سمية وصهيب وبلال وخباب عذبوا وقتل أبو عمار وأمه وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ﷺ فقال قوم كفر عمار؛ فقال رسول الله ﷺ: كلا، «إن عماراً ملء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال النبي ﷺ: ما وراءك؟ فقال شرٌّ يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» فنزلت الآية.

الدليل الثاني: أن التقية في موضعها المناسب حكم عقلي قاطع ويتفق مع الفطرة الإنسانية.

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

الدليل الثالث: من سيرة الرسول الأعظم: إن الرسول الأعظم التزم بنفسه هذا المبدأ حينما أبقى دعوته سرية لبضع سنوات في مكة وحينما ازداد أتباعه وتشكلت النواة الإيمانية الأولى القادرة على الدعوة الجديدة صدق ﷺ بأمره تعالى أمام القوم.

الدليل الرابع: من سيرة الأنبياء الآخرين: نرى إبراهيم عليه السلام الذي استخدم أسلوب التقية ووظف هذا المبدأ في عمله الشجاع الذي حطم فيه الأصنام والأفلولا التقية لم يكن بوسعه أن ينجح في عمله أبداً.

الدليل الخامس: من سيرة الأئمة: فقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له؛ والتقية ترس الله في الأرض، لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»^(١).

الدليل السادس: سيرة أبي طالب عليه السلام: استفاد من أسلوب التقية في حماية الرسول الأعظم ودعوته الناشئة، إذ لم يعلن عن صريح إيمانه إلا في مواقف خاصة كي يستطيع النهوض بأعباء دوره في حفظ حياة الرسول ﷺ ودينه. من هنا يظهر أن التقية ليست خاصة بالشيعة وإنما هي موجودة في جميع المذاهب دون استثناء.

الدليل السابع: الدليل العقلي: العقل يقبح اقتحام الإنسان في الضرر ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

(١) مجمع البيان: ٨ / ٥٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

الشبهة الخامسة: إقرار القرآن تسخير الإنسان لأخيه الإنسان

عند مطالعة الآية (٣٢) من سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا...﴾ تتبادر إلى الذهن شبهة يستخدمها أعداء الإسلام كحرية للطنن في الفلسفة الإسلامية.

فيسأل سائلهم: كيف أقر القرآن استخدام الإنسان وتسخيره من قبل الإنسان؟ ألا يمانل هذا نظام طبقات العبيد ونظام الطبقات الاقتصادية، أي نظام المستثمرين، إن الإجابة على هذا السؤال تتضح بالتدقيق في متن الآية، لأن هؤلاء يتصورون أن معنى الآية هو أن جماعة معينة من البشر تسخر جماعة أخرى لأنفسها تسخيراً ظالماً يمتصّ الدماء والجهود، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل هو استخدام الناس بعضهم بعضاً، أي أن كل جماعة من الناس لهم إمكانيات واستعدادات خاصة يستطيعون العمل بواسطتها في مجال ما من شؤون الحياة وهم بطبيعة الحال يقدمون خدماتهم في ذلك الحقل إلى الآخرين، كما أن خدمات الآخرين في الحقول الأخرى تقدم إليهم.

والخلاصة: هو استخدام متبادل، وخدمة ذات طرفين وبتعبير آخر فإن الهدف من التسخير هو التعاون في أمر الحياة ولا شيء آخر، ولقد نسي هؤلاء أن حياة البشر حياة اجتماعية، ولا يمكن أن تدار هذه الحياة إلا عن طريق التعاون والخدمة المتبادلة كما لا يخفى أن البشر لو كانوا متساوين جميعاً من ناحية الذكاء والاستعداد الروحي والجسمي، فسوف لن تنهياً

مستلزمات الحياة الاجتماعية والنظم الحياتية مطلقاً، كما أن خلايا جسم الإنسان لو كانت متشابهة من ناحية التركيب والرقّة والمقاومة لاختل نظام الجسم، فأين خلايا عظم كعب القدم القويّة جداً من خلايا العين الرقيقة؟ إن لكل من هاتين مهمّة خاصة بنيت على أساسها.

والمثال الحي الذي يمكن أن يضرب لهذا الموضوع هو الخدمات المتبادلة في جهاز التنفس ودوران الدم، والتغذية، وسائر أجهزة بدن الإنسان التي هي مصداق واضح لـ (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) في إطار نشاطات البدن الداخلية، فهل يمكن الإشكال على مثل هذا التسخير؟ وهل فيه خلل أو نقص؟

فإن قيل: إن جملة: (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) دليل على عدم العدالة الاجتماعية.

قلنا: هذا يصح في حالة تفسير العدالة بالمساواة في حين أن العدالة تعني وضع كل شيء في محله ضمن منظومته؛ فهل أن وجود سلسلة الرتب والمراجع في فرقة عسكرية أو تنظيم إداري في الوزارة أو في الدولة دليل على وجود الظلم في تلك الأجهزة أو على وجود الإنسان المناسب في المكان المناسب؟

من الممكن أن يستعمل بعض الناس كلمة «المساواة» في مجال الشعارات من دون الالتفات إلى معناها الواقعي، أما في الواقع العملي فلا يمكن لأن يتم أو يقوم أي نظام بدون الاختلاف والتفاوت غير أن هذا التفاوت يجب أن لا يكون ذريعة لأن يستغل الإنسان أخاه الإنسان أبداً، بل يجب أن يكون الجميع أحراراً في استعمال قواهم الخلاقة

وتنمية نبوغهم وإبداعهم والاستفادة من نتائج نشاطاتهم بدون زيادة أو نقصان.

نعم المساواة في إيجاد فرص العمل لجميع الناس القادرين عليه من قبل الدولة الإسلامية ووضع الإنسان المناسب في المكان المناسب من العدالة.

وأما في حال عجز بعض الناس عن العمل بسبب مرض أو شيخوخة أو غيرهما، فيجب على القادرين أن يجتهدوا ويجهدوا في رفع نواقص العجزة وسد ما يحتاجونه من الصدقات الواجبة والمستحبة وهذا ما يسمى في النظام الإسلامي الخالد بالضمان الاجتماعي.

الشبهة السادسة:

شبهة عدم السعي في طلب الرزق ما زال تقسيمه بيد الله تعالى

عند مطالعة الآية التالية من قوله تعالى: ﴿.. نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿.. نَزَّلْنَاهُمْ وَإِيَّاكُمْ...﴾^(٢)، وغيرها.

يتبادر إلى الذهن سؤال يستخدمه أعداء الإسلام كشبهة وحرية للطعن في الفلسفة الإسلامية.

والسؤال هو أن الأرزاق والمعاش إذا كانت مقسمة من قبل الله تعالى، فأى ثمرة يمكن أن تنتج عن جهودنا ومساعدتنا؟

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

ألا يعني هذا إطفاء مشاعل السعي ومصابيح الجهاد من أجل الحياة؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن المحافظة على شعلة الجهاد والسعي والاجتهاد وهاجة مع كون الرزق معيناً من قبل الله تعالى؟ فإن الاشتباه ناشئ من تصورهم أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لسعي الإنسان واجتهاده أي أثر أو دور.

صحيح أن الله خلق القابليات متفاوتة لمختلف النشاطات وصحيح أن العوامل الخارجية عن إرادة الإنسان مؤثرة في مسيرة حياته، لكن مع ذلك فإنه سبحانه قد جعل سعيه واجتهاده أيضاً أحد العوامل الأساسية، وأوضح سبحانه ببيان أصله ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١)، أن سعادة الإنسان وما يجنيه ويحصل عليه يرتبط بسعيه واجتهاده، ويتوفيق من الله تعالى التي قدرته وقوته تسير مع الإنسان لا تنفصل عنه لأنه خالقه. وعلى أية حال، فإن النكتة الفاضلة والدقيقة تكمن في أن البشر ليسوا كالأواني المتساوية الصفات التي صنعت في معمل واحد في شكل واحد، وبحجم واحد، ولغاية واحدة في الاستعمال، ولو كانوا كذلك لما أمكنهم التعايش بعضهم مع البعض الآخر يوماً واحداً.

وأيضاً ليس من قبيل أجهزة وأدوات سيارة نظمها مهندسها على هيئة ما، فهي تقوم بعملها إجبارية، بل لديهم حرية الإرادة وعليهم مسؤولية وواجب في نفس الوقت الذي تختلف فيه قابليتهم ولياقتهم، وهذا هو المركب الخاص يسمونه الإنسان، والاعتراضات والإيرادات التي تطرح غالباً تنبع من عدم معرفة هذا الإنسان.

وخالصة القول: إن الله سبحانه لم يفضل أي إنسان على آخر من كل الجهات، بل إن جملة: «رفع بعضهم فوق بعض درجات» إشارة إلى الامتيازات التي تمتاز بها كل جماعة على الجماعة الأخرى، وتسخير كل فئة لأخرى واستخدامها لها نابع من هذه الامتيازات تماماً، وهذا عين العدالة والتدبير والحكمة، ولولاها لما كان تنظيم حياة الإنسان ممكناً.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- ١- ابن تيمية في صورته الحقيقية، صائب عبد الحميد، دار الغدير - بيروت ط١ - ١٤١٥هـ
- ٢- الإنتقان في علوم القرآن ٤٠/٢، السيوطي، مطبعة المشهد الحسيني - ط١-١٣٨٧ هـ - القاهرة
- ٣- إحقاق الحق، السيد المرعشي التنسري، ط١ مطبعة الخيام قم - ١٤٠٤هـ
- ٤- الأحكام السلطانية، محمد الفراء، طبعة الحلبي بمصر ١٣٧٥هـ مكتبة الإعلام الإسلامي - ط٢ - ١٤٠٦هـ. قم.
- ٥- أحكام القرآن، الجصاص، ١٠٩/٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت ط١ - ١٤٠٥هـ
- ٦- الأحكام في أصول الأحكام، الأمدي، ٢١٧/٣ دار إحياء التراث العربي ط١ بيروت ١٤١٥هـ
- ٧- إرشاد الساري، ابن تيمية، دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٤١٧هـ
- ٨- إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، مقداد السيوري، مطبعة سيد الشهداء - قم - ١٤٠٥هـ
- ٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مطبعة مصطفى - ١٣٥٨هـ
- ١٠- أسد الغابة، ابن الأثير، المطبعة الإسلامية - طهران - ط٢ ودار إحياء التراث العربي - ط١ - بيروت - ١٤١٧هـ
- ١١- أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب، محمد الجزري، مكتبة الإمام أمير المؤمنين - أصفهان
- ١٢- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الجيل - ط١ - بيروت - ١٤١٢هـ

- ١٣- أصول الدين، محمد حسن آل ياسين، مؤسسة قائم آل محمد ط ١ - ١٤١٣هـ - قم
- ١٤- أصول الدين ص ٢٧٧، أبي منصور البغدادي، دار الكتب العلمية - بيروت مطبعة الدولة - اسطنبول - ١٣٤٦هـ
- ١٥- أصول العقائد في الإسلام، مجتبي الموسوي اللاري، مركز الثقافة الإسلامية - قم
- ١٦- أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار الأسوة - قم - ١٤١٨هـ
- ١٧- الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركلي، ط ٣ - بيروت - المطبعة الخاصة للسيد كمال الموسوي ١٩٠٣م
- ١٨- آلاء الرحمن في تفسير القرآن، محمد جواد البلاغي، مؤسسة البعثة - قم ط ١ - ١٤٢٠هـ
- ١٩- الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، المركز العلمي للدراسات الإسلامية - ط ٤ - قم - ١٤١٣هـ والدار الإسلامية - ط ١ - ١٤١٠هـ - بيروت
- ٢٠- الإمامة الإلهية، الشيخ محمد سند، دار الغدير - بيروت ط ١ - ١٤١٦هـ
- ٢١- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - ١٣٨٨هـ - الطبعة الأخيرة مصر
- ٢٢- الإمامة والولاية في الإسلام، السيد علي الخامنئي، دار الفرات - ط ١ - بيروت - ١٤١٠هـ
- ٢٣- الأمثل في تفسير القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة - بيروت - ط ١ - ١٤١٣هـ
- ٢٤- الانتصار - مناظرات الشيعة في شبكات الانترنت، العاملي، دار السيرة بيروت - ط ١ - ١٤٠٦هـ
- ٢٥- أنساب الأشراف، أحمد البلاذري، مطبعة فلسطين - ١٩٣٨م

- ٢٦- الانوار النعمانية، نعمة الله الجزائري، شركة جاب - تبريز
- ٢٧- ايمان أبي طالب (مصنفات الشيخ المفيد)، الشيخ المفيد، مؤسسة البعثة - قم - ط ١ - ١٤١٢هـ
- ٢٨- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، دار الأسوة - قم - ١٤١٤هـ
- ٢٩- بحث حول المهدي، محمد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر - ط ١ - قم - ١٤٢٣هـ
- ٣٠- البداية والنهاية، ابن كثير، مطبعة السعادة - مصر - ط ١ - ١٩٣٢م
- ٣١- البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، ج ١ ط ١ - المطبعة العلمية في النجف
- ٣٢- التاج الجامع للأصول، القسطلاني، دار إحياء التراث العربي ط ١ بيروت ١٤١٥هـ
- ٣٣- تاج العروس، محمد الزبيدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٨٥هـ
- ٣٤- تاج اللغة، الجوهري، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ
- ٣٥- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ط ٢ - ١٩٥٩م - مطبعة السعادة - مصر
- ٣٦- تاريخ الخميس، حسين بن محمد الديار بكري، المطبعة الوهيبية مصر - ١٢٨٣هـ
- ٣٧- تاريخ الطبري، (تاريخ الأمم والملوك)، محمد الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤٠٧هـ
- ٣٨- تاريخ المدينة المنورة، عمر بن شبه، دار الفكر - قم
- ٣٩- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٤٠- تاريخ دمشق، ابن عساكر، يراجع القرص الليزري - الإصدار الأول - ١٩٩٨م
- ٤١- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي، مكتب الإعلام الإسلامي - قم - ١٤٠٩هـ
- ٤٢- تذكرة الخواص - ص ٢٣٥، ابن الجوزي، دار الفكر - ط ١ - بيروت - ١٤٠١هـ

- ٤٣- تطهير الاعتقاد، الصنعاني، دار العلم - الرياض - ط ١ - ١٤١٤هـ.
- ٤٤- تفسير البرهان، السيد هاشم البحراني، مؤسسة البعثة - قم - ط ١ - ١٤١٥هـ.
- ٤٥- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤١٥هـ.
- ٤٦- التفسير الكبير، الرازي، المطبعة البهية المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٣٥٧هـ.
- ٤٧- التمهيد ص ١٨١، القاضي أبي بكر الباقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ط ١ ١٤١٥هـ.
- ٤٨- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر - بيروت - ط ١.
- ٤٩- تهذيب الكمال، أبو الحجاج المزني، مؤسسة الرسالة - ط ١ - بيروت ١٤٠٠هـ.
- ٥٠- التوحيد للشيخ الصدوق، الشيخ الصدوق، نشر جماعة المدرسين - قم، طبعة ١٣٧٨هـ.
- ٥١- جامع أحاديث الشيعة، إسماعيل الملايري، قم - ط ١ - ١٤١٣هـ.
- ٥٢- جامع الأصول، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي - ط ٤ - ١٤٠٤هـ - بيروت.
- ٥٣- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي - ط ١، بيروت - ١٤١٦هـ.
- ٥٤- الجواهر المضيئة، أبي الوفاء، نشر مير محمد - كتب خانة، كراتشي - ط ٢.
- ٥٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، ط ٤ دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥هـ.
- ٥٦- الحموية الكبرى، الحموي، مطبعة المدني - القاهرة - ط ١ - ١٣٨٤هـ.
- ٥٧- حياة الإمام الرضا، للقرشي، دار سعيد بن جبير - ط ٢ - ١٣٨٠هـ - قم.
- ٥٨- الخصائص الكبرى، جلال الدين السيوطي، مطبعة مجلس دار المعارف النظامية - مصر.
- ٥٩- الدر المشور في التفسير بالمأثور، السيوطي، المطبعة الإسلامية - طهران.
- ٦٠- دروس في العقيدة الإسلامية، مصباح يزيد، مؤسسة الهدى للنشر - ط ٢ - ١٤٢١هـ.

- ٦١- دلائل الصدوق، محمد المظفر، ط ١٣٩٥هـ - مشورات مكتب بصيري - قم
- ٦٢- دلائل الصدوق ج ٢ / ٤، محمد حسين المظفر، دار المعلم للطباعة ط ١ - ١٣٩٦هـ
- ٦٣- الذريعة إلى تضامین الشيعة، آغا بزرك الطهراني، جابخانه - ط ١ - طهران - ١٣٧٤هـ
- ٦٤- روافد الإيمان، نجم الدين الطبسي، دار الولاء - بيروت ط - ٢٠٠٢م
- ٦٥- الرياض النصره في مناقب العتره، أحمد الطبري، ط ١ - ١٩٩٦م - نشر دار الغرب الإسلامي - بيروت
- ٦٦- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر - بيروت ١٤١٥/١هـ
- ٦٧- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، نشر دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٦هـ
- ٦٨- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، محمد بن عيسى الترمذي، مطبعة المدني - القاهرة - ١٣٨٤هـ
- ٦٩- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد البيهقي، طبعه ١٤١٤هـ - نشر مكتبة دار الباز - مكة
- ٧٠- سنن النسائي - شرح السيوطي، أحمد بن شعيب النسائي، دار الفكر - بيروت - ١٣٤٨هـ
- ٧١- سيرة أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، ط ٩ - ١٤١٣هـ - نشر مؤسسة الرسالة - بيروت
- ٧٢- السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي، طبعه ١٩٢٦م - مطبعة الاستقامة - القاهرة
- ٧٣- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، ط ١ - دار الجيل - بيروت
- ٧٤- السيرة النبوية، ابن هشام، ٥٣٠/١ طبعه الحلبي - مصر - ١٣٧٥هـ
- ٧٥- شرح العقائد النسفية، عمر بن محمد النسفي، ٢٧٢/٢ طبعه اسطنبول
- ٧٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، نشر دار إحياء الكتاب العربي
- ٧٧- شواهد التنزيل، الحاكم، دار الكتب العلمية - بيروت ط ٢ - ١٩٩٤م

- ٧٨- شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، ط ١ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
- بيروت - ١٩٧٤هـ
- ٧٩- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير -
بيروت ط ٣ - ١٤٠٧هـ
- ٨٠- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث - بيروت
- ٨١- صفوة الصفوة، أبو الفرج الأصفهاني، دار المعرفة - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٩هـ
- ٨٢- الصواعق المحرقة، أحمد بن حجر، دار الطباعة المحمدية - القاهرة
- ٨٣- طبقات الحنابلة، القاضي أبو يعلى، طبعة ١٩٥٢م - مطبعة السنة المحمدية -
القاهرة
- ٨٤- طبقات الشافعية الكبرى، ابن السبكي، ط ١ - المطبعة الحسينية المصرية الشهيرة
- ٨٥- الطبقات الكبرى، ابن سعد، نشر دار صادر - بيروت
- ٨٦- الطرائق في التعليق على شرح المواقف، علي الميلاني، دار الشريف الرضي -
قم - ط ١ - ١٤١٢هـ
- ٨٧- عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف -
١٣٨١هـ
- ٨٨- العقد الفريد، ابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة - القاهرة
- ٨٩- عقيدة الشيعة - ص ٣٢٨، المستشرق رونالدسون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات -
بيروت ط ١ - ١٩٩١م
- ٩٠- علل الدارقطني، علي بن عمر الدارقطني، دار طيبة - الرياض - ط ١ - ١٤٠٥هـ
- ٩١- العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن حنبل، ط ١ - ١٤٠٨هـ - تحقيق وحسي الله بن
محمد عباس
- ٩٢- عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، طبعة ١٩٧٠م - المطبعة الحيدرية - النجف
الأشرف
- ٩٣- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٣

- ٩٤- الغيبة، السيد محمد صادق الصدر، دار الكتاب قم / ١٣٩٥هـ
- ٩٥- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر، دار المعرفة - بيروت - طبعة ١٣٧٩هـ
- ٩٦- فتوح البلدان للبلاذري، بابا عطايا عمبر، المطبعة المصرية بالأزهر - ط ١ - ١٣٥٠هـ
- ٩٧- فرقان القرآن ص ١٣٣، دار إحياء التراث العربي ط ١ - بيروت ١٤١١هـ
- ٩٨- الفضائل، شاذان بن جبرائيل، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف - ١٣٨١هـ
- ٩٩- فضائل الصحابة، عبد الله بن أحمد بن حنبل، ط - ١٤٠٣هـ - نشرة مؤسسة الرسالة - بيروت
- ١٠٠- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الأحياء التراث الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٤١٧هـ
- ١٠١- القرآن الكريم، كلام الله تعالى، دار الهادي - بيروت ط ١ - ٢٠٠٢م
- ١٠٢- قضاء أمير المؤمنين ص ٧٨، محمد نقي التستري، المطبعة الحيدرية - النجف
- ١٠٣- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، نشر مكتبة الصدوق - طهران
- ١٠٤- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر - بيروت - ١٩٦٥م
- ١٠٥- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ١٤٥/٢ - الطباعة المنيرية - القاهرة - ط ١ - ١٣٤٨هـ
- ١٠٦- الكيانات ص ٢٣٨، الذهبي، ط ١ - ١٤١١هـ - الدار المتحدة - دمشق
- ١٠٧- كشف الارتباب، السيد محسن الأميني، ط ٣ - قم - كتابخانه بزرگ إسلامي
- ١٠٨- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي، مؤسسة النشر الإسلامي - ط ٧ - قم - ١٤١٧هـ
- ١٠٩- كنز العمال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة - بيروت
- ١١٠- لسان العرب، ابن منظور، ط ١ - دار صادر - بيروت
- ١١١- لسان الميزان، ابن حجر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط ٣ - ١٤٠٦هـ

- ١١٢- لسان الميزان ٢٧٧٥، ابن حجر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط٣ - ١٤٠٦هـ.
- ١١٣- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن بن الطبرسي، دار الأحياء التراث العربي - بيروت
- ١١٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث، القاهرة - ١٤٠٧هـ.
- ١١٥- المدخل إلى السنن الكبرى، أحمد بن حنبل، نشر مؤسسة قرطبة - مصر - مؤسسة الرسالة - ط٢ - ١٤٢٠هـ.
- ١١٦- المراجعات، عبدالحسين شرف الدين، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٤٠٧هـ.
- ١١٧- مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي، دار الفكر - بيروت - ط١ - ١٤١٧هـ.
- ١١٨- المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم، ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت
- ١١٩- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، نشر مؤسسة قرطبة - مصر - مؤسسة الرسالة - ج٢ - ١٤٢٠هـ.
- ١٢٠- المصنف لعبد الرزاق، عبد الرزاق الضعائي، نشر المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ - ١٤٠٣هـ.
- ١٢١- المعارف، ابن قتيبة، مطبعة دار الكتب - طبعة ١٩٦٠هـ.
- ١٢٢- معاني القرآن، للفراء، ١٣٤٨٣ مطابع سجل العرب - القاهرة - تحقيق محمد علي النجار
- ١٢٣- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، نشر دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥هـ - ط١
- ١٢٤- المعجم الصغير، سليمان بن أحمد الطبراني، نشر المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ - ١٤١٥هـ.
- ١٢٥- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، ط٢ - نشر مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ١٤٠٤هـ.

- ١٢٦- مقالات الإسلاميين، دار النشر فرائز شتايز، بغينبادن .. تصحيح هلموت ريتز - ١٤٠٠هـ
- ١٢٧- مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصبهاني، طبع المكتبة الحيدرية - النجف
- ١٢٨- الملل والنحل للسبحاني، للسبحاني، مؤسسة النشر الإسلامي ط٤ - قم - ١٤١٦هـ
- ١٢٩- الملل والنحل للشهرستاني، أبي الفتح الشهرستاني، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٤
- ١٣٠- المناقب، الخوارزمي، نشر مؤسسة النشر الإسلامي - ط٢
- ١٣١- مناهل العرفان ص ٢٥٧، نشر مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط١ - ١٤١٦هـ
- ١٣٢- المتظلم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ٣٨٣/١٣ دار الكتب العلمية - بيروت ط٢ - ١٤١٥هـ
- ١٣٣- المتقى لابن الجارود، عبد اللدين علي بن الجارود، مؤسسة الكتاب الثقافية - بيروت - ط١ - ١٤٠٨هـ
- ١٣٤- منهاج السنة ٢٥٠/١، ابن تيمية، دار الفكر - بيروت - ط٢
- ١٣٥- المهدي، صدر الدين الصدر، دار الكتاب - قم - ١٣٩٥هـ
- ١٣٦- الموافقات، أبي إسحاق الشاطبي، ١٠٦/٢ دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٧هـ
- ١٣٧- مواقف الشيعة ٣٩٩/١، علي الأحمد، مؤسسة النشر الإسلامي - ط١ - ١٤١٦هـ
- ١٣٨- المواهب اللدنية، دار العلم - الرياض - ط١ - ١٤٠٥هـ
- ١٣٩- موطأ مالك، مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي - مصر
- ١٤٠- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتب العلمية - ط١ - بيروت ١٩٩٥م

- ١٤١- النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن الأتابكي، المؤسسة المصرية العامة - مصر
- ١٤٢- النظام السياسي في الإسلام، المحامي أحمد حسين يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت - ط١ - ١٩٩٧م
- ١٤٣- نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي، الطبعة الأولى - ١٣٧٧هـ
- ١٤٤- نهج البلاغة، الشريف الرضي، دار الأندلس - بيروت ط٢ - ١٩٦٣م
- ١٤٥- هذي هي الوهابية، محمد جواد مغنية، منظمة الإعلام الإسلامي - طهران - ١٤٠٨هـ
- ١٤٦- الوافي، الفيض الكاشاني، مكتبة الإمام أمير المؤمنين - أصفهان - ١٤١٢هـ
- ١٤٧- وسائل الشيعة، الحر العاملي، المطبعة الإسلامية - طهران - ١٣٧٦هـ
- ١٤٨- وقعة صفين، نصر بن مزاحم، المؤسسة العربية ط٢ - ١٣٨٢هـ
- ١٤٩- الوقوف على صحيح مسلم من الموقوف، ابن حجر، نشر مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ط١ - ١٤٠٦هـ
- ١٥٠- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان القندوزي، دار الأسوة - ط١ - ١٤١٦هـ

محتويات الكتاب

- ٥.....مقدمة الكتاب.....
- ٩..... * الفصل الأول: بحث في التجسيم.....
- ١١..... - ابن تيمية يتبنى عقيدة التجسيم.....
- ١٢..... - ابن تيمية يدعو المسلمين إلى الإيمان بمعبود اليهود حسب التوراة.....
- ١٣..... - رؤية الله تعالى بالعين محال.....
- ١٦..... - ابن تيمية وصفات الله تعالى.....
- ١٧..... - وجه الله.....
- ١٩..... * الفصل الثاني: التوسل والاستغاثة وطلب الحوائج.....
- ٢١..... - رأي الوهابية.....
- ٢٤..... - كلام السهمودي الشافعي.....
- ٢٥..... - الاستغاثة بالميت.....
- ٢٧..... - الاستغاثة بالأنبياء استغاثة بالأحياء.....
- ٢٨..... - عثمان ابن حنيف يأمر بالاستغاثة بقبر النبي ﷺ.....
- ٣٠..... - الاستغاثة بالقبور.....
- ٣٠..... - زيارة القبور والمشاهد عند الوهابية.....
- ٣١..... - الأحاديث في زيارة القبور.....
- ٣١..... - فعل الصحابة والتابعين.....

- * الفصل الثالث: الصلاة والدعاء عند القبور..... ٣٥
- رأي الوهابية..... ٣٧
- سيرة الصحابة والمسلمين..... ٤٠
- استقبال القبلة أم القبر الشريف عند الدعاء..... ٤١
- معنى حديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد..... ٤٣
- فتاوى الفقهاء حول الصلاة في المقبرة..... ٤٤
- خلاصة الفصل الثالث..... ٤٥
- * الفصل الرابع: بناء القبور وعقد القباب عليها..... ٤٩
- رأي الوهابية..... ٥١
- مناقشة الفكرة..... ٥٢
- الشواهد على تعليم القبور..... ٥٦
- مناقشة حديث الطمس..... ٥٧
- مناقشة سند الحديث ودلالته..... ٥٨
- الفوائد المترتبة على بناء القبور..... ٦١
- * الفصل الخامس: الإسراج على القبور..... ٦٣
- رأي الوهابية..... ٦٥
- مناقشة الفكرة..... ٦٥
- سيرة النبي الأكرم ﷺ في الإسراج..... ٦٦
- أقوال العلماء في الإسراج على القبور..... ٦٧
- * الفصل السادس: الشفاعة..... ٦٩
- رأي الوهابية في الشفاعة..... ٧١
- معنى الشفاعة وحقيقتها..... ٧٢

- ٧٣ - أقسام الشفاعة.....
- ٧٥ - مورد الشفاعة.....
- ٧٦ - الشفعاء.....
- ٨٠ - الشفاعة في الروايات.....
- ٨١ - شفاعة الأموات.....
- ٨٥ - شرائط شمول الشفاعة.....
- ٨٦ - شبهات حول الشفاعة.....
- ٩١ * الفصل السابع: في المآتم والمرايم.....
- ٩٣ - أدلة العامة على تحريم العزاء والبكاء على الميت.....
- ٩٦ - أدلة المجوزين على عقد المآتم.....
- ٩٧ - السيرة العملية للنبي الأكرم.....
- ٩٩ - سيرة الصحابة والتابعين.....
- ١٠٣ * الفصل الثامن: التبرك بالقبور.....
- ١٠٥ - رأي الوهابية.....
- ١٠٥ - مناقشة الفكرة.....
- ١٠٦ - تبرك الصحابة بالقبور.....
- ١٠٧ - فتاوى فقهاء المسلمين في التبرك بالقبور.....
- ١٠٨ - التبرك بآثار النبي ﷺ.....
- ١٠٩ - فتاوى العلماء في التبرك بالقبور.....
- ١١٠ - رواية في تقبيل القبر.....
- ١١٠ - قبور وجنائز يتبرك بها.....

- * الفصل التاسع: زيارة القبور..... ١١٣
- رأي ابن تيمية وأتباعه في زيارة قبر النبي ﷺ..... ١١٥
- مناقشة الفكرة..... ١١٥
- سيرة الصحابة في الزيارة..... ١١٧
- مناقشة حديث شد الرحال..... ١١٨
- موقف العلماء من مزاعم ابن تيمية..... ١١٩
- الأحاديث في زيارة القبور..... ١٢٠
- فعل النبي ﷺ والصحابة والتابعين..... ١٢١
- رأي الفقهاء في زيارة القبور..... ١٢٢
- خلاصة الفصل التاسع..... ١٢٣
- * الفصل العاشر: زيارة النساء للقبور..... ١٢٧
- رأي الوهابية..... ١٢٩
- مناقشة الفكرة والحديث المروي..... ١٢٩
- بحث في سند ودلالة الحديث..... ١٣٠
- فتاوى علماء المسلمين..... ١٣١
- * الفصل الحادي عشر: الحلف بغير الله..... ١٣٣
- دعوى الوهابية..... ١٣٥
- مناقشة الدعوى والحديث..... ١٣٥
- صدور الحلف من النبي ﷺ..... ١٣٦
- تقرير النبي ﷺ..... ١٣٧
- تقرير الصحابة وغيرهم..... ١٣٧
- موقف العلماء من ابن تيمية..... ١٣٩

- * الفصل الثاني عشر: في النذر لغير الله..... ١٤١
- دعوى الوهابية في النذر لغير الله..... ١٤٣
- مناقشة الدعوى..... ١٤٣
- الروايات تؤكد جواز النذر لغير الله..... ١٤٤
- معنى النذر..... ١٤٥
- هل المشابهة توجب التكفير؟..... ١٤٥
- سيرة المسلمين في النذور..... ١٤٧
- أقوال العلماء في النذر لغير الله..... ١٤٨
- * الفصل الثالث عشر: الاحتفالات..... ١٥١
- رأي الوهابية ودليلهم..... ١٥٣
- مناقشة الفكرة والدليل..... ١٥٤
- سيرة المسلمين..... ١٥٥
- فتاوى وكلمات العلماء..... ١٥٦
- مناقشة سند الحديث..... ١٥٦
- مناقشة دلالة الحديث..... ١٥٧
- تفسير مفاد الحديث..... ١٥٧
- مناقشة الحديث (لا تجعلوا قبوري عيداً)..... ١٥٨
- * الفصل الرابع عشر: نظرية البداء عند الشيعة..... ١٥٩
- الأمر الأول: تفسير لفظ البداء..... ١٦١
- الأمر الثاني: إحاطة علمه تعالى بكل شيء..... ١٦٢
- الأمر الثالث: تغيير المصير بالأعمال الصالحة والظالحة..... ١٦٤
- الأمر الرابع: إمكان النسخ في التشريع والتكوين..... ١٦٥

- الأمر الخامس: حقيقة البداء في ضوء الكتاب والسنة..... ١٦٦
- تنبيهات حول البداء..... ١٦٨
- أسئلة الفصل..... ١٧٥
- * الفصل الخامس عشر: القرآن الكريم والتحريف..... ١٧٧
- البحث الأول: التحريف وأقوال العلماء..... ١٧٩
- البحث الثاني: روايات نقص القرآن وزيادته في مصادر أهل السنة.. ١٨٣
- البحث الثالث: محاولات تحريف مكشوفة من أحد الخلفاء..... ١٨٩
- البحث الرابع: آيات زعم عمر وعائشة أنها من القرآن..... ١٩١
- البحث الخامس: هل البسمة من القرآن؟..... ١٩٣
- البحث السادس: صيانة القرآن من التحريف وفيه أبواب..... ٢٠٠
- الباب الأول: معنى التحريف..... ٢٠١
- الباب الثاني: رأي المسلمين في التحريف..... ٢٠٤
- الباب الثالث: نسخ التلاوة مذهب مشهور بين علماء السنة..... ٢٠٥
- الباب الرابع: التحريف والكتاب..... ٢٠٨
- الباب الخامس: التحريف والسنة..... ٢١٢
- الباب السادس: دعوى وقوع التحريف من بعض الخلفاء..... ٢١٥
- الباب السابع: شبهات القائلين بالتحريف..... ٢٢٠
- البحث السابع: شبهة جمع القرآن الكريم على عهد عثمان..... ٢٢٨
- * الفصل السادس عشر: في النبوة..... ٢٣٩
- المسألة الأولى: ضرورة بعثة الأنبياء..... ٢٤١
- المسألة الثانية: في حسن البعثة وفوائدها..... ٢٤٣
- المسألة الثالثة: في وجوب البعثة..... ٢٤٥

- المسألة الرابعة: في وجوب العصمة وحقيقتها ومبدأ ظهورها..... ٢٤٦
- المسألة الخامسة: الأدلة على عصمة الأنبياء، وتقسيم إلى مجموعتين: ٢٥٠
- الأولى: الأدلة العقلية على العصمة..... ٢٥٠
- الثانية: الأدلة النقلية على العصمة..... ٢٥٤
- المسألة السادسة: العصمة اختيارية للنبي ﷺ..... ٢٥٦
- المسألة السابعة: شبهات حول عصمة الأنبياء وأجوبتها..... ٢٥٧
- * الفصل السابع عشر: الإمامة والخلافة..... ٢٧٥
- مقدمات الفصل:
- تعريف الإمامة..... ٢٧٧
- هل الإمامة من الأصول أو الفروع..... ٢٧٨
- ماهية الإمامة عند أهل السنة..... ٢٧٩
- مؤهلات الإمام عند أهل السنة..... ٢٨١
- بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنة..... ٢٨٣
- ماهية الإمامة عند الشيعة..... ٢٨٧
- المصالح العامة وصيغة الحكومة بعد النبي..... ٢٩٩
- هل الشورى أساس للحكم والخلافة..... ٣٠٣
- هل البيعة أساساً للحكم والخلافة..... ٣٠٧
- تصور النبي الأكرم للقيادة بعده..... ٣١٠
- تصور الصحابة للخلافة بعد النبي ﷺ..... ٣١١
- صيغة القيادة في الشرائع السابقة..... ٣١٣
- البحث الأول: الأدلة العقلية لإثبات العصمة..... ٣١٧
- البحث الثاني: السنة النبوية وتنصيب علي عليه السلام للإمامة..... ٣١٨

- البحث الثالث: السنة النبوية والأئمة الاثنا عشر..... ٣٢٤
- البحث الرابع: عصمة الإمام في القرآن..... ٣٢٦
- شبهات حول آية التطهير..... ٣٣٢
- البحث الخامس: الإمام أفضل الصحابة..... ٣٤٠
- البحث السادس: بحث في إمامة باقي الأئمة عليهم السلام..... ٣٤٧
- * الفصل الثامن عشر: في الإمام المنتظر (عج)..... ٣٥١
- البحث الأول: فكرة المهدي وجذورها في التاريخ..... ٣٥٣
- البحث الثاني: المهدي (عج) من الفكرة إلى الواقع..... ٣٥٥
- البحث الثالث: الإمام المنتظر في العقل والكتاب والسنة..... ٣٥٦
- البحث الرابع: تساؤلات حول المهدي (عج) منها:..... ٣٥٨
- ١- كيف يمكن له هذا العمر الطويل؟..... ٣٦٠
- ٢- كيف اكتمل إعداده القائد؟..... ٣٦٦
- ٣- لماذا لم يظهر القائد؟..... ٣٧٢
- ٤- لماذا غاب المهدي (عج)؟..... ٣٧٧
- البحث الخامس: ما هي علائم ظهوره؟..... ٣٧٨
- البحث السادس: الأمور التمهيدية لظهور الإمام..... ٣٧٩
- * الفصل التاسع عشر: إيمان أبي طالب عليه السلام..... ٣٨٣
- المبحث الأول: الاستدلال على إيمان أبي طالب عليه السلام..... ٣٨٧
- الدليل الأول : شعره الدال على إيمانه..... ٣٨٨
- الدليل الثاني : سيرته وإخلاصه للرسول والرسالة..... ٣٨٩
- الدليل الثالث : وصيته عند موته..... ٣٩٤
- الدليل الرابع : دعاء النبي صلى الله عليه وآله له بالخير والمغفرة وشفاعته له..... ٣٩٥

- الدليل الخامس: حزن النبي الأكرم على أبي طالب..... ٣٩٧
- الدليل السادس: عدم التفريق بين أبي طالب وزوجته..... ٣٩٧
- الدليل السابع: ما يروي عنه بني هاشم..... ٣٩٨
- الدليل الثامن: شهادة أئمة أهل البيت عليهم السلام له بالإيمان..... ٣٩٩
- المبحث الثاني: الآية الكريمة والأحاديث التي استدلووا بها على
عدم إيمانه..... ٤٠١
- * الفصل العشرون: نظرية عدالة الصحابة..... ٤٠٣
- البحث الأول: معنى الصحابة لغة واصطلاحاً..... ٤٠٥
- البحث الثاني: دليل أهل السنة على عدالة جميع الصحابة..... ٤٠٨
- أ - تساؤل واستنتاج..... ٤١٠
- ب - التفاضل سنة إلهية..... ٤١٠
- ج - نظام التفاضل في الإسلام..... ٤١١
- د - أركان التفاضل..... ٤١١
- البحث الثالث: نقض نظرية كل الصحابة عدول..... ٤١٣
- وجوه النقض
- الوجه الأول: أنها تتعارض مع النصوص القرآنية القاطعة..... ٤١٣
- الوجه الثاني: أنها تتعارض مع السنة القطعية..... ٤١٦
- الوجه الثالث: أنها تتعارض مع واقع الحال..... ٤١٨
- * الفصل الحادي والعشرون: شبهات متفرقة..... ٤٢١
- ١- الشبهة الأولى: نحن معاشر الأنبياء لا نورث..... ٤٢٤
- ٢- الشبهة الثانية: فصل الدين عن السياسة..... ٤٢٩
- ٣- الشبهة الثالثة: في عصمة النبي موسى عليه السلام..... ٤٣٥

- ٤- الشبهة الرابعة: التقية فرع من النفاق.....٤٣٦
- ٥- الشبهة الخامسة: إقرار القرآن تسخير الإنسان لأخيه الإنسان.....٤٤٠
- ٦- الشبهة السادسة: عدم السعي في طلب الرزق.....٤٤٢
- المصادر والمراجع.....٤٤٥
- محتويات الكتاب:.....٤٥٥